ملف خاص

القصائد الفائزة
بمسابقة حلب
عاصمة الثقافة الإسلامية

شتاء ٢٠٠٧



زنبيا والزبّاء

أصداء الأندلسيين في حلب

تكية الشيخ أبي بكر الوفائي

عمارة أسوار مدينة حلب في العهد الأيوبي

ماوية: ملكة عربية من القرن الرابع الميلادي

العاديّات

فصلية تعنى بشؤون التراث والفكر



تصدرها في حلب جمعية العاديات السورية

بموجب الترخيص رقم ٧٨٧٣/٢٠٠٢

الاشتراك السنوي

سورية: ٣٠٠ ل.س "بدون أجور بريد" - ٤٠٠ ل.س مع أجور البريد

الدوائر الرسمية والمؤسسات /الهيئات العامة: ١٠٠٠ ل.س

خارج سورية: ٥٠ دولاراً أمريكياً

للمؤسسات ١٥٠ دولارًا أمريكيًا

ثمن النسخة في سورية: ٧٥ ل.س

العدد المزدوج: ١٥٠ ل.س

مجلة العاديات

- ص. ب ٦٤٧٤
- هاتف وفاكس: ٢٢٦٧٦٧٤ _ ٢٢٨٥٧٣٠
- الموقع على الإنترنت: www.adyatsyria.com
- البريد الإلكتروني: Email: adyat@scs-net.org

مكاتب الفروع

المدينة	الاسم	الهاتف
اللاذقية	صفوان شريتح	هـ: ٤٦٢٤٣١
حمص	شعيب شعبان	هـ: ٥١٤٩٧٠
حماه	محمد مسعف الشيخ خالد	هـ: ٠٩٣٤٦١١٠٠
جبلة	جهاد جديد	هـ: ٨٣٣٠٧٤
السويداء	محمد طربية	هـ: ٢٢١٠٢٣
سلمية	رومل قطريب	هـ: ٨٢٥٥٥٣
الميادين	علي امرير	هـ: ٧٠٠٠٢١
طرطوس	علي سوريني	هـ: ٢٢٩١١٩
الرقة	محمد العزو	هـ: ٢٣٢٥٠٦
درعا	يونس شلبي	هـ: ٢٣٧٩١٧
إدلب	فايز قوصرة	هـ: ٢٢٩٨٠٩
مصياف	حسين حج ابراهيم	هـ: ٧١٧٥٥٤
الحسكة	أحمد ادريس	هـ: ٣١٢٩٣٣
مكتب دمشق	سهيل الملاذي	هـ: ٣١٢١٣٠٠

شروط النشر في المجلة

يسرّ أسرة تحرير مجلة العاديات أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الكتاب والمثقفين والباحثين في التراث والفكر.

وترى أسرة التحرير أن تكون المواد المرسلة وفق الشروط الآتية:

- أن تراعي المادة المرسلة قواعد البحث العلمي من حيث الموضوعية والمنهجية وذكر المصادر والمراجع.
- تراجع المواد المرسلة من قبل أسرة التحرير، ولا تعاد المادة إلى صاحبها في حال عدم نشرها.
- تفتح المجلة أبوابها للحوار حول الموضوعات المنشورة.
- ترتيب المواد يخضع لاعتبارات فنية.
- ألا تتجاوز المادة المقدمة للنشر عشرين صفحة، و أن تكون مرفقة بالصور والمخططات الموضحة للموضوع.
- الآراء الواردة في المجلة تمثل وجهة نظر أصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير.
- يحصل المساهم في المجلة على نسختين مجانيتين من العدد الذي ساهم فيه.
- توجه المراسلات باسم مدير التحرير.

ترسل المواد إلى المجلة عن طريق بريدها الإلكتروني أو على قرص مرن مرفق بنسخة مطبوعة على الورق.

العنوان البريدي: ص. ب ٦٤٧٤ حلب، سورية

أو تسلم باليد في جمعية العاديات، شارع اسكندرون، جانب صالة معاوية

ننتظر مساهمتكم في تحرير هذه المجلة سواء بالكتابة فيها أو تقديم أي اقتراح يفيد في تحسين أدائها، وجعلها لائقة بجمعيتنا العريقة.

التحرير



مجلة العاديّات

في عددها السادس عشر

نغتبط ونحن نودع العام الرابع لنستقبل العام الخامس لمولود بدأ ينضج ويتكامل، شهد بذلك كل مَن تابع المجلة وهي تسير قدماً باتجاه التطلع الذي تصبو إليه جمعية العاديات في نشاطاتها المختلفة.

وستبقى مجلة العاديات فاتحة أبوابها وصدرها لاستقبال الأبحاث والدراسات والمتابعات والآراء، وهي رئة، ليس لحلب وحدها، بل للوطن العربي من الماء إلى الماء، فقد أصدرت أعداداً خاصة ببعض المحافظات السورية، وما تزال تسعى لتواظب على خطّتها ليصدر في مطلع كل عام عدد خاص بإحدى المحافظات، يشارك فيه أبناء المحافظة أنفسهم على نطاق واسع.

والمجلة في خطتها الجديدة تنوي إجراء لقاءات مع الأعلام المهتمين بالتراث والآثار لتغتني بآرائهم، كما أنها ستقدم مواد التحقيق والزيارات والرحلات موثقة بالصور. وهي قد دأبت على التعريف بأعلامنا وعلى تلخيص الكتب ومتابعة المحاضرات والندوات التي يحتضنها منبر الجمعية.

ولم تكن الآثار همنا الوحيد، بل لقد حثثنا الخطا باتجاه التراث كي نتعلم منه الدروس ونحن نتسلق المسالك الصعبة نحو غدٍ مشرق.

بل لقد عنينا أيضاً بالتراث غير المادي، وهو جزء مهم من تراثنا الذي نعتز به، فمن يستطيع أن يستغني عن الأمثال الشعبية وهو يتحدث عن أعوام خمسة كابد فيها الباحثون والعلماء لتخرج المجلة إلى أيدي القراء وقد تكامل فيها الشكل والمضمون.

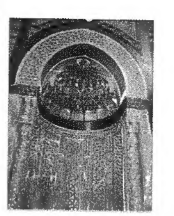
في هذا العدد تتوزع الأبحاث بين العمارة التراثية والعمارة الفكرية والدعوة إلى التجديد انطلاقاً من هويتنا التي تتمسك بالجذور. كما لم تغب عنه نتائج التنقيبات الأثرية، وفي هذا العدد أيضاً تحدّث باحثون عن مفخرة المباني وعظمة كثير من أعلامنا.

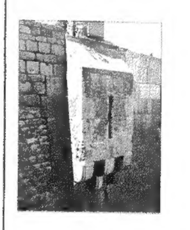
العدد يضم ملفاً للشعر الذي قيل في حلب الشهباء وفاز قائلوه بجائزة حلب عاصمة الثقافة الإسلامية. كما يضم متابعات لمحاضرات الجمعية ونشاطاتها وبرامجها القادمة.

عدد يتوّج أعواماً سابقة وكلنا أمل بأن تنال المجلة إعجابكم وتلبي بعض طموحاتكم وترفد المكتبة العربية بما هو مفيد.

مدير التحرير

محتويات العدد









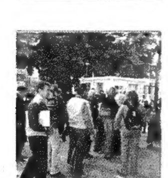


خريف وشتاء ٢٠٠٧











الغلاف الأمامي: باب قنّسرين - لقطة من الداخل

الغلاف الخلفي: لوحة السندباد البري - سعد يكن

التصميم والإخراج: محمد أبو الخيل

لوحة للفنان شريف محرم
من مقتنيات جمعية العاديات

تقليد عثماني في ولاية حلب

تكية الشيخ أبي بكر الوفائي

بغداد عبدالمنعم*



الأدراج المؤدية إلى الهضبة حيث مسجد وتكية الشيخ أبي بكر الوفائي

بقيتْ الشامُ دوماً القبلة العربية المباشرة للدولة العثمانية.. وما تغيرَ نبضُ تلك الكلمات الجميلة المُحَمَّلَة بلكنة تركية.. تلك التي وَسَمَتْ هذه المنطقة من قلب الإسلام.. بـ "شام شريف"..

لمدينة حلب خصوصيةٌ وأسبقية في محيط الاهتمامات والتأثيرات العثمانية تفوق سائرَ المدن الشامية، وذلك لقربها الشديد من المدنيات المركزية في الدولة، فقد كانت حلب أول ولاية عربية عثمانية بعد الانتصار العثماني النهائي على المماليك في معركة مرج دابق /٩٢٢هـ - ١٥١٦ م/ فبعد أن دخل السلطان المنتصر سليم الأول حلب عين قره جه أحمد باشا

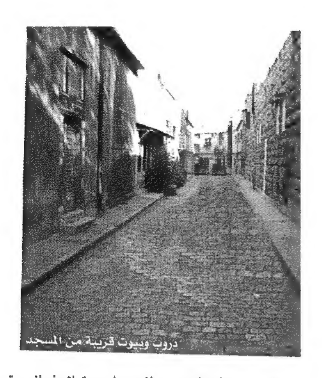
* مهندسة مدنية - دكتوراه في تاريخ الهندسة.

والياً على حلب.. هذا التقدم العسكري ثم السياسي أولدَ لاحقاً انتقالاتٍ حضارية وثقافية بين مركز الدولة العثمانية وباقي مناطق الخلافة.. غير أن حلب بقيت الأكثر قُرباً في نقل وتبني هذا التأثير على نحو كبير.. وكانت العمارة أحد هذه العناصر الثقافية التي انتقلت من مركزيتها العثمانية إلى هذه المدينة الشامية القريبة جداً من التخوم التركية..

وقد كانت عمارة المساجد من أكثر التكوينات المعمارية شهرةً وظهوراً في المدينة الإسلامية فشكلت مجالاً جمالياً عميقاً في هذا الانتقال والتأثر الحضاري عبر هذه العلاقة الثقافية المهمة حضاريا وعالمياً وإسلامياً.

تكامل ونضج الملامح المعمارية العثمانية

بدءاً من القرن العاشر الهجري ظهرت في بلاد الشام نماذج مُصغرة للمساجد التي كانت منتشرة في المنطقة المركزية للدولة العثمانية (تركيا) بعيدة كل البعد عن النمط المحلي الذي كان سائداً في بلاد الشام..


دروب وبيوت قريبة من المسجد

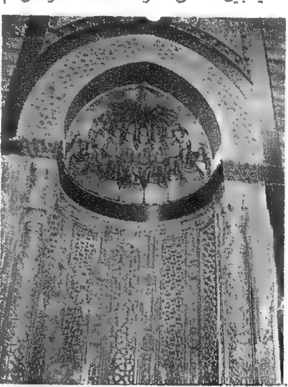
فظهرت الملامح المعمارية العثمانية بوضوح.. من هذه الملامح المساجدية: القبة المركزية الكبيرة لتسقيف بيت الصلاة، والمئذنة المخروطية المدببة باتجاه السماء والمؤلفة من /١٦/ ضلعاً وانعدام الأعمدة التي كانت منتشرة في بيت الصلاة.. وأما من الناحية الإنشائية فظهرت الدعامات الحجرية لأعناق القباب وذلك لحمايتها من التصدع والانهيار. وظهرت


واجهة بيت الصلاة في المسجد وإلى جانبها ضريح الشيخ الجليل



طريقــة اســتعمال الصــفائح الرصاصـية لتغطيــة القبــاب وقمــم المــآذن، وهــذه الطريقــة انتشــرت في المركــز الأول للدولـة العثمانيــة (تركيــا) بســبب خصوصـيات الطقس الحادة من غزارة الأمطار وهطل الثلوج..

وإذن بــدأتْ علاقــاتٌ معماريــة غــير عادية بين مناطق الدولة الناهضة.. ولكنْ لم



المحراب الغني بزخارفه الحجرية المتنوعة. ويبدو ان الولاة العثمانيين كانوا يبدؤون ولايتهم من هذا المكان.. بالدعاء والتزود بزاد التقوى

تكن متوازنة ومتساوية دوماً.. فقد صَدَّرَتْ نماذجَهَا المعمارية الرسمية والسلطانية مع الاخــتلاف الكُلــي مــن ناحيــة حجــم هــذه الأشــكال الفراغيــة لتكــون آصــغر وأشــد بســاطة مــن ناحيــة الزخــارف والتزيينــات.. تلــك المســاجد الشــامية-العثمانيــة اجتمــع فيهــا بــآن معــاً شــيءٌ مــن الطــراز المعمــاري العثمــاني (فــن العمــارة الفراغيــة المطلقــة) ومفرداتٌ وتقاليدٌ من العمارة المحلية.. فقد انتقلتْ أحيانــاً " المئذنــة المخروطيــة (قلــم الرصــاص المــدبب) ويمكــن أنْ نلاحــظ أن طــرازاً معماريــاً جديــداً عثمانيــاً قــد دخــل مدينــةَ حلــب مــن خــلال المســقط الأفقــي والاستغناء عن الأعمدة والدعامات وسقف القبلية بقبة مركزية تستند إلى رقبة دائرية من الداخل وذات /١٦ بروزاً/ من الخارج، بــين الــبروزات /١٦ نافــذة/ وفي كــل زاويــة دعامتان.. تستند الرقبة والشرفة حولها إلى ثمانية أقواس بأربعة مراكز تنقل الحمل إلى الجــدران ذات الســماكة الكبيرة.. والأقــواس تشــكل حنيــات ركنيــة (قوصــرات) داخلــها مقرنصــات للانتقــال مــن الــدائرة داخــلِ الحنيــة إلى زاويــة المربــع.. وظهــرتْ أيضــاً المآذن متعددة الأضلاع..

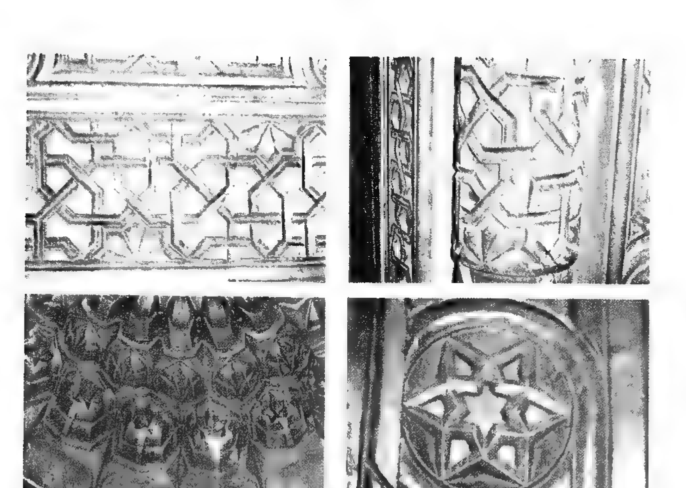
في هـذه الفتـرة بُنيت في مدينـة حلب ثلاثـة نمـاذج مـن أنمـاط العمـارة العثمانيـة: المدرسـة الخسـروية والمدرسـة العادليـة والمدرسة البهرمية وكلها بنيت في النصف الثـاني مـن القـرن الهجـري العاشـر وأمـا مسجد وتكية الشيخ أبي بكر الوفائي فهو لا يشكل تكوينـاً معماريـاً عثمانيـاً باذخـاً.. بـل لعلهُ اكتسب شخصيتَهُ من حضوره المحليِ القـديم مـا قبـل العثمـاني ثم كرسـه الـولاة العثمـانيون مكانـاً روحيـاً يحضـرون إليـه في بدء توليهم مما منحه بعداً سياسياً أيضاً.

حلب الكلاسيكية

يحـاول المؤرخـون دومـاً أن يكونـوا موضـوعيين.. وأن يسجلوا الثوابـت فيقعـون في دائـرة الوصـف الضـيقة.. لكنـهم في كـل الأحوال ينقلون صورةً نستطيع دوماً إعادة قراءتهـا وتجـاوز ثباتها: "إذا أرسلت طرفك للشمالِ الشرقي من مدينة حلب تجدُ جبلاً صـغيراً فيـه عـدة بنايـات وفي وسـطه أربـع قبـاب مرتفعـة وهنـاك أشـجار مـن السـرو، تحت هذه القباب ضريح الشيخ أبي بكر بـن أبي الوفـا رضـي اللهُ عنـه وقـد اشتُهِر هـذا المكـان باسمـه"[1] في هـذا النص التأريخي المتـأخر نستطيع تجـاوزَ الثبـات إنْ نحـن قرأنـا العلاقـةَ بـين الأشـجار والقبـاب فكلاهمـا سـقفان انفتاحيـان.. وكلاهمـا للإنسان فليس للقبة ذلك الاستواء المحدود الـذي يوقف البصرَ عند نقطة محددة.. بـل إنَّ تلـك السـماء الصـغيرة (القبـة) تعطـي إمكانـاتٍ غنيـة للرؤيـة.. ثمة رابطٌ عميق مـا بـين الشـجرة والقبـة.. وغالبـاً مـا تحمـل الأمـاكنُ القديمة عناصرَ البيئة الأرضية في حيزهـا كنوعٍ من التوحد والطبيعية.. فتلك جمالياتٌ عفوية مستمرة..

تـوفي الشيخ أبـو بكـر عـام ٩٩١/ هـ - ١٥٨٣ م/ أمَّا منْ قامَ ببنـاء حجرة الضـريح والاعتنـاء ببنـاء المسـجد والانفـاق علـى التكيـة فهـو أحمـد القـاري المتـوفى سـنة


ضريح الشيخ أبي بكر الوفائي



/١٠٤١ هـ - ١٦٣٢ م/ وقبره قائمُ جوار المسجد.. غير أن التكية كانت مسجداً في القرن السابع الهجري.. ولأن المدن تتمدد عادةً وتكبر.. ولأنَ قَدر المدينة العربية أن تجتاحها الحداثةُ اجتياحاً بما يشبه الاحتلال والابتذال.. فقد أضحت هذه الهضبةُ الجميلة بحجارتها وبناءاتها في وسط المدينة الحديثة بينما كانت قديماً خارجها وبعيدة عن أسوارها.. وكان على قمتها هذا المسجد.. ثم بني على أنقاض المسجد تكية كبيرة عُرفَتْ بذلك منذ القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي كمقرٍ لدراويش الطريقة الوفائية إحدى الطرقِ التي انتشرت في حلب.

حين دخل العثمانيون حلب /١٥١٦ م/ سميت هذه الهضبة (أورته تبة) أي الهضبة الوسطى لتوسطها بين هضبتين أخريين قريبتين منها (هضبة جبل العظام وهضبة جبل الغَزَّالات).. وقد أخذ الحيُّ الذي نما لاحقاً حول المسجد اسمَهُ من اسم الشيخ الجليل.. لكن من سوء الحظ أن القرن العشرين كان قد بدأ.. وكانت اضطراباتُ العمارة قد بدأت تلاحقُ المدينةَ العربية فاجتاحت هذا الحيَّ بناياتٌ فوضوية وشوارعُ ارتجالية اكتظتْ وتكاثفت وحولَتْ المكان عن هدوئه الصلب الحزين إلى ضجيج أعمى بدون طائل وكان يمكن لهذا المكان ذي المركزية المسجدية المهمة.. ذي القباب والأدراج أنْ يأخذ طابعَهُ من هذه الهوية العتيقة..!

مقر للولاة العثمانيين!!

هـذا البُعـد وتلـك الهضـبة وأشـجار الصـنوبر ومسـحة النقـاء القديمـة في هـذا المكان جعلته يدنو من السماء شيئاً فشيئاً.. حـتى كـان هـذا المسـجد الصـغير ولكـن المرتفع بهدوء وتلقائية.. المتقشف ولكنْ، الحامل لمفردات الجمال الأساسية.. وفيما بعد أخذ يكتبُ نصَّهُ الجمالي الخاص جداً لـيس في العمـارة فقـط.. ولكـن في الحيـاة والناس.. والمدهش في السياسة أيضاً!

فالأشياء الجوهرية المهمة لا ترتبط بـزمن قصـير ولا بمجـرد شـخصٍ واحـد.. لكنها انتقـالات الحضـارة في نـبضِ مجتمـع يسـتمر.. فثمـةَ أدراجٌ تقـودُكَ إليـه.. ليسـتْ أدراجاً فقط بل لعله صعودٌ بأشجار وارفة يقـودك إلى المنبسـط الأعلـى في الهضـبة.. ويبدو أن المكـان ببعده وارتفاعـه وأشـجاره وفرَ تلك العزلة النقية والبسيطة لمسجد بسيط كسته الأزمانُ أهمياتٍ متتابعة.. من مسجد إلى مسجد وفيه ضريح الشيخ أبي بكر الوفائي.. ثم إلى تكية.. وإلى مكان يؤمُهُ الساسةُ العثمانيون ويبسطون إليه الدعاء والمطالب..

كـان ولاة حلـب مـن الدولـة العثمانيـة يقيمون في هـذه التكيـة منـذ نشـأتها الأولى إلى أواسـط القـرن الثالـث عشـر الهجـري وكـان كـثيرٌ منـهم يعتنـون بشـأن التكيـة ويحـرص كل واحـد أن يتـركَ لـه فيهـا أثـراً ومـن ذلـك أن ثمـة قاعـة كـبيرة مزدانـة بالقاشاني كانت قائمةً فيها لكن لا وجود لها الآن..! ومـن بقايـا العناصـر المعماريـة الجميلـة الباقيـة حـتى الآن (المحـراب) في حجرة الضريح..[٢] وثمة قبور عديدة لبعض الولاة وزوجاتهم خارج بيت الصلاة وغرفة ضريح الشيخ..

كـان المسـجدُ قائماً في القـرن السـابع الهجري ومما يدعمُ ذلك ذكرِه عند المؤرخ ابن شداد الذي صنع مسحاً تاريخياً مدنياً ومعمارياً لمدن بلاد الشام الرئيسات وكان هـذا المسـجد مـن بـين تسـجيلاته الـتي ذكرها عن مدينة حلب[٣] / توفي ابن شداد ٦٨٤ هـ - ١٢٨٥م / وحتى الوقت الذي دفن فيه الشيخ أبو بكر كان هذا المكان ما يزال مسجداً /٩٩١هـ - ١٥٨٣م/.

ليس هـذا المسـجد بمكانـه الصـغير - الكـبير وبـأي تكـوين مـن تكويناتـه مـن العمـارات السـلطانية الـتي تشـهقُ بأبعادهـا وزخارفها وأبهتها.. بل يكاد يميل إلى الزُهد والتقشف ويجتاحُهُ الهدوءُ والزُهـد والصبر.. ومع ذلك فقد شكّلَ محطةً روحية ونفسية للسياسة!

هوية معمارية أم أكثر من ذلك؟!

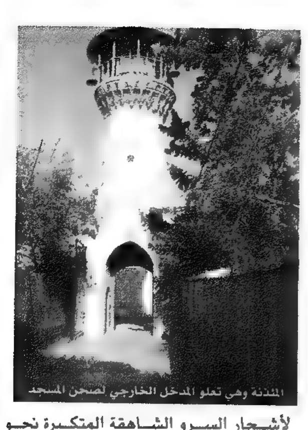
لهذا المكان هويةٌ أكثر من معمارية.. هويـةٌ إسـلامية عميقـة.. فلهـذه الأمكنـة الإيمانية غيماتُ عطرٍ وجاذبياتٌ لا تُصدق.. هـي أقربُ إلى الحضـارية الطويلـة المرتبطـة بقوة حقيقية تحركُ في الحجر روحَهُ وأداءَهُ..

ثمـة قبـاب.. ثمـة ضـريح.. وثمـة بيـتُ الصـلاة ومحـرابٌ أحنى الحجـرَ وصنـعَ لـه لوحتَــهُ الخالــدة والنبيلــة.. كأنهــا لوحــةُ الصلاة.. لعلها لوحةُ الإيمان.. هنا مكان لهذا الشيخ القـديم.. أخذ الحيُ الصـغير اسمَهُ.. لكنَّـهُ لم يفهـم لاحقـاً وظيفيتـه الفائقـة في تصـدير الـروح للمدينـة!! فبـدءاً مـن سـنة ١٢٧٩ هـ - ١٨٦٣م/ بدأ البناء حول التكية.. وتكاثر على نحو كبير بعد الاستقلال خلال النصف الثاني من القرن العشرين.

في هويتــه المعماريــة الحاليــة ثمــة فسـحةٌ حانية تحيطُ بالمسـجد تمتد أمام القبليـة، بينمـا تـدانيها مـن كل الأطـراف

بيوتٌ مُلاصقة ما زال معظمها محافظاً على تقاليد البيت العربي القديم ولا يُوصَلُ إليها إلا بعد ارتقاء أدراجٍ عديدة.. في الواجهة الداخلية للمسجد وفي القسم الأيمن منها نشهدُ تناوبَ اللونين الأبيض والأسود تزينها من ثم المزررات والزخارف الحجرية، وفي مدخل القبلية نجد القوسَ الثلاثي الفصوص.. أما التسقيف فهناك القباب وهناك جذوع الهرم.. وثمة قبة تغطي حجرة الضريح حيث يتم الانتقال فيها بسبعة صفوف من المقرنصات، أما في القبة الكبرى التي تغطي القبلية فكان الانتقال بحنيات ركنية حيث تستند القبة إلى ثمانية أقواس.. حالياً فإنّ بيت الصلاة - عدا قبته الكبيرة - فهو بسيطٌ وصغيرُ المساحة نسبياً وفيه منبرٌ خشبي عادي..أما المئذنة فهي لا ترتفع كما هو شائعٌ إلى جانب القباب أو في وسطهن، بل يبدو كأنما أُضيفتْ لاحقاً فهي تقوم فوق مدخل الباب الخارجي لصحنِ المسجد وربما أعطاها ذلك ميزةً وتفرداً.. في هذه المئذنة البسيطة الجميلة نجد /١٢ ضلعاً/ وشرفة قائمة على مقرنصات بديعة.. وفي منتهى المئذنة مظلةٌ خشبية من /١٢ ضلعاً/ أيضاً.. وأما المحراب فهو أجمل ما في هذا المسجد على الإطلاق.. ولعله أجمل محراب في مدينة حلب، فقد اخترقتهُ الزخارفُ الهندسيةُ بتداخلاتها وجدلياتها ولا نهاياتها.. وحولته إلى كون قائمٍ بذاته يرتفع تحت قبة الشيخ الجليل وليس في وسط القبلية الأساسية التي تتألف من مجاز واحد..

هذا المكانُ ذو المحورية المسجدية المستمرة كان مقراً لأشياء مهمة كثيرة.. مقراً للولاة العثمانيين.. مقراً للطريقة الوفائية.. مقراً أخيراً للشيخ أبي بكر.. مقراً


المئذنة وهي تعلو المدخل الخارجي لصحن المسجد

لأشجار السرو الشاهقة المتكبرة نحو السماء.. وهنا تَشِفُ العمارةُ ببساطتها وهدوئها عن هويتها الكثيفة التي تجمع بين العناصر المحلية البسيطة والعناصر العثمانية.. وثمة خيطٌ روحي رفيعٌ وسامق يجتاحُ عناصرَ المكان.. لعلهُ أبعد من أن يكون زمانياً فقط.. لعله قابلٌ للتأريخ.. لكنه باعتقادي قابلٌ أكثر للمستقبل!!

وجودُهُ البسيط الباقي في فوضوية الزمن الجديد كأنما هو رسالة نبيلة.. كم نحتاجُ إلى تأطيرها وإظهارها وتقديمها إلى العالم كعلاقة ثقافية نبيلة حملتها الحضاريةُ الإسلامية دوماً.

المصادر والمراجع

(١) محمد راغب الطباخ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء. ط٢، تحقيق محمد كمال، دار القلم العربي - حلب ١٩٨٨.

(٢) كامل الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب. ج٢ ص ٤٤٠ وص ٤٤١و خير الدين الأسدي، موسوعة حلب. تحقيق محمد كمال، جامعة حلب ط١ ١٩٨٦، ج٥ ص ١١٦.

(٣) ابن شداد عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم. الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ج ١، ق١. تحقيق يحيى زكريا عبارة. وزارة الثقافة (٨٧) دمشق ١٩٩١. ص٢٠٥.



عمارة أسوار مدينة حلب

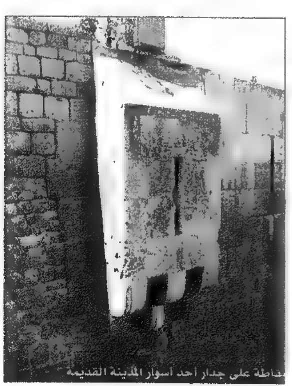
في العهد الأيوبي

محمود زين العابدين*

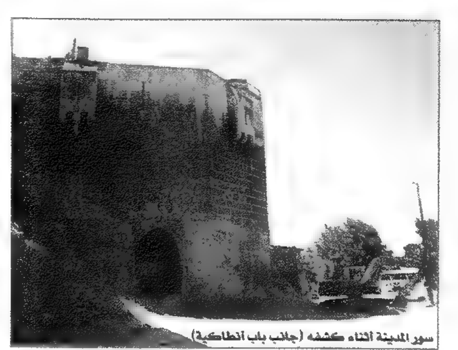
١ - نظرة تاريخية في عمارة مدينة حلب:

تعدّ مدينة حلب أحد أقدم المدن المأهولة في العالم، إذ بدأت التجمعات السكانية فيها منذ أكثر من ٥٠٠٠ عام، ولها جذور قديمة وعريقة ترجع إلى ما قبل التاريخ، وقد ورد اسم حلب للمرة الأولى في ألواح إيبلا، المدينة الأثرية التي اكتشفت في تل مرديخ التي يعود تاريخها إلى ٢٢٥٠ قبل الميلاد. ولا تزال ملامح العهود الهيلينستية والبيزنطية في النسيج العمراني ظاهرة في تخطيط شبكة الشوارع بالقرب من القلعة، وفي الأسواق. وقد توالت عليها عدة حضارات، وتتميز بموقع فريد، جعلها تصبح حلقة وصل بين الطرق التجارية العالمية التي تربط الشرق بالغرب، والشمال بالجنوب، وذلك منذ بدأ ارتباط حلب بالإمبراطوريات الكبرى التي تكوّنت بعد فتوحات الإسكندر المكدوني في المشرق العربي.

ويبدو أن حلب سكنت في العصر الحجري وأنها كانت مقراً لتجمعات سكانية من العصر البرونزي الوسيط. تدل الرقم المكتشفة في تل الحريري وماري على أن حلب كانت ضمن دولة أمورية مشهورة هي يمحاض في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. تناوب على السلطة في حكم حلب أقوام عديدون، وتعرضت الأحياء السكنية في حلب مراراً لخراب مدمر لكنها حافظت على كيانها من الزوال أو الاندثار فقد ماتت المدن القديمة مثل أوغاريت وايبلا وماري وأور ونينوى وبابل وبقيت حلب. من العوامل التي ساعدت على بقاء حلب موقعها الجغرافي والمكانة الدينية لها والكيان الاجتماعي والمناخ فيها[1].


متاطة على جدار أحد أسوار المدينة القديمة

* مهندس معماري.


سور المدينة أثناء كشفه (جانب باب أنطاكية)

٢ - حلب في الفترة الأيوبية:

غـدت مدينـة القـاهرة عاصمة الدولـة الأيوبية الكبرى بعد سقوط الدولة الفاطمية، ولكن حلب بقيت لها أهميتها البالغة، وهذا ما جعل أخا صلاح الدين الأيوبي وابنه يتنافسان على ملكها، فكانت أخيراً من نصيب الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي غازي حكمها ثلاثين سنة شهدت خلالها أجمل فترات الازدهار العمراني والاقتصادي. وقد كان "عسكر حلب" بقيادة الظاهر غازي دائم المشاركة في كل معارك التحرير قبل حطين وخلالها وبعدها. وكان له الدور الحاسم في بعض المعارك كما في تحرير قلعة صلاح الدين التي ضربها منجنيق ولده الظاهر كمال يقول ابن العديم: "وبوفاة صلاح الدين يوم الأربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ انقسمت المملكة الأيوبية بين أبنائه وإخوته، وكان لابد أن يدب الشقاق بينهم. وبقيت حلب من نصيب ابنه الملك ظاهر غازي، الذي تزوج من ابنة عمه ضيفة خاتون، وهي ذات أيادٍ عمرانية وخيرية كبيرة في حلب، أهمها مدرسة الفردوس الكبرى الباقية حتى اليوم".

وقد حاول الظاهر غازي ومن بعده ابنه محمد العزيز ثم حفيده يوسف الناصر الثاني أن يمدوا مملكة حلب الأيوبية، وكانت محاولاتهم بين جزر ومدّ، إلى أن جاء الطوفان المغولي على يد هولاكو فاقتلع حلب الأيوبية عام ٦٥٧ هـ - ١٢٦٠م مدمراً ومخرباً ومحطماً كل أشكال الحضارة[٢].

٣ - أهم مميزات عمارة الأسوار:

تعتبر العمارة العسكرية أحد أهم أنواع العمارة الثلاث: (المدنيـة، والدينيـة، فالعسكرية). وقد ظهرت مع إنشاء المدن ذات الأسوار الدفاعية، والأبراج المستديرة أو المربعة. خاصة وأن الأمة العربية قد خاضت حروباً عدة وخضعت لهجمات دائمة. فالسمة العامة للعمارة العسكرية مشتركة بين جميع الحصون والقلاع التي شيدت خلال قرون عدة بأسوارها المرتفعة ذات الخنادق العميقة المحيطة بها، إضافة للسقاطات، وهي على شكل فتحات فوق البواب أو في الأبراج لرمي الأعداء ولسكب الزيوت المحرقة. وقد ظهر مع السقاطات المداخل المنكسرة التي تعيق حركة المهاجمين في تحطيم باب السور، وذلك لضيق المساحة وحصرهم بين المدخل والجدار المقابل له للتمكن منهم والسيطرة عليهم وضربهم بالسهام، لهذا برع المعمار العربي في تصميماته وبتحقيق عملية التناسق بين جميع العناصر المعمارية لقيامها بوظيفتها ضمن قالب إسلامي متناسق ودفاعي مدروس[٣].

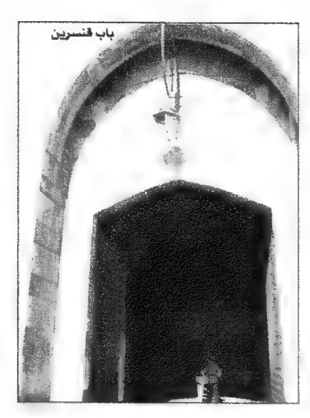
وقد تميزت المدن الإسلامية بشكل عام ومدينة حلب بشكل خاص، بإحاطتها بأسوار دفاعية منيعة مدعمة بعدد من الأبراج، وللمدينة الإسلامية عدد من الأبواب المحصنة، وهذه الأبواب متوزعة وفق ضرورات دفاعية[٤]. أما عن أشكال أبراج السور فمنها المستطيل ومنها المربع، وتتناسب كلها مع نقاط الضعف والقوة وطبيعة الأرض التي بني عليها السور، وكل برج

عبارة عن طابقين، السفلي للذخيرة والاستراحة، والعلوي للدفاع، وكل برج مجهز بمرامي السهام وكوى قذائف السوائل المحرقة[٥]. وقد اعتبر الباحثون، أن أحد عوامل وجود مدينة حلب، هو موقعها الدفاعي في شمال غربي الهلال الخصيب[٦].

٤ - تاريخ عمارة أسوار مدينة حلب وابراجها:

يعود تاريخ عمارة أسوار مدينة حلب إلى المرحلة الكلاسيكية ويقصد بالعصر الكلاسيكي (عهدي اليونان والرومان)، الممتد منذ القرن الخامس قبل الميلاد، -الحضارة الهلنستية- ثم الرومانية، فالبيزنطية، فإلى الجنوب الشرقي من مدينة حلب القديمة، الممثلة خصوصاً في "تل العقبة" كنقطة انطلاق وارتكاز. بنى السلوقيون مدينة جديدة، هي في الواقع مستعمرة مقدونية، دعوها "بيريه"، على اسم المدينة المقدونية التي جاء منها معظم سكان المستعمرة الجديدة. وقد وضعوا لها تصميماً هندسياً يختلف تماماً عن تصميم المدن السورية الآرامية القديمة، ويماثل تصميم المدن اليونانية. ومن أهم مميزات مدينة حلب وجود سور يحيط بالمدينة، ويمتد إلى الجهات الجغرافية الأربع بكل تدقيق، أي إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب. وتخترقه أبواب من جهاته الأربع. متمركزة في وسط كل جانب من جوانب السور[٧].

ويبدو أن الأسوار كانت تحيط بالمدينة على شكل مربع يشابه معظم أشكال الأسوار القديمة للعهدين الروماني والبيزنطي وأن القلعة كانت في طرف المدينة على الضلع الشرقي. بنيت الأسوار من الحجارة بارتفاع يتراوح من ١٠ إلى ١٥ مترا. كانت الأبواب الموجودة في العهد البيزنطي هي: باب قنسرين - باب أنطاكية - باب الفرج - باب اليهود - باب الأربعين - الباب الصغير - باب العراق. جددت الأسوار وأبراج الأبواب عدة مرات لأنها تعرضت إلى تخريب متكرر بسبب الغزوات المتعددة التي تعرضت لها


باب قنسرين

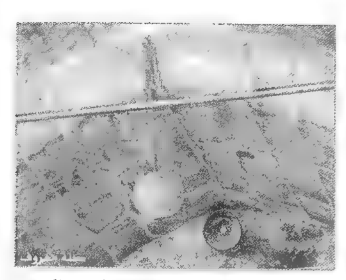
حلب. ويبدو أن توسيع الأسوار وترميمها وإصلاح الأبواب على نطاق واسع وإنشاء أبراج جديدة وحفر خنادق حول الأسوار قد تم في عهد السلطان الأيوبي الظاهر غازي بن صلاح الدين، فأصبحت القلعة في عهده ضمن المدينة. كما أنه أمر أن يكتب على كل برج أسماء الأمراء السابقين وغير أسماء بعض الأبواب فأصبح باب اليهود يعرف باسم باب النصر[٨]. وقد ظل السور محيطاً بالمدينة القديمة على شكل مربع طول ضلعه ١٥٠٠م، وقد شهد توسعة في عهد الملك الظاهر غازي من جهة الشرق والغرب بعدما جدده سيف الدولة ونور الدين[٩].

٥ - مراحل تطور عمارة أسوار مدينة حلب وأبراجها:

انطلاقاً من أهمية موقع مدينة حلب الجغرافي والإستراتيجي، أصبحت المدينة مركز اهتمام منذ القدم، وكما هو معروف فقد توالت على مدينة حلب العديد من الحضارات الفنية، وأصبحت تلك المدينة مقصد الكثير من الغزاة والمحتلين، الذين حاولوا اقتحام هذه المدينة، وتدميرها، والاستيلاء عليها، إذ تؤكد المراجع التاريخية بأن مدينة حلب قد شهدت

العديد من النكبات، فبنيت الأسوار والأبراج ضمن مراحل عدة، تعود إلى ما قبل الميلاد، لتمتد إلى ما بعد الفتح العربي الإسلامي لها في عهد السلطان نور الدين زنكي، وما تبعه من سلاطين، حيث وصل عدد الأبراج إلى مائة وثمانية وعشرين برجاً خضعت فيما بعد للهدم إثر الهجمات والمعارك التي مرت على مدينة حلب الشهباء.

كما فرضت ضرورات الدفاع بناء سور يحيط بالأحياء الحديثة موازٍ لشوارعها. واتفق ابن الخطيب وابن شداد فقالا: إن السور هو من بناء الروم، وكان مبنياً بالحجارة، وقد جددت الأسوار مرات ولكن ما هو عليه الآن من الأسوار يعود إلى العهود الإسلامية، كما يقول ابن الشحنة نقلاً عن ابن الخطيب في وصفه سورها القديم المنيع الذي كان يضرب به المثل في التحصين: "وكان يليه ثلاثة أسوار". يمكننا أن نتصور أن السور القديم في العهد السلوقي قد أجريت عليه في العهدين الروماني والبيزنطي ترميمات وتعديلات لتعزيز الأعمال الدفاعية عن الأحياء السكنية والمؤسسات الحكومية، ويبدو أنه حتى في فترة الاحتلال الفارسي القصيرة لحلب اهتم الفرس بتقوية السور أيضاً، وأغلب الغزاة كانوا بعد تهديمهم السور يعيدون ترميمه وتقويته. كما يذكر ابن الخطيب أن كسرى رمم ما تهدم من أسوارها بالآجر الكبار الفارسي فيما بين باب الجنان وباب النصر، بينما يرى سوفاجيه أن الأجزاء المرممة من السور والقلعة بالآجر الفارسي المشوي يجب أن ننسبها إلى الإمبراطور جوستنيان الكبير (٥٢٧ - ٥٦٥م)، وبعد هزيمة هرقل في معركة اليرموك (٦٣٦م) امتد الفتح الإسلامي إلى حلب، لتشهد المدينة بعض التحصينات في أنظمتها الدفاعية. لكن أسوارها قد شهدت الخراب عندما اقتحم نقفور فوكاس المدينة عام ٩٦٢م، وأقام فيها ثمانية أيام، وخرج منها سيف الدولة هارباً، ناقلاً مركز إمارته إلى ما بين النهرين، تاركاً حلب وباقي



ممتلكاته السورية لمصيرها الفاجع، ولكن وبعد رحيل نقفور وعودة سيف الدولة إلى حلب بعد سنتين اهتم بترميم الأسوار وبناء الأبرجة حول المدينة. وفي العهد الأيوبي يذكر ابن شداد أن صلاح الدين الأيوبي عندما دخل حلب شرع في بناء الأسوار والأبرجة. إلى أن اقتحم المغول مدينة حلب عام ١٢٦٠م/٦٥٨هـ. بعد حصار دام عدة أيام وقد تمكنوا من اقتحامها من جهة قلعة الشريف وساحة بزة، زرعوا في أحيائها الدمار والحرائق[١٠].

٦- مظاهر تدهور عمارة أسوار مدينة حلب وأبوابها:

أخفت الأبنية الحديثة وأعمال الهدم من مطلع القرن العشرين حتى الآن أجزاء السور من باب النصر حتى باب الفرج كما أن أعمال الهدم التي تمت بين ١٩٧٩ و١٩٨٠ في منطقة مشروع باب الفرج قد أدت إلى زوال ما تبقى من الأسوار في هذه المنطقة بما في ذلك الضلع الشمالي والغربي من الأسوار حتى باب الجنان الذي سمي كذلك لأنه كان يؤدي إلى حدائق حلب وهو قديم جداً لكنه الآن مهدم ولم يبق منه إلا برج واحد مملوكي، وهو يستعمل كمسجد صغير حالياً وعلى هذا البرج يوجد شعاران لقنصوه الغوري آخر السلاطين المماليك، بعد باب الجنان تستمر الأسوار باتجاه الجنوب نحو باب أنطاكية وهناك بقايا من الأسوار بين باب الجنان وباب أنطاكية إلا أن أعمال البناء العشوائية والهدم المتكررين قد شوها شكل هذه

الأسوار وأديا إلى إخفائها. أما باب أنطاكية فأحد أبراجه يستخدم حالياً كخان، وباتجاهنا جنوباً من باب أنطاكية لنصل إلى مكان باب السعادة الذي لم يبق له أثر، فالأسوار في هذه المنطقة قد أخفتها المباني الحديثة. تنحرف الأسوار باتجاه الشرق لتصل إلى باب قنسرين وهو باب لازال بحالة متماسكة، ثم تتجه الأسوار بعد باب قنسرين جنوباً لتمر بالأقسام من السور التي هدمت وأزيلت لتصل إلى قلعة الشريف وباب المقام[١١]، ولم يبق منه سوى قنطرته، ويماثل باب النيرب، المندثر في طراز بنائه[١٢].

بعد ذلك تتجه الأسوار نحو باب النيرب وباب الأحمر التي هدمت قديما ولم يعد لها وجود ثم يستمر اتجاه الأسوار شمالا ليلتقي الخط مع جامع الطنبغا الذي يمس الأسوار وهو جامع مملوكي، وأخيراً تصل الأبواب إلى باب الحديد. الجزء من الأسوار بين جامع الطنبغا وباب الحديد بحالة متشعثة ولم يبق منها إلا أقسام متداخلة مع مخازن وأبنية حديثة، أما مسار الأسوار بين باب الحديد وباب النصر فغير واضح لأنها مخفية بالمباني الحديثة التي بنيت بعد ردم الخندق بين باب الحديد وباب الفرج[١٣].

٧- عدد أبواب مدينة حلب وأسمائها:

تذكر لنا المصادر التاريخية العديد أن الأبواب التي شيدت في مختلف الأزمنة هي: باب العراق شمالي جامع الطواشي، باب الصغير جانب خندق القلعة، باب دار العدل وباب الفرج غربي القلعة، باب السعادة غربي المدينة، باب السلام شمالي غربي باب أنطاكية، باب الأربعين شمالي شرقي القلعة، باب العافية بالقرب من باب الفرج، ثم باب الصغير بالقرب من باب الأربعين وباب الأحمر، باب الثعابين، باب الجنين، باب العبارة، باب اليهود[١٤]. وفي مراجع أخرى فقد ورد فيها بأن لمدينة حلب تسعة أبواب بعضها ما زال قائماً وهي: باب قنسرين أو السجن، باب المقام أو دمشق، باب النيرب، باب الأحمر، باب الحديد أو بنقوسا، باب النصر، باب الفرج، باب الجنان أو العتمة، وباب أنطاكية.

باب الفرج: أنشأه الملك الظاهر غازي باسم باب الفراديس، ولقد هدم سنة ١٩٠٤، وكان المماليك قد رمموه تباعاً.

باب الحديد: وكان يسمى باب القناة وباب بنقوسا. أنشأه الملك الظاهر غازي ورمم عام ٩١٧هـ/١٥١٠م.

باب الأحمر: أنشأه المماليك ولقد اندثر.

باب أنطاكية: ويقع في السور الغربي للمدينة ويؤدي إلى أنطاكية، ولهذا سمي نسبة إلى أنطاكية، وهو قديم يتألف من برجين بارزين ويقوم الباب بينهما. وهو من الحجارة الضخمة. علما بأن هذا الباب هو الباب الرئيس للمدينة ومنه كان ينطلق إلى الشارع الكبير. وهو الباب الذي دخل منه المسلمون مدينة حلب سنة ١٥ من الهجرة النبوية أيام الخريف، سنة ١٥/ هـ-٦٣٣ ميلادية/، على يد خالد بن الوليد وأبي عبيدة رضي الله عنهما، وكان فتحها صلحا وفتح قلعتها عنوة[١٥].

باب الجنان: لم يبق منه إلا البرج الجنوبي


باب الحديد

ويعـود تجديـده إلى عـام ٩١٨هـ/١٥١٣م أيـام قانصوه الغوري.

بـاب المقـام: سمـي بالمقـام لأنـه يـؤدي إلى مقام الصـالحين جنوبي حلب. أنشـأه أولاً الملك الظـاهر غـازي وجـدد أيـام برسـباي، ثم أيـام قايتبـاي سـنة ٨٩٨هـ/١٤٩٣م. وهـو يتـألف مـن ثلاثة مداخل عرض الأوسط ٤ م وعرض البابين الأماميين ٣م.

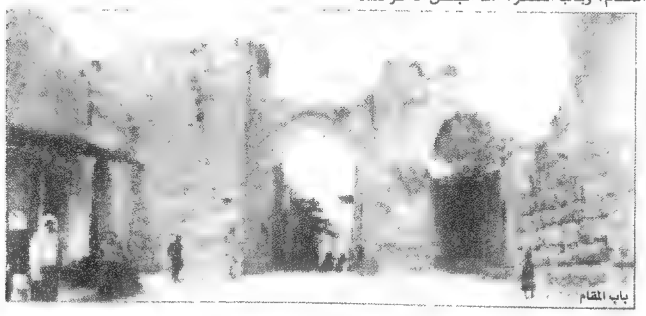
باب قنسرين: ويقع في الجنوب، وهـو يعود إلى الحمـدانيين وجـدده النـاصـر يوسـف الثـاني ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، ودعمـه بطاحونــة وأفــران ومعصــرة وصـهاريج وثكنــة عسـكرية، ثم قــام المماليك بترميمات لاحقة.

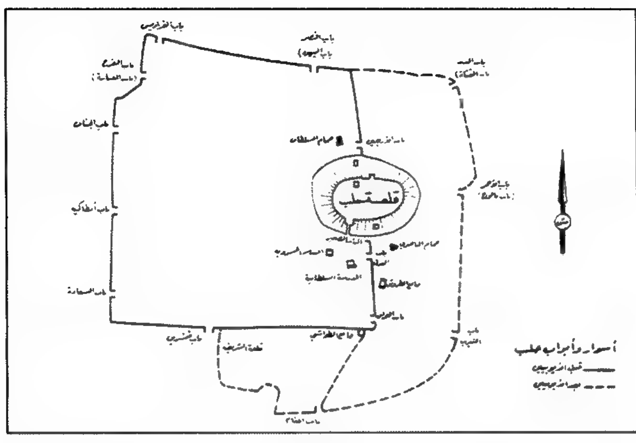
بـاب النصر: أنشـأه الملك الظـاهر غـازي ٦١٢هـ/١٢١٥م، وعليـه كتابـات تؤكـد تاريخـه ويضــم مقــامين واحــد لأبي العبــاس والثــاني للخضر[١٦]، وفي مراجع أخرى يرد بأن الظاهر الظاهر غازي قد جدده سنة ٦١٠ هـ، علماً أن الباب يقع في السور الشمالي، وله أبراج دفاعية جانبية[١٧].

٨- أبواب مدينة حلب في العهد الأيوبي:

من المؤكد بأن أبواب مدينة حلب لم تشيد جميعها في العهد الأيوبي، بل شيد البعض منها قبل العهد الأيوبي، ومنها ما شيد تماماً في ذلك العهـد مثل بـاب الفـرج، وبـاب الحديـد، وبـاب المقـام، وبـاب النصـر، أمـا البعض الآخـر فقـد شهد ترميم أو إضافات كما هـو الحال عليه في بـاب قنسـرين، الـذي يمثل قلعة دفاعية مصغرة فريـدة[١٨]. وتـاريخ هـذا البـاب طويـل في صـد غـزوات المعتدين علـى حلب، وهـو أربعـة أبـواب في بـاب واحـد، ولا يـزال يحـتفظ بتحصـيناته الأولى بعد ترميمها عدا البرج الذي كان يقوم في مواجهـة البـاب الخـارجي والـذي كـان يمنـع الأكبـاش، ولا يتيـح لهـا المجـال لتقـويض البـاب الـرئيس، فقـد هـدم منـذ زمـن[١٩]. أمـا بـاب أنطاكيـة فقـد هدمـه نقفـور فوكـاس وهـو قـائـد رومـاني في العهـد الحمـداني، ثم رمـم سـيف الدولـة هـذا البـاب وبعد ذلك أعـاد الملك النـاصر يوسـف الثـاني حفيـد الملـك الظـاهر غـازي بنـاء البـاب وبرجيه[٢٠]. وبسبب انشغال الدولة الأيوبية بـالحروب الدائمـة مـع الصليبيين، وبسـبب ظـروف الحـرب، جـاءت العمـارة الأيوبيـة بسـيطة متقشـفة بعيدة عن الزخرف، لكنها تتميز بالمتانة والقوة، كما استخدم الحجر بمقاسات كبيرة، وفـاق حجـم الأبراج والأسوار أي نوع معروف سابقاً[٢١].

وممـا لاشك فيـه بـأن أبـواب مدينـة حلـب، جـزء أساسـي ومـتمم لعمـارة الأسـوار، إذ تتميـز بضـخامتها ومتانتـها أيضــاً، لتحقـق السـمة الدفاعيــة في عمــارة الســوار، وتتشـكل درفـتي البـاب مـن الخشـب الصـلب، وبسـماكة كـبيرة، وتصفح بطبقة رصاصية سميكة ومثبته بمسامير حديديـة متينـة، ممـا يكسـب درفـات الأبـواب


باب المقام



المزيد من المتانة والصلابة، وليتعذر فتحها أو كسرها من قبل الغزاة، وتغلق من الداخل بطريقة وضع دعامات خشبية وبشكل عرضي، تجعل من المحال اقتحام الباب أو كسره من الخارج.

٩ - السقاطات نشأتها وتطورها:

تتألف القلاع، ككل المباني، من عناصر رئيسية وتفاصيل مكملة لتكوين وحدة متكاملة. وتأتي الأسوار في الدرجة الأولى من حيث الأهمية بسبب جدرانها الضخمة والمصمتة وبواباتها المحصنة وأبراجها ومزاغلها وأخيراً سقاطاتها، والسقاطة من الناحية الوظيفية هي فتحة دفاعية تمكّن المدافع من إلقاء مواد كاوية كالزيت أو الزفت أو الماء المغلي من خلال فتحاتها على المهاجمين أثناء تواجدهم تحت الأسوار مباشرة بالإضافة إلى تسديد السهام من المزاغل بالاحتماء خلف جدارها الأمامي، ويمكن تعريفها معمارياً على النحو التالي: السقاطات هي أكشاك صغيرة تبرز عن السطح الخارجي للجدران أو الأسوار وتتوضع في الطوابق العلوية للبناء وتحتوي على عدد من الفتحات على الجهة السفلية منها تسمى الكوى (مفردها كوة) وهي الحيز المتشكل بين الطنف (مفردها الطُنف) التي تحمل الجدار الأمامي لحجرة السقاطة. ولكل سقاطة مزغل على جدارها الأمامي لرمي السهام. والمزغل هو الفتحة الشاقولية الضيقة. وأخيراً يُغطى القسم العلوي من السقاطة بقطع حجرية مائلة نحو الجهة الخارجية للحماية وتصريف مياه الأمطار والثلوج. هذا من الناحية الخارجية للسقاطات، أما من الداخل تبدو السقاطات كحجرات صغيرة ترتفع عن منسوب الصالة أو الممر بعلو درجة أو أكثر. ونجد بداخلها مصطبة التي هي في الحقيقة امتداد لجدار المبنى الأساسي، وتساهم هذه المصطبة في حماية المدافع من خطر الانزلاق نحو الكوة، والارتكاز عليها لتسديد السهام أو إسناد القدور التي تحتوي على السوائل[٢٢].

١٠ - الوضع الراهن لأسوار مدينة حلب:

انطلاقاً من أهمية الحفاظ على النسيج العمراني لمدينة حلب وأسوارها، قام مجلس مدينة حلب بتفعيل الإجراءات التنفيذية لمشروع كشف السور الغربي بعد أن تم في عام ١٩٩٨م استملاك كافة العقارات أمام السور والبالغ عددها ١١٢ عقاراً تحوي خانات ومحلات تجارية، كما تم إجراء مسح اجتماعي للشاغلين حيث بلغ عدد المحلات ٢٤٧ محلا إضافة إلى المستودعات والبيوت السكنية. ومن أهم الإجراءات التي سيقوم بها مجلس مدينة حلب قريباً، هي نقل سوق الهال من المنطقة، وكذلك كراجات الباص، بهدف خلق فرصة ثمينة لإعادة تنظيم المنطقة كاملة وليس مجرد العمل على كشف السور. ولمعرفة الحالة الإنشائية والأثرية لسور المدينة الغربي بعد الانتهاء من أعمال كشف السور سيتم توصيف الحالة واتخاذ اللازم. كما يتم أيضاً ترميم باقي أبواب مدينة حلب مثل باب قنسرين، وهناك أعمال تنظيف لواجهة باب الحديد.

علماً أن تجربة مدينة حلب في كشف السور الغربي، تذكرنا بالتجربة الناجحة التي قامت بها مؤسسة الأغاخان بالتعاون مع المجلس الأعلى المصري للآثار في عملية كشف أجزاء من السور الذي شيده صلاح الدين الأيوبي حول القاهرة، فقد بلغ طول الأجزاء المكتشفة ٢٧٠ متراً وارتفاعها ٥ أمتار وعرضها ٣.٥ متر، مع تنفيذ مشروع حديقة الأزهر أمام السور.

١١ - النتائج:

وفي نهاية هذا البحث المختصر، الذي حاولنا من خلاله وباختصار تسليط الضوء على أحد أهم عناصر مدينة حلب القديمة، ألا وهي عمارة الأسوار، في العهد الأيوبي، الذي كان أحد أهم العهود والفترات التي شهدتها المدينة، نصل إلى نتيجة مهمة، بأن مدينة حلب قد تميزت بموقع إستراتيجي فريد، جعلها مدينة مستهدفة وبشكل دائم، لتسعى كثير من الدول والإمبراطوريات والسلطنات عبر التاريخ إلى السيطرة عليها، فشهدت العديد من الغزوات والهجمات، مما دفع حكامها إلى تحصين تلك المدينة، من خلال بناء الأسوار والأبراج، لتحمل عناصر ومفردات مهمة في العمارة العسكرية. ولاحظنا بأن أبراج وأبواب مدينة حلب قد خضعت لكثير من أعمال الهدم وإعادة البناء، ضمن مراحل زمنية متتالية، لما شهدته من غزوات دائمة.

ومن خلال دراستنا للعهد الأيوبي، وجدنا بأن تلك الفترة قد ارتبطت بكثير من الحروب والمعارك، مما أدى إلى تطوير فن العمارة العسكرية بمدينة حلب، من خلال أسوارها المنيعة، فمنذ بداية القرن الثاني عشر ابتدأت الحملات الصليبية على بلاد الشام، وقد تصدى لها الأهالي ببسالة بقيادة نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والملك الظاهر بيبرس المملوكي، وغيرهم من القادة العظام، للدفاع عن البلاد وتحريرها من الصليبين والمغول. لتظل تلك المدينة محافظة على حيويتها ونبضها إلى يومنا هذا، رغم ما شهدته من غزوات ونكبات بفضل موقعها الدفاعي، وبفضل محبة وإخلاص أهالي هذه المدينة المحروسة. في حمايتها. على الرغم من أن البعض من أجزاء وأبواب مدينة حلب، قد تهدمت تماماً، وتلاشت في بعض المناطق، واندثر الكثير من الأبواب. ولعلنا نكون أشد حرصا على ما تبقى لنا من أبواب وأبراج في سور مدينة حلب، لنحافظ عليها.

١٢ - التوصيات:

١- إجراء أعمال كشف وتنقيب لما تبقى من سور مدينة حلب، بالعودة إلى مخططات مدينة حلب القديمة، انطلاقاً من الأهمية التاريخية والعمرانية لمدينة حلب.

٢- القيام بأعمال ترميم ما تبقى من أسوار، واستكمال ما تهدم من مفردات وعناصر مثل السقاطات، والنوافذ.

٣- تحرير مساحات واسعة أمام أسوار مدينة حلب، مع تحويل المناطق المحيطة بالأسوار والأبواب، إلى مناطق جذب سياحي، وترفيهي من خلال توفير أماكن للجلوس، مع توفير المسطحات الخضراء والمائية.

٤- إنارة أسوار مدينة حلب بشكل يضفي عليها الجمال والبهاء.

٥- وضع لوحات تعريفية وبأماكن مناسبة، عند مداخل أبواب مدينة حلب القديمة، وباللغتين العربية والإنجليزية.

٦- إجراء صيانة دائمة لأسوار وأبراج المدينة، إضافة إلى أبوابها.

٧- وقف التشويهات عن بعض الأبواب وخاصة باب النصر، ليعود كما كان عليه في السابق، إضافة إلى البعض من التشويهات البصرية، والملصقات على أسوار المدينة.

٨- وضع أكشاك سياحية عند مداخل أبواب حلب القديمة لتوزيع نشرات ومطويات تعريفية بعمارة مدينة حلب، وبعمارة أسوارها الدفاعية، وبما شهدته من فتوحات وغزوات، وبعدد من اللغات، لتكون بوابات مدينة حلب، بداية لمسارات سياحية. وبدعم من مديرية الآثار والمتاحف ووزارة السياحة.

٩- الاستفادة من المنظمات والمؤسسات الدولية في خبراتها ودعمها للكشف عن سور مدينة حلب وأبراجه، إضافة إلى أعمال الترميم بهدف الحفاظ على الطابع العمراني لمدينة حلب القديمة.

١٠- إزالة الأشغال والمباني الصغيرة الواقعة على سور مدينة حلب، أو المتاخمة له، في محاولة لإظهار سور المدينة كما كان الحال عليه في السابق.

الحواشي:

(١) الرفاعي محمود فيصل، ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م - حلب بين التاريخ والهندسة. الطبعة الأولى، مطبعة جامعة حلب، جامعة حلب معهد التراث العلمي العربي، ص ٩-١٠.

(٢) قجة محمد، ٢٠٠٣م - حلب بين القوى المحلية والدولية في المراحل السلجوقية الزنكية الأيوبية مجلة عاديات حلب، الكتاب العاشر، ص ١٧١ - ١٧٢.

(٣) زين العابدين محمود، ٢٠٠٦م - فضاءات من العمارة الإسلامية، الطبعة الأولى، حلب ص ١١٨.

(٤) لخضر عبدالمعطي، ١٤١٠ هـ/١٩٩٠م - تاريخ العمارة، العمارة في العصور الوسطى، العمارة الإسلامية والأوربية، منشورات جامعة حلب، ص ١٩٥.

(٥) المرجع السابق ص ١٠٧

(٦) حريتاني محمود، كلودافيد جان، ٢٠٠٥م -المدينة القديمة في حلب التدهور ومحاولات الإحياء. الطبعة الأولى، دار شعاع، سورية، ص ٩٧.

(٧) دلبي المطران ناوفيطوس، ١٩٧٧ م -كاتدرائية حلب البيزنطية. عاديات حلب، جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، الكتاب الثالث، ص ٩٢-٩٣-٩٤.

(٨) الرفاعي محمود فيصل، ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م - حلب بين التاريخ والهندسة. الطبعة الأولى، مطبعة جامعة حلب، جامعة حلب معهد التراث العلمي العربي، ص ٣٢ - ٣٣.

(٩) حميدة عبدالرحمن، ٢٠٠٦م - محافظة حلب. الطبعة الثانية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، سورية، ص ٧٢.

(١٠) رواس قلعة جي عبدالفتاح، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م - حلب القديمة والحديثة أسمارها وحكامها وأحداثها أبوابها وأسواقها وأحياؤها. الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، حلب، سورية، ص٣٥-٣٦-٣٧٣٩-٤٦-٤٧

(١١) الرفاعي محمود فيصل، ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م - حلب بين التاريخ والهندسة. الطبعة الأولى، مطبعة جامعة حلب، جامعة حلب معهد التراث العلمي العربي، ص ٣٥.

(١٢) حميدة عبدالرحمن، ٢٠٠٦م - محافظة حلب. الطبعة الثانية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، سورية، ص ٧٣.

(١٣) الرفاعي محمود فيصل، ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م - حلب بين التاريخ والهندسة. الطبعة الأولى، مطبعة جامعة حلب، جامعة حلب معهد التراث العلمي العربي، ص ٣٥ - ٣٦.

(١٤) الخضر عبدالمعطي، ١٤١٠ هـ/١٩٩٠م - تاريخ العمارة، العمارة في العصور الوسطى، العمارة الإسلامية والأوربية، منشورات جامعة حلب، ص ١٠٨.

(١٥) الغزي كامل، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م - نهر الذهب في تاريخ حلب. دار القلم العربي، حلب، سورية، ص ١٤

(١٦) بهنسي عفيف، ٢٠٠١- التاريخ والحضارة المنطقة الشمالية محافظتا حلب وإدلب. وزارة السياحة، دمشق، سورية، ص ٧٠-٧١-٧٢.

(١٧) حميدة عبدالرحمن، ٢٠٠٦م - محافظة حلب. الطبعة الثانية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، سورية، ص ٧٣.

(١٨) المرجع السابق، ص ٧٣.

(١٩) حريتاني محمود، كلودافيد جان، ٢٠٠٥م - المدينة القديمة في حلب التدهور ومحاولات الإحياء. الطبعة الأولى، دار شعاع، سورية، ص ٩٦.

(٢٠) الرفاعي محمود فيصل، ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م - حلب بين التاريخ والهندسة. الطبعة الأولى، مطبعة جامعة حلب، جامعة حلب معهد التراث العلمي العربي، ص ٣٥.

(٢١) عمران هزار، دبورة جورج، ١٩٩٧م - المباني الأثرية ترميمها صيانتها والحفاظ عليها. الطبعة الأولى، وزارة الثقافة، المديرية العامة لآثار والمتاحف، دمشق، سورية، ص٣١.

(٢٢) بارسوميان هوري، ٢٠٠٢م - السقاطات نشأتها وتطورها عبر العصور. عاديات حلب، الكتاب العاشر، حولية تبحث في تراث العرب العلمي والحضاري تصدر عن جامعة حلب بالتعاون مع جمعية العاديات، حلب، سورية، ص ١٤١-١٤٢-١٤٣

البناء والهندسة المعمارية في الأندلس

بين النظر والعمل

أحمد الطاهري*

من المفيد الانتباه إلى ارتباط البناء والعمران طوال قرون عز العطاء الحضاري بالأندلس "بعلم العدد والهندسة" المتفرع عن الحكمة والفلسفة المندرج ضمن العلوم العقلية. ونظراً للسمة البرهانية والطابع التطبيقي لعلمي العدد والهندسة ووثوق ارتباطهما بالبناء والعمران، واعتبارا "للأصول الموضوعة التي يقدمها المهندسون" فقد اندرج حكماء العصر الأندلسيون على تصنيفهما ضمن "العلوم الخاصة" تمييزا لهما عن العلوم النظرية العامة. وغني عن البيان آن من موضوعات "صناعة الهندسة الخط والسطح والمجسم" مما يباشره المهندسون عند تجردهم لإعداد تصورات وتصاميم الأبنية والمنشآت. لذلك فقد ظل "أهل الهندسة" يشغلون مكانة خاصة سيما لدى ملوك الطوائف رغم ما شاب عصرهم من اختلالات بنيوية. وفي هذا السياق لم يتمالك صاحب غرناطة عن التصريح بأن "الفساد أسرع إلى البنيان" مما يتطلب الاستعانة بحكماء المهندسين وعرفاء البنائين لضمان أقصى مستويات المتانة لمنشآتهم.

وبصرف النظر عمن كان "متقدما في علم الهندسة" خلال عصر الخلافة، لا تعوزنا التفاصيل عن مشاهير حكماء عصر الطوائف من "الراسخين في علم العدد والهندسة" الذين كان لهم شأن بحاضرتي سرقسطة وطليطلة، وعمن "قعد بقرطبة لتعليم ذلك"، إلى ما يند عن الحصر ممن "كان متحققا بعلم العدد والهندسة". وتزخر كتب الطبقات بالمعلومات الكاشفة عمن ذاع صيته في مدن غرناطة ودانية والمرية بكونه "بصيرا بالهندسة". ومن مشاهير المهندسين بإشبيلية العبادية نذكر عمر بن أحمد بن خلدون الحضرمي الذي كان "من أهل المعرفة بالهندسة". كما تشير المصادر المعتمدة إلى "أبي مسلم ابن خلدون من أشراف إشبيلية وكان متصرفا في علوم الفلسفة والهندسة".

---

* أستاذ التعليم العالي ورئيس مؤسسة الإدريسي المغربية الإسبانية للبحث التاريخي والأثري والمعماري

** تم اختصار هوامش الدراسة لكثرتها، ويمكن للمهتمين الاطلاع عليها في مقر الجمعية.

ولا يخفى دور المهندسين الأندلسيين في اختراع وتدبير أصناف من الآلات والأنظمة المعروفة "بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء". وقد أفلحوا منذ عصر الخلافة في صنع حاملات الأثقال الضخمة على "عجلة كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط على فلك موثقة بالحديد المثقف محفوفة بوثاق الحبال قد قرن بجرها سبعون دابة من أشد الدواب". كما شاع استعمال "الأفلاط والعجل" في رفع المباني ودعم الأسس طوال عصر الطوائف. وسواء بإشبيلية - حسبما اتضح ضمن المبحث السالف- أو بطليطلة وغيرها من القواعد الطائفية تعددت وسائل وحيل جلب المياه وإجرائها وخزنها وتدفقها وتسريب القنوات بأصناف من "التدبير أحكمه المهندسون".

والجدير بالملاحظة أن الأمر يتعلق في هذا المستوى بحكماء المهندسين ممن يضمن حصول التناسق في البناء والمنشآت بين النظر والعمل وفق أحكام الطبيعة ونواميس الحياة التي تدخل ضمن مدارك العصر حتى "تنتهي إلى صناعة الصناعات وعلم العلوم" أي الحكمة والفلسفة. أما المستوى التطبيقي في الهندسة الكفيل بترجمة التصورات النظرية إلى مشاريع معمارية فقد كان موكولا للصنف المعروف في مصادر العصر باسم "عرفاء المهندسين". وقد أمكننا الوقوف على أسماء جملة من هولاء "المهندسين" الذين أشرفوا خلال عصر الخلافة على إنجاز مشاريع معمارية محددة. نذكر منهم "محمد بن وليد بن فشتيق رئيس المهندسين" بحاضرة قرطبة و"مسلمة بن عبد الله العريف المهندس"، مما يفصح عن انتظام عرفاء المهندسين بالأندلس وفق تراتب وظيفي ضمن هيئة مهنية يشرف عليها رئيس المهندسين.

ومن المعلوم أن البناء والبنائين وما يرتبط بالهندسة المعمارية بالمغرب والأندلس قد ظلت من القضايا المهملة التي لم تنل كل ما تستحقه من اهتمام جمهرة المؤرخين، سواء على مستوى التوثيق المصدري أو من خلال التنقيب الأثري. وما زالت المسائل المرتبطة بالهياكل العقارية بالوسط الحضري وأصناف البنائين فضلا عن الأحكام والتشريعات العمرانية من الأمور الملغزة. أما مواد البناء وأدواته وتقنياته وهندسته التي تزخر عشرات المصادر المغربية الأندلسية بالإشارات الكاشفة عن أدق تفاصيلها فما زال القسم الأوفر منها متناثرا في المتون ينتظر من يتعهدها بعناية الجمع والتصنيف والتحليل. وإذا كان المحدثون قد ضربوا صفحا عن التأريخ لهذه المستويات المرتبطة بدور العوام من البنائين والأجراء والعمالين، فلا نعدم بين قدامى الأندلسيين من نبه على قيمة ما يكتسبه العوام من الخبرات والمعارف، بما في ذلك "علم البناء وغير ذلك" مما يندرج ضمن علوم العوام. ولم يكن قدامى أهل القلم عموما أقل إبرازا لسمو حرفة البناء باعتبارها إلى جانب الحراثة والحياكة "بالقصد الأول". بينما اعتبرت بقية الصنائع "تابعة لها وخادمة متممة لها ومكملة". ولم يتردد أحدهم عن الإقرار أن "صناعة البناء أول صنائع العمران الحضري وأقدمها".

وفيما يتعلق بالملكية العقارية، كشف الخصيبي المنجم عن تعاظم قيمتها

الاجتماعية بالوسط الحضري بذكره أن "من اتخذ البناء والعمارات ينال بذلك شرفا وكرامة وخيرا". ولا غرو، فقد مال حكماء أهل الأندلس إلى إدراج البناء ضمن الأعمال الضرورية للاجتماع الإنساني باعتبارها من الأمور التي يتوجب فيها التعاون بين الأصناف الحرفية من بنائين وأجراء وصناع "كالمجتمعين لإقامة منزل، فإنه لا بد من بناء وأجراء ينقلون الحجر وينقلون الطين ومن صناع القرميد وقطاعي الخشب وصناعي الأبواب والمسامير حتى يتم البناء". وبصرف النظر عن الفصل الذي ضمنه ابن خلدون مقدمته "في صناعة البناء"، لم يغفل أحد الأندلسيين إفراد "فصل في المباني" ضمن بعض مؤلفاته الموضوعة في الحسبة. ناهيك عما تواتر ذكره في كتب الوثائق والسجلات من تفاصيل عن "النقض والبنيان" أو "إحداث بنيان" أو "إرفاق بجدار" أو "إحداث ميزاب" أو "بنيان طبقة على طبقة" أو ما عدا ذلك مما يدخل في البنيان من عناصر معمارية. وتزخر كتب الأحكام والفتاوى والنوازل الفقهية بفيض من التفاصيل المرتبطة بقضايا "النقض والبنيان" و"تعليق البنيان من حيطان" وغير ذلك من المواضيع الوثيقة الصلة بالعمران الحضري.

وإلى جانب ما تتضمنه المصنفات العامة الموضوعة في الفكر والتاريخ والأحكام من إشارات ذات قيمة لبعض قضايا البنيان، فمن المفيد الانتباه إلى أهمية صنف خاص من الكتب التي أفردها القدامى للعمارة والبنيان. ويتعلق الأمر بما اصطلح على تسميته ضمن المكتبة العربية الأصيلة باسم كتب الحيطان أو الجدار أو البنيان. وقد أمكننا الوقوف على إشارة فريدة لأحد أقدم المصنفات الموضوعة في هذا الباب ويتعلق الأمر بـ "كتاب القضاء في البنيان". مع ذلك فقليلة هي المؤلفات في هذا الباب التي تمكنت من مقاومة عوادي الزمن لتصل إلينا سالمة، نذكر منها كتاب الحيطان الذي وضعه ابن مازة البخاري المعروف بالصدر الشهيد خلال القرن السادس الهجري.

وبالأندلس ذاع صيت مصنف الإمام التطيلي الذي وضعه خلال القرن الرابع الهجري بعنوان القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر. وهو الكتاب الذي استرعى انتباه الدارسين منذ فترة مبكرة، وحظي بعناية النشر في طبعة محققة. إلا أن أبرز ما وضع ببلاد المغرب من مصنفات في هذا الباب كان بيد أحد مشاهير المحترفين لصناعة البناء المعلم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي المشهور بابن الرامي التونسي البناء وهو الموسوم بكتاب الإعلان بأحكام البنيان. ولعل فيما وقفنا عليه من إشارات في مختلف أصناف التآليف المغربية الأندلسية بخصوص النظام العقاري والعلاقات المنتظمة حول البناء والعمران الحضري بإشبيلية العبادية، ما يؤشر على المستويات الابتدائية التي يقف عندها البحث التاريخي المعاصر بخصوص عمران إشبيلية. يتضح ذلك من خلال ركون الدارسين إلى القول بأن جل ما لدينا من معلومات بهذا الشأن يهم الأندلس عامة وأن ما يتعلق بإشبيلية فنادر ومحبط للآمال.

والجدير بالذكر أن العمارة والبنيان قد اندرجت منذ قيام نظام

الخلافة بالأندلس ضمن خطة قائمة الذات. وليس مصادفة أن تعهد بادئ ذي بدء لأحد المنحدرين من بلاد نكور التي يرجع إليها الفضل في توفير شروط انتقال تجربتها المبكرة على مستوى نظم الحكم إلى الأندلس، حسبما بينا ذلك في دراسات سابقة. ويتعلق الأمر في هذا الصدد بـ "عبيد الله بن عبد الله الزجالي وكان على المواريث والبنيان". وسرعان ما تهيكلت خطة البنيان بأندلس الخلافة بعدما انفصلت عن خطة المواريث فأصبح القائم عليها يعرف باسم "صاحب الأبنية" الذي ترجع إليه كافة مسؤوليات العمران الحضري والإنشاء المعماري.

أما ما يرتبط بأحكام البنيان ونفي الضرر وغير ذلك مما له صلة بالحياة المجتمعية وبالمعاملات العقارية ومعايير البناء المعتمدة والمنازعات فترجع جملة لـ "صاحب الأحكام". ولا تعوزنا في هذا الشأن الأخبار عن "ركوب القاضي مع الفقهاء إلى معاينة حائط فيه تنازع". ومن الخطط المتفرعة عن قضاء الجماعة ذات الصلة بالبنيان يعود لصاحب "الحسبة الحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة". وعموما، يستعين القاضي والمحتسب في إمضاء أحكامهما المرتبطة بالمباني بخبرة "الشهود العارفين بأمور البنيان وعيوب الديار وعقود الجدارات". كما يستعينان عند مباشرة القضايا بـ "شهادة عرفاء البنيان". ولا تقل مهمة "القسام الذين يعرفون قيمة الدور" أهمية في مساعدتهما على صياغة قراراتهما. وتحتفظ كتب التراجم بأسماء جملة من القسام بما يفصح عن مكانة هذا الصنف من الخبراء في نفاذ أحكام البنيان بحواضر الأندلس.

ما كان للعمران الحضري أن يبلغ المستويات الرفيعة التي تحققت بقرطبة الأموية وبإشبيلية العبادية لولا تناسق النظم المعتمدة في ضبط مجالات تدخل كافة الفاعلين من حكماء ومهندسين وعرفاء باعتبارهم سلطة معرفية. بينما تتدرج اختصاصات صاحب الأبنية وما يرتبط به من أعوان ضمن مسؤوليات التدبير السياسي والإداري والمالي. أما القضاة والمحتسبون والهيئات القضائية المتفرعة فتظل ممسكة بقضايا التشريع والأحكام. وتظل كافة الأمور المرتبطة بتجسيم المشاريع وتطبيق التصاميم ونقلها بواسطة البناء والعمارة من المستوى النظري إلى حيز الواقع، موكولة لمعاناة البنائين المنتظمين فيما يند عن الحصر من الأصناف الحرفية.

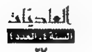
وعندما يتعلق الأمر بمشاريع معمارية كبرى، كثيرا ما يعهد تنفيذها لمتصرف يشرف على كافة الأعمال. ويتعلق الأمر بالشخص الراتب المعروف في المصادر القديمة باسم "متولي البنيان" الذي غالبا ما يكون من أصحاب النفوذ المتمرسين في أمور التدبير. بينما يتكلف بتنفيذ الأعمال "عرفاء البنائين" المعروفين أيضا بـ"الأمناء" وكذا بشيوخ البنائين. وقد أشار ابن عبدون إلى أهمية "عرفاء البنائين" بإشبيلية كما ذكر غيره "العرفاء البنائين من أهل إشبيلية". وبالمثل، ففي سياق حديثه عن تناهي صاحب طليطلة في تشييد مبانية أشار ابن بسام لـ "عريف بنيانه". هكذا تتضح من خلال هذه القرائن حساسية الموقع الذي يحتله هذا الصنف المندرج

ضمن "القوام بالعمل" في مجمل عمليات البناء. ويشرف العرفاء على قاعدة عريضة من "البنائين" منتظمين في أصناف ممتهنة لأشغال محددة. ويتعلق الأمر بمن دأبت المصادر العربية على نعتهم بـ"الفعلة لأصناف البناء". ولعل فيما ورد ذكره ضمن مصنفات عصر الطوائف بأن "الفعلة يبنون" ما يدل على التطابق في المعنى بين مصطلحي البنائين والفعلة لدى قدامى أهل القلم. وثمة عبارة مماثلة كثيرا ما تم استعمالها في المصادر الأندلسية والعربية عموما للدلالة على هذا الصنف المعروف من "الخدام والفعلة". وفي إقرار أهل القلم "أن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم" ما يدل على أهمية هذه الفئة من البنائين باعتبارها القوة العاملة الفعلية التي يقوم على كاهلها مجمل العمران الحضري.

إلا أن ثمة تمايز ضمن هذه الفئة بين عموم البنائين المصنفين ضمن الخدام والفعلة في البناء، وبين من تمكن بفضل مداومة العمل وطول التجربة من اكتساب المهارة والارتقاء ضمن صنفه إلى مستوى "حذاق البناة". ويتعلق الأمر بالفئة التي دأب قدامى أهل القلم الأندلسيين على وسمهم أيضا بـ "حذاق الفعلة" وكذا بـ"مهرة الفعلة". وثمة تمايز في مستوى آخر لا يقل أهمية بين فئتي "الصناع والفعلة" أو بعبارة أدق بين "الصناع والبنائين" حسبما وردت صياغته في أحد المصادر الإشبيلية. ومن المعلوم أن الجمهور العريض من البنائين والفعلة يشتغلون في أعمال البناء والنقض العادية كإنشاء الدور والحوانيت وإقامة الأفران والحمامات وتشييد القصور والمنى ورفع الحيطان والقلاع وإعلاء الحصون والأسوار وحفر الكوى والمطامر والسروب وإقامة الصهاريج بالإضافة لتعهد كافة المنشآت بالإضافات والإصلاح. بينما يتكلف الصناع بإنجاز جملة من الأعمال المختصة، نذكر منهم "صناع القرمد وقطاعي الخشب وصناعي الأبواب والمسامير". ومن الصناع المرتبطين بقطاع البناء نذكر أيضا "الرخامون و"الجباسون" والصناع المختصون في "التصوير والنقش". ناهيك عن الصناع المجيدين لعمل "الفسيفساء" و"الجيارين المحسنين لعمل الجير"، إلى ما يند عن الحصر من أصناف "الصناع المهرة في كل فن من الأعمال".

وكما هو الشأن ضمن طبقة البنائين، يمكن التمييز داخل كل صنف من الصنائع المرتبطة بالبناء بين عامة الصناع وحذاقهم بصفتهم متحكمون في المهارات وبين سائر "من يخدمهم ويتصرف لهم" من متعلمي الصناعة. وهو ما يتضح من خلال المصادر الأندلسية التي تناولت بالذكر "حذاق النجارين" الذين غالبا ما يكون المرء منهم "رجلا مثيلا في صناعة النجارة". وقد كشف ابن حيان عن بعض أصناف الصناع المشاركين في إنجاز الأشغال ضمن أوراش البناء مثل النجارين والحفارين والجيارين والأشارين المختصين في أشر الخشب والحدادين ممن "تخيروا من حذاق طبقاتهم". ناهيك عما تحتاج إليه الأبنية من "سائر الصنائع" التي تتعدد وتتفرع تبعا لاستبحار العمران. وهو ما لخصه ابن خلدون في عبارة جامعة بالقول: "فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال وكثر الصناع".

ونتيجة لاندفاع العمران الحضري



بإشبيلية العبادية، اتسعت قاعدة الصنائع المرتبطة بالبناء. وبصرف النظر عن المصانع التي "تصنع القراميد والآجر" احتضنت حاضرة العباديين "موضع الجباسين الذين يصنعون الجبس والجيارين الصانعين للجير". وهو المكان المخصص كما هو الشأن في بقية مدن وحواضر الأندلس لصناعة و"طبخ الجير والجبص". وتتنوع أصناف المواد المخصصة للبناء تبعا للحاجيات نذكر من ضمنها ما كان موجها للأبنية بإشبيلية مثل "أنواع من شكل الآجر الذي يعرف بضرس وقفا لطي الآبار، وآجر آخر للمسطوح وآخر من هواء الأفران وقراميد عاصمية للمنقالات ".

ينطبق نفس الشيء على صناع القواديس التي تعددت أشكالها، منها "قواديس بيضاء للسواري من طفل كبار ثلاثية أو أوساطا ثمنية صغارا فارسية مطبوخة جيدا". كما تعددت أصناف الصناعات التكميلية للأشغال مثل صناعات النجارين والزجاجين والصباغين وصناع القرمد وغيرهم. كما تشير المصادر المعتمدة لصناع الأبواب والمسامير الذين كانت لهم أسواق نافقة بإشبيلية العبادية. ناهيك عن كثرة ما ارتبط بالبناء من خدمات يمارسها جمهور عريض من "الخدام". نخص منهم بالذكر "حمالي الخشب والأحجار" التي تدخل في البناء وكذلك حمالي "الآجر والقراميد والطوب" إضافة لغيرهم من "الأجراء ينقلون الحجر وينقلون الطين". وبصرف النظر عن حمالي الظهر، عادة ما يتم النقل على ظهور الدواب "من ذوات الأكرياء المعرضة للخدمة" من وبغال وحمير وزوامل.

ولا تعوز القرائن الكاشفة عن دور المحتسب في مراقبة جودة مواد البناء وضبط المعايير المتعارفة في صناعتها. فمن المعلوم انه "يجب أن يجيد طبخ الآجر والقراميد، ولا يستعمل الطوب حتى يبيض" بالنار. وبالمثل "ينهى الجباسون عن خلط التراب بالجبس عند الطبخ وهو الذي يسمونه القطائف وهو غش، ويؤمرون أن يغربلوا الجبس بالغربال الوسط". كما دأب المحتسب بإشبيلية وغيرها على إصدار أوامره بأن "لا يباع الجبس إلا بالكيل وكذلك الرماد والجير". وبالمثل، كان يحد للحمالين "أن تكون أجنحة محامل القراميد والآجر قصارا". ولم يكن يسمح للحمالين إلا بوزن محدد حسب الدواب المستخدمة في النقل، "لا يتركون أن يثقلوا على الدواب". وفي نقل القواديس يفترض ضبط "كل حمل منها كذا وكذا قادوسا، كيل كل قادوس منها كذا وكذا بكيل كذا موفية إياها في حانوت" صنعته.

حقيقة أن ثمة إشارات إلى صنف من "البنائين الراتبين بالإصلاح" الذين يتقاضون أرزاقهم مساناة أو مشاهرة من الأحباس أو السلطان أو غيره. مقابل التعهد بصيانة البناء الموكول إليهم "يبحثون عن إصلاح ما فيه أبدا". إلا أن القسم الأوفر من المعاملات المرتبطة بـ "عمل الأبنية" كانت تتم في ظل نظام التثمير التعاقدي، ضمن عقود المقاطعة والمجاعلة والمؤاجرة. وغالبا ما يتم الاتفاق بين المتعاقدين للشروع في العمل "بثمن معلوم على صفة معلومة لأمد معلوم". ونتوفر بهذا الخصوص على إشارة لعقد مقاطعة موقعة بهذا الشأن "بقرية المسيلة من إقليم الشرف بمدينة إشبيلية". وعلى غرار "ذلك

يفعل في البناء" الذي ينجز في إطار عقود "المجاعلة" حيث يتم تحديد ثمن وصفة وأمد العمل. ولم يكن العمل المأجور أقل أهمية، حسبما يتضح من كثرة إقبال الناس على "استئجار بنّاء لبناء دار أو حانوت أو حمام أو فرن". ولا تعوزنا التفاصيل عما كان يتقاضاه الأجراء من البنائين والصناع مقابل قوة سواعدهم مياومة أو مشاهرة أو مقاطعة. وفي نص لابن حزم ما يضفي طابع التعاون على مضامين العقود الممضاة بين المشغلين والمشتغلين في ظل مختلف أنظمة التعاقد المذكورة مع "البنائين والأجراء". وحتى يتم تقليص إمكانات النزاع بين المتعاقدين، عادة ما يتم إثبات ما يشتمل عليه البناء "من بيوت ومخازن وغرف وساحات ودرج وسطوح". كما يتم ضبط "صفة البناء من الطول والعرض".

مع ذلك، فسواء خلال عصر الخلافة أو في أيام بني عباد ظلت بعض هوامش السخرة قائمة في قطاع البناء وإن في نطاق ضيق. ولا تعوزنا القرائن عن ميل بعض الملاكين بما في ذلك خلفاء بني أمية بقرطبة إلى استخدام المماليك في بعض الأشغال المرتبطة بالبناء. كما تم تشغيل الأسرى أيام الحجابة العامرية في "نقل التراب على رؤوسهم". وكثيرا ما كان المنصور بن أبي عامر يعمد إلى استخدام النصارى القشتاليين يدا عاملة مسخرة في كبريات أوراشه المعمارية قد جعلهم "يتصرفون في البنيان عوضا عن رجالة المسلمين". وبدلا عن نظام الرق التقليدي القائم على استنفاذ عمل العبيد العضلي في شروط لا إنسانية، لم يكن نظام التثمير التعاقدي بالأندلس يسمح إلا بهوامش ضيقة للسخرة التي انتظمت في أرقى الصيغ المتعارفة. نذكر من ذلك إدماج الرقيق في العمل المأجور وفق عقود "سلم الرقيق النجار أو البناء المملوكين من رقيق الأعاجم أو البربر أو السودان".

إلا أن أبرز ما طرأ على أصناف البنائين والصناع المرتبطين بقطاع البناء خلال عصر بني عباد يكمن في التناغي إلى أقصى الحدود في صقل المهارات اليدوية والإمعان في فنون التزويق والزخرفة. ولعل في جملة ما لدينا من معلومات عن المباني العبادية وغيرها من الأبنية السلطانية بأندلس الطوائف ما يكشف عن دور النماذج الموروثة عن عصر الخلافة في تأصيل معالم مدرسة طائفية للصنائع وفنون العمارة، سواء على مستوى رقة مواد البناء أو بخصوص رفعة أساليب النقش والتصوير والتنميق. ويبدو أن المهارات المكتسبة من طرف أهل الحرف وصنائع البناء بإشبيلية العبادية سرعان ما تجاوزت الحدود المعهودة. مصداق ذلك ما ذكره ابن بسام عن بديع المباني الطائفية التي "لم يشاهد مثلها قط في قصر الإمارة بالحضرة العظمى قرطبة". وغني عن البيان أن الفنون والمهارات الحرفية الراقية قد غدت في ظل نظام الطوائف من الأسرار المحفوظة والمتوارثة ضمن دوائر عائلية شبه مغلقة، على عكس ما كان عليه جمهور البنائين والصناع خلال عصر الخلافة ■

المصادر:

[1] ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (ت ٦٨٨ هـ/١٢٨٩م):
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء طبقات الأطباء (=عيون الأنباء) ، تحقيق نزار رضا، بيروت ١٩٦٥؛ نشر دار الثقافة، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨١.

(٢) ابن أبي الصلت الداني، أمية بن عبد العزيز (ت ٥٢٩ هـ).
كتاب تقويم الذهن (=تقويم الذهن)، تحقيق أنخل جونثالث بلنثيا، مجريط ١٩١٥.

(٣) ابن أبي الفياض، أبو بكر أحمد بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن أبي الفياض (ت ٤٥٩هـ/١٠٦٦م)
- نص أندلسي من تاريخ ابن أبي الفياض (=تاريخ بن أبي الفياض)، ضمن ذو نون طه، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج١، م٣٤، بغداد ١٩٨٣، صفحات ١٦٢-١٩٣.

(٤) ابن الإمام التطيلي، عيسى بن موسى بن أحمد الإمام التطيلي (ت ٣٨٦ هـ/٩٩٦م)
- كتاب القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر (=نفي الضرر المخطوط)، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، رقم ١٥٢٣٧.
- القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر (=نفي الضرر)، تحقيق محمد النميـنج، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط ١٩٩٩.

(٥) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م)
- الصلة في أخبار أئمة الأندلس (=الصلة ١٩٥٥)، نشر السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة، ١٩٥٥: كتاب الصلة (=الصلة)، القاهرة ١٩٦٦.

(٦) ابن بلقين، الأمير عبد الله بن بلقين الزيري (أزيح عن عرش غرناطة سنة ٤٨٣هـ/١٠٩١م)
- كتاب التبيان (=التبيان)، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٥٥: كتاب الأمير عبد الله بن بلقين آخر أمراء بني زيري بغرناطة (=المذكرات ١٩٩٥)، تحقيق أمين توفيق الطيبي، الرباط ١٩٩٥.

(٧) ابن الحاج، أبو عبد الله بن الحاج الشهيد (ت ٥٢٩ هـ/١١٣٤م)
- كتاب النوازل (=النوازل)، مخطوط المكتبة العامة بالرباط، رقم ج٥٥.

(٨) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣م)
- رسالة مراتب العلوم (=مراتب العلوم)، ضمن الرسائل، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٨٣، ج٤، 59 - ٩٠.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل (=كتاب الفصل)، تحقيق محمد إبراهيم نصر و عبد الرحمن عميرة، بيروت، ١٩٨٥

(٩) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (ت ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م)
كتاب المقتبس (=المقتبس٥)، نشر بيدرو شالميتا وفيديريكو كورينطي ومحمد صبح، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٩.

(١٠) ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨ هـ/١٤٠٦م)
- كتاب المقدمة (=المقدمة)، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، ١٩٥٩-١٩٦٠.
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (=كتاب العبر)، القاهرة ١٢٨٤ هجرية.

(١١) ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي المالكي (ت ٥٩٥هـ/١١٩٨ م)
- الفتاوى (=الفتاوى)، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، بيروت ١٩٨٧.

(١٢) ابن الرامي البناء، المعلم محمد بن إبراهيم اللخمي (توفي حوالي منتصف القرن الثامن الهجري الموافق لمنتصف القرن الرابع عشر الميلادي)
- كتاب الإعلان بأحكام البنيان (=أحكام البنيان)، نشر عبد الله الداودي، مجلة الفقه المالكي والتراث القضائي بالمغرب، الأعداد ٢ و ٣و ٤، الدار البيضاء ١٩٨٢، صفحات ٢٥٩-٤٩٠.

(١٣) ابن سهل، أبو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي (ت ٤٨٦هـ/١٠٩٣م)
- الأحكام الكبرى (= الأحكام الكبرى ٨٣٨ق)، مخطوط المكتبة العامة بالرباط، رقم ٨٣٨ق.
- الأحكام الكبرى (=الأحكام الكبرى د ١٧٢٨)، مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم د ١٧٢٨.
- الأحكام الكبرى (=الأحكام الكبرى هسبريس)، نشر التهامي الزموري، مجلة هسبريس تامودا، عدد ١٤، الرباط ١٩٧٣، صفحات ٢٥-٣١.

(١٤) ابن صاحب الصلاة، أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجي (ت ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م)
- كتاب المن بالإمامة (=المن بالإمامة)، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، ١٩٨٧

(١٥) ابن عبد الرؤوف، أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف
- رسالة في آداب الحسبة والمحتسب ضمن: Documents Arabes inédits sur la vie sociale et economique en occident musulman au Moyen âge, Trois Traités hispaniques de hisba, ed. E. LEVI-PROVENÇAL, Le Caire 1955, (pp. 67-116).

(١٦) ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٣م)
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (=الذيل والتكملة س٥ق٢)، تحقيق إحسان عباس، السفر الخامس القسم الثاني، بيروت ١٩٦٥

(١٧) ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي (من أهل القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي)
كتاب الحسبة، ضمن:
IBN ABDUN, "Un document sur la vie urbaine et les corps de métier à Seville au XII siècle, le Traité d'Ibn Abdun" (=كتاب الحسبة), ed E. LEVI-PROVENÇAL, Journal Asiatique, CCXXIV, 1934

(١٨) ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٧١٢هـ/١٣١٣م)
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (=البيان المغرب)، نشر س. ج. كولان وليفي بروفنسال، الأجزاء، بيروت ١٩٨٠.

(١٩) ابن عاصم، محمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر القيسي الغرناطي(ت ٨٢٩هـ/١٤٢٥م)
- حدائق الأزاهر (=حدائق الأزاهر)، تحقيق عفيف عبد الرحمن، بيروت، ١٩٨٧.

(٢٠) ابن العطار، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبيد الله بن

سعيد الأموي (ت ٣٩٩هـ/١٠٠٨م)

- كتاب الوثائق والسجلات (=وثائق ابن العطار)، تحقيق بيدرو شالميتا و فيديريكو كورينطي، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد ١٩٨٣.

(٢١) ابن غالب، محمد بن أيوب الغرناطي الأندلسي (من أهل القرن السادس الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي)

- تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس (=فرحة الأنفس)، تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ١ الجزء ١، القاهرة ١٩٥٥، صفحات ٢٩٢-٣١٠.

(٢٢) ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد المالكي (ت ٧٩٩ هـ/ ١٣٩٦م)

- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب (=الديباج المذهب)، تحقيق وتعليق محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، ١٩٧٢.

(٢٣) ابن الفرضي، عبد الله بن محمد بن يوسف (ت ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢م)

- تاريخ علماء الأندلس (=علماء الأندلس)، القاهرة ١٩٦٦.

(٢٤) ابن مازة البخاري، أبو محمد حسام الدين عمر بن عبد العزيز الصدر الشهيد (ت ٥٣٦هـ/ ١١٤١م)

- كتاب الحيطان، دراسة فقهية لأحكام البناء والارتفاق (=كتاب الحيطان)، تحقيق عبد الله نذير أحمد، جامعة الملك عبد العزيز، جدة ١٩٩٦.

(٢٥) ابن هشام النحوي، أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام النحوي (ت ٧٦١هـ/١٣٥٩م)

- من رسائل ابن هشام النحوية (=رسائل ابن هشام)، تحقيق حسن إسماعيل مروة، دمشق، ١٩٨٨.

(٢٦) أحمد الطاهري

- التشريع الفقهي بالأندلس في مواكبة التطور العمراني والحضري، ضمن دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس عصري الخلافة والطوائف، الدار البيضاء، ١٩٩٣، ١٠٢-١٠٣.

(٢٧) إخوان الصفا (من أهل القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي)

- رسائل إخوان الصفا (=الرسائل)، نشر خير الدين الزركلي، القاهرة، ١٩٢٨.

الأصفهاني، أبو عبد الله عماد الدين محمد الخطيب (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)

- خريدة القصر وجريدة العصر(=خريدة القصر)، تحقيق آذرتاش اذرنوش وآخرون، تونس، ١٩٨٦.

(٢٨) الباجي، أبوالوليد سليمان بن خلف (ت ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م)

- فصول الأحكام (=فصول الأحكام)، تحقيق محمد أبو الأجفان، بيروت ١٩٨٥

(٢٩) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)

- الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك (=جغرافية الأندلس)، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي بيروت ١٩٦٨.

(٣٠) البونتي، أبو محمد عبد الله بن فتوح بن موسى بن أبي الفتح الفهري (ت ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠م)

- الوثائق والمسائل المجموعة من كتب الفقهاء (=الوثائق المجموعة)، مخطوط مكتبة ميغيل أسين للدراسات العربية، مدريد رقم XI.

(٣١) الجزيري، أبو الحسن علي بن يحيى بن القاسم الصنهاجي البطيوي (ت ٥٨٥هـ/١١٨٩م)

- المقصد المحمود في تلخيص العقود (=المقصد المحمود)، مخطوط المكتبة العامة بالرباط، رقم ٥٩٢ق.

(٣٢) الخصيبي المنجم،

- كتاب المواليد (=مواليد الخصيبي)، مخطوط مكتبة الأسكوريال، رقم ٩٤٠.

(٣٣) السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالقي

- في آداب الحسبة (=آداب الحسبة)، نشر ليفي بروفنسال و س.ج كولان، الرباط، ١٩٣١

(٣٤) صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م)

- كتاب طبقات الأمم (=طبقات الامم)، تحقيق حياة العيد بوعلوان، بيروت، ١٩٨٥.

(٣٥) العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (=مسالك الأبصار)، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة ١٩٢٤

(٣٦) فريد بن سليمان

- تقديم كتاب نفي الضرر لابن الامام التطيلي، دراسات أندلسية، عدد ٨ تونس ١٩٩٢

(٣٧) الفشتالي، ابو عبد الله محمد بن احمد بن عبد المالك الفشتالي

- تذكرة في علم الوثائق (=كتاب التذكرة)، مخطوط الأسكوريال، رقم ١١٦٣

(٣٨) القفطي، الوزير جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)

- إنباه الرواة على أنباء النحاة (=انباء النحاة)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦

- كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء (=اخبار الحكماء)، دار الآثار، بيروت، بدون تاريخ.

(٣٩) مجهول،

- ذكر مشاهير أهل فاس في القديم (=مشاهير أهل فاس)، مخطوط المكتبة العامة بالرباط، رقم د ١٢٩٤، ٢١.

(٤٠) المقري، شهاب الدين أبو العباس احمد بن بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (=نفح الطيب)، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨

أصداء الأندلسيين في حلب

مهجة الباشا *

تعلّق الأندلسيون بالمشرق تعلّقاً شديداً، ونظروا إليه بعين الإكبار والإجلال، فكان قبلة أنظارهم، ومهوى أفئدتهم، ومصدر إلهامهم.

تعلّقوا بالمشرق، تعلّق الفرع بأصوله وجذوره، وتمسّكوا بكل ما يأتيهم من قبله، وبدا ذلك جلياً على نطاق واسع في مختلف مظاهر حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية، فقد اتخذ ملوكهم ألقاب ملوك المشرق ألقاباً لهم، وعرفنا منهم: المعتضد، والمعتمد، والمتوكل، والمستنصر، وغيرهم... وكذلك سمّوا مدنهم بأسماء مدن المشرق، فإشبيلية هي حمص، وإلبيرة دمشق، وجيّان قنسرين، وشريش فلسطين، وغيرها.. وشبّهوا ملوكهم بملوك المشرق من حيث الطباع والمواقف. فعبد الرحمن الداخل والمعتضد شبّها بأبي جعفر المنصور في البأس والشدّة وضبط الدولة، والمعتمد في علاقته بوزيره ابن عمّار شبّه بالرشيد وعلاقته بأبي جعفر البرمكي. وكذلك لقّب شعراؤهم بألقاب شعراء المشرق، فابن درّاج والرمادي متنبّيا المغرب، وابن زيدون بحتريّه، والطليق المرواني ابن المعتز، وأبو الأجرب جعونة الكلابي عنترة، والرصافي ابن الرومي، ومؤمن بن سعيد دعبل الأندلس، وحمدة بنت زياد الخنساء، وابن اللبّانة سموءله، والأعمى التطيلي معرّيّه، وابن خفاجة صنوبريّه.. وغيرهم.

وقد جهد حكّام الأندلس في استقدام علماء المشرق وفنّانيه، من مثل أبي علي القالي، وصاعد البغدادي، وزرياب الموسيقي والمغني، ومغنيات المدينة المشهورات، مثل: علم وقلم وفضل وقمر، وغيرهن. ولم يكن هذا إلا تعبيراً عن حبٍّ عظيم للمشرق، وشوق عارم للتشبّه بأعلامه وتقليدهم، ولم يكتف الأندلسيون بذلك، فقد أرسلوا في طلب المؤلّفات والمصنّفات المشرقية، وبذلوا في سبيل ذلك الأموال الطائلة، وقصّة حصول الحكم المستنصر على كتاب الأغاني قبل المشارقة ما تزال ماثلةً في الأذهان، وقد دفع فيها ألف دينار ذهباً عيناً.

* أستاذ الأدب بجامعة حلب

لقد اتُّهم الأندلسيون بالتقليد والتكرار، لتعلقهم الشديد بكل ما يأتيهم من المشرق، ووصموا بعدم القدرة على الابتكار والإبداع. لكنَّ هذا الاتهام لم يكن إلا نتيجة تفكير سطحي متسرِّع، فإصرار الأندلسيين على اقتفاء خطا المشارقة لم يكن إلا تعبيراً عن إرادة كامنة تسعى إلى التمسُّك بالأصول تمسُّكاً قويّاً لا يتزعزع، وإصرارهم هذا لم يكن نابعاً عن ميل إلى التقليد لعدم القدرة على الإبداع، فقد أنجبوا علماء ومفكرين لا يقلّون عن علماء المشرق ومفكّريه في الإبداع والتميُّز، من مثل ابن حزم، وابن حيّان، وابن رشد، وابن عربي، وابن زيدون، وابن درّاج، وغيرهم كثير.. بل كان نابعاً عن رغبة قوية في الحفاظ على الهوية والوجود وسط موج زاخر من الأعداء يحيط بهم من كل جانب، فالإبداع لم يقصره الله على أمة دون أمة، والابتكار لم يمنحه الله لقوم دون قوم.

لم يقف الأندلسيون يوماً عند متابعة أخبار المشرق، ودعوة علمائه ومفكّريه، واقتناء ما يصدر عنه من مؤلفات ومصنفات وحسب، بل شدّوا إليه الرحال، مفارقين الأهل والوطن، بحماسة لم تفتر، واندفاع لم يهدأ، غير مبالين ببعد الشُّقَّة ووعثاء السفر. واندفع علماؤه ومفكّروه إلى المشرق طلباً لمختلف أنواع العلوم، فوفد عليه منهم الفقهاء واللغويون والشعراء والموسيقيون والفلاسفة والأطباء والفلكيون وعلماء النبات، عدا التجّار وقوافل الحجيج، على امتداد الوجود الإسلامي في تلك البلاد البعيدة.

وكانوا ينهلون العلم على يد أساطين المشرق، فمنهم من يعود بعد ذلك إلى بلاده، محمَّلاً بالإجازات العلمية، وبنفائس الكتب والمصنَّفات المشرقية، ومنهم من كانت تطيب له الإقامة في واحدة من عواصم الفكر والثقافة المشرقية، فيقيم فيها مدة طويلة، أو يستوطنها دون أن يفكر بمغادرتها، ولا ننسى أيضاً أنَّ هؤلاء كانوا يحملون معهم إلى المشرق إبداع كتّابهم، ونتاج شعرائهم وعلمائهم أيضاً.

ولعلَّ ما شجّع الأندلسيين على مثل هذه الرحلة الطويلة التي امتدّت إلى مناطق شاسعة بعيدة في العالم الإسلامي نظرة التقدير العميق التي كان يلقاها حامل العلم منهم أينما حلَّ في هذا الوطن الشاسع، فقد أكرم الحكّام وقادتهم، وبالغوا في الاحتفاء بهم، وقلّدوهم المناصب الرفيعة، من مثل مناصب القضاء والشورى والإفتاء والتدريس.. دون النظر إلى انتماءاتهم المذهبية، أو جنسياتهم المختلفة، وهذا ما شجّع على الإقامة الطويلة أو الدائمة في المشرق، وقد شجّع مثل هذا الانفتاح والتسامح والتقارب الذي قد لا نجده متوافراً اليوم في هذا العالم الذي يُدعى بالمتحضّر، شجّع على نهوض الثقافة وتلاقي الحضارات، وامتزاجها إلى حدٍّ كبير.

أمّا أهم العواصم الثقافية المشرقية التي كان يحرص علماء الأندلس ومفكّروه على دخولها ولقاء علمائها بعد مغادرتهم مصر والإسكندرية، فهي مكة والمدينة ودمشق وبغداد وبلخ وبخارى وسمرقند، ثم في طريق العودة يمرون بالموصل وحلب ودمشق..

ولا ننسى أن نشير هنا إلى أنَّ قضاء فريضة الحج كانت دائماً الدافع الأقوى والأعظم في رحلة الأندلسيين إلى المشرق،

لبعدهم عن الديار المقدّسة، وشدّة شوقهم إليها.

ولئن كانت مكة ودمشق والموصل وبغداد هي العواصم الأكثر جذباً لعلماء الأندلس، فإن حلب أيضاً لم تكن أقل ألقاً وتأثيراً، إذ كانت من العواصم السياسية والثقافية المهمة، وكان ولاتها وأمراؤها يشجّعون الحركة العلمية والثقافية، ويفسحون صدور مجالسهم للعلماء والأدباء والشعراء، ويُقْطِعونهم الإقطاعات الواسعة، ويولّونهم المناصب الرفيعة، ويبذلون الأموال الطائلة في بناء المساجد والمدارس، ودعم طلاب العلم، حتى غدت بشيوخها الأجلاء وتراثها العريق ومدارسها التي لا تُحصى قبلة الأنظار، يقصدها أهل العلم من كل مكان.

ونشطت العلوم الفقهية واللغوية والنحوية في حلب نشاطاً كبيراً، وكان للفقه القدح المعلّى بين العلوم الأخرى، وتشير النصوص التي بين أيدينا إلى أن الفقهاء الأندلسيين الذين قدموا إلى حلب يفوق عددهم عدد الشعراء والنحاة، ولعل ذلك يعود إلى رواج علوم الفقه والقراءات الحديثة والرواية.. وتقدُّمها على باقي العلوم الأخرى في تلك العصور..

وأقدم من دخل حلب من الأندلسيين -بحسب النصوص التي بين أيدينا- الفقيه الأديب أبو الوليد الباجي، في أوائل القرن الخامس الهجري، لكنَّنا نرجِّح أن هناك من سبقه إلى ذلك، لأن الرحلة من الأندلس إلى المشرق بدأت منذ أوائل القرن الثالث الهجري. أما عن التصنيف الذي اخترناه لهؤلاء الأعلام فقد جعلناه بحسب العلم الذي غلب عليه فاشتُهر به، فمعظمهم كانوا يتقنون أكثر من علم وفنّ، ولعل الصعوبة التي تواجهنا في هذا البحث هي الميل إلى الإيجاز والاختصار في إيراد الأخبار في معظم كتب التراجم، والاستفاضة أحياناً تكون للمشهورين من الأعلام وحسب. ونحن لا نستطيع أن نرسم صورة نتمناها، بل إنَّنا مضطرون للتقيُّد بما بين أيدينا من أخبار ونصوص.

ونعود إلى أبي الوليد الباجي، وهو سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب التجيبي، الذي وُلد ببطليوس وتوفي بالمرية (٤٠٣ - ٤٧٤هـ)، وعاش في الأندلس في عهد ملوك الطوائف الذي اتَّصف بالاضطراب السياسي، ((وبدأ بالأدب فبرز في ميادينه، وجعل الشعر بضاعته، فنال به من كل الرغائب))، ومال بعد ذلك إلى تحصيل علوم الفقه، وكان على المذهب المالكي، وعرف بالزهد والورع والعلم.

رحل إلى المشرق عام /٤٢٦هـ/، وقدم مصر وسمع بها، ثم قصد الديار المقدّسة موطن هذه العلوم ومهدها، فجاور ثلاثة أعوام، ملازماً أبا ذرٍّ الهَرَوي، الحافظ، متتلمذاً على يديه، وحجَّ أربع حجج، ثم رحل إلى بغداد، فأقام فيها ثلاثة أعوام يدرِّس الفقه، ويكتب الحديث، ولقي فيها جملة من الفقهاء، كأبي الطيب الطبري، وأبي إسحاق الشيرازي، ثم رحل إلى الموصل واقام فيها سنة، ملازماً لأبي جعفر السِّمناني، ((ويأخذ عنه علم الكلام، فبرع في الحديث وعلله ورجاله، وفي الفقه وغوامضه وخلافه)). كان حسن السمت، موقر السمت، لقب في بغداد بشيخ الأندلس، وكان أول أمره مقلاً، حتى احتاج إلى القصد بشعره، وفي بغداد أجّر نفسه لحراسة الدروب، وقد قصد لتدريس

الفقه وقراءة الحديث فيها حتى صار كثير من العلماء يسمعون منه، ويرتاحون للأخذ عنه. ثم رحل إلى حلب عام /٤٣١هـ/، فأقام فيها نحواً من عام، وأسند إليه فيها منصب القضاء.

له تصانيف كثيرة، وجميعها في الفقه، من مثل: (التسديد إلى معرفة التوحيد)، و(سنن المنهاج وترتيب الحجاج)، و(إحكام الفصول في أحكام الأصول)، و(التعديل والتجريح لمن خرّج عنه البخاري في الصحيح)، و(شرح الموطّأ)، و(اختلاف الموطّأ)، و(الحدود)، وغيرها كثير. عاد إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلمٍ جمٍّ حصّله مع الفقر والتعفف، وفشا علمه، وتهيّأت الدنيا له، وعظم جاهه، وأجزلت له الصلات، ومات عن مالٍ وافر، وترسّل للملوك، وولي القضاء بعدة مواضع.

ويفخر أبو الوليد أنّ حافظي المغرب والمشرق: ابن عبد البرّ، وابن ثابت البغدادي، قد رويا عنه، وهما أسنُّ منه وأكبر. وقد روى عنه في المغرب كثير من العلماء، من مثل: أبي بكر الطرطوشي، وأبي علي السبتي، وسفيان ابن العاصي، وغيرهم كثير..

يقول فيه المقّري: إنّه ((فقيه، متكلّم، أديب، شاعر. سمع بالعراق، ودرس الكلام، وصنّف إلى أن مات وكان جليلاً رفيع القدر والخطر)). أما ابن خاقان فيرى أنه ((بدر العلوم اللائح، وقَطرُها الغادي والرائح، وثبيرُها الذي لا يُزحم، ومنيرها الذي ينجلي به ليلها الأسحم... ورحل إلى المشرق فعكف على الطلب ساهراً، وقطف من العلم آزاهراً... حتى غدا مملوء الوطاب... فكرَّ إلى الأندلس بحراً لا تُخاض لججه، وفجراً لا يُطمس منهجه، فتهادته الدول... ثم استدعاه المقتدر بالله، فصار إليه مرتاحاً، وبدا بأفقه ملتاحاً، وهناك ظهرت تواليفه وأوضاعه.. وكان المقتدر يباهي بانحياشه إلى سلطانه، وإيثاره لحضرته باستيطانه)). ومن مواقفه المشرفة أنه حاول إصلاح ما بين ملوك الطوائف بعد عودته من المشرق، فكانوا يجلّونه في الظاهر، ويستثقلونه في الباطن. ومما اشتُهر به مناظرته مع ابن حزم، وتغلّبه عليه، رغم نبوغه وسعة ثقافته، وعظيم علمه..

أما نشاطه الثقافي في الحركة الأدبية والفقهية في حلب، فإنّ الروايات لا تنقل لنا منه إلا القليل، فقد استقبله معزُّ الدولة أبو علوان ثمال بن صالح المرداسي، صاحب حلب في بلاطه، وأسند إليه منصب القضاء، ونال عنده حظوة كبيرة، فمدحه بقصائد مطوّلة، ويبدو أنّ إقامته في حلب لم تطل، فقد كانت محطته الأخيرة قبل أن يعود إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة تنقّل فيها بين مصر ومكة والموصل وبغداد ودمشق وحلب، وقد استقصى فيها ((فأقام بها نحواً من عام، ثم نازعه هوى نفسه إلى مسقط رأسه ومنبت غرسه من أرض الأندلس)).

وبعد عودته عظم شأنه، وبعد صيته، لما حصّل من علوم المشرق على يد كبار شيوخه.

أمّا أبو الأصبغ، عبد العزيز بن علي، المعروف بابن الطحان الإشبيلي، فقد ولد سنة /٤٩٨هـ/، وسمع الحديث

على شريح الرعيني خطيب إشبيلية، رحل إلى فاس، وحج، ودخل العراق، وقرأ بواسط القراءات، وأقرأها، ثم دخل الشام، فاشتُهر ذكره، وجلّ قدره، وأخيراً نزل حلب فأقام فيها إلى حين وفاته بعد سنة /٥٥٩هـ/.

تصدّى للإقراء، وكان من القرّاء المجوّدين، وله شعر حسن، ومؤلفات كثيرة، منها: (نظام الأداء في الوقف والابتداء)، و(مقدمة في مخارج الحروف)، و(مقدمة في أصول القراءات). ويبدو أنه عاصر نور الدين الزنكي، وشهد انتصاراته على الفرنجة خلال عامي (٥٤١-٥٥٩هـ).

وأما أبو عبد الله، محمد بن علي بن ياسر الأنصاري، الجياني، ويكنى أبا بكر، (ت: ٥٦٣هـ)، رحل إلى المشرق فأدى فريضة الحج، وقدم دمشق قبل سنة /٥٢٠هـ/، وسكن وعلّم القرآن فيها ن ثم رحل إلى بغداد ومنها إلى خراسان، وسمع ببلخ، وبلغ الموصل، فأقام فيها مدة يُسمع منه ويُؤخذ عنه، ثم انتهى إلى حلب فاستوطنها، وسُلّمت إليه خزانة الكتب النورية. توفي في حلب سنة /٥٦٣هـ/، وقد بلغ السبعين. وقد عاصر حكم عماد الدين الزنكي في حلب.

وكذلك أبو بكر، محمد بن علي الأنصاري الجيّاني، فقد دخل مصر ثم الشام والعراق وخراسان وبلخ وما وراء النهر، ولقي أئمّتها، ثم عاد إلى بغداد سنة /٥٥٩هـ/، وتوجّه إلى مكّة فحجّ، ورجع إلى الشام فاستوطن حلب إلى توفي بها سنة /٥٦٣هـ/ بعد أن أقام فيها ثلاث سنوات. وكان فاضلاً متديّناً، صدوقاً، حافظاً، عالماً بالحديث. وقد عاصر أيضاً حكم نور الدين الزنكي.

ونجد رحلة أبي عبد الله، محمد بن عبد الرحيم الغرناطي القيسي - المعاصر لابن علي بن ياسر الأنصاري - مشابهة لرحلة زميليه، فقد دخل الإسكندرية سنة /٥٠٨هـ/، ثم دخل خراسان وأقام بها مدة، ثم رجع إلى الشام وأقام بحلب سنين، ثم سكن دمشق وتوفي فيها عام /٥٦٥هـ/، وقد عاصر أيضاً حكم نور الدين الزنكي.

أما الشيخ شعيب بن أبي الحسن الفقيه الأندلسي، فقد قدم إلى حلب في عهد نور الدين الزنكي، الذي اهتمَّ بإنشاء المدارس الفقهية، وقد عُهد إليه بمسجد صيَّره مدرسة، وهو أول مسجد اختطّه المسلمون عند فتح حلب من المساجد، فسمّيت المدرسة باسمه (المدرسة الشعيبية)، ولم يزل مدرّساً بها إلى أن توفي. وآثار هذه المدرسة باقية حتى الآن.

كان الشيخ شعيب من الفقهاء المعتبرين، والزهّاد المعروفين، وكان نور الدين يثق بعلمه وورعه، فولاّه التدريس على مذهب الإمام الشافعي رحمه الله. توفي سنة /٥٩٦هـ/.

ومن فقهاء القرن السابع الهجري محمد بن المنذر المغربي المرّاكشي، ولد في بغداد بعد أن نزل فيها والده، وسمع الحديث، وقرأ القرآن على ابن خميس وأبي بكر القرطبي، وصحب المتصوّفة الكبار في بغداد، كالسهروردي وعبد القادر الجيلي. سافر إلى الشام، وقرأ قطعة من تاريخ دمشق على مصنّفه ابن عساكر، وقد نزل حلب وأقام فيها. كان عالماً شافعياً، فاضلاً، غزير العلم، عالماً بالآداب،

حسن الأخلاق، كيِّسا، وله شعر جيِّد.

ومن المعاصرين له أبو العباس، أحمد بن محمد، الملقب بابن الرومية، الإشبيلي، النباتي، كان عارفاً بالعشب والنبات، صنَّف كتاباً حسناً كثير الفائدة، في الحشائش، ورتَّب فيها أسماءها على حروف المعجم، سمع الحديث بالأندلس، وقد تنقل في بلاد المشرق لينهل من علومها. وقد حدَّث في مصر أحاديث من حفظه، وقد لقِّب بـ (الحزمي)، نسبة إلى ابن حزم الذي كان ظاهري المذهب، وكان متعصباً له بعد أن تفقه في المذهب المالكي. وسمع في بغداد ودمشق والموصل وغيرها، ويبدو أنه رحل إلى المشرق ولقي كثيراً من العلماء فيه، وقد دخل حلب في نهاية رحلته، وعاصر فتح المقدس على يد صلاح الدين عام /٥٨٣هـ/، وشهد حكم ولديه الملك الظاهر غازي والملك الأفضل، وأخيراً الملك العزيز محمد صاحب حلب. له فهرسة حافلة أفرد فيها روايته بالأندلس من رواياته بالمشرق، وقد فاق أهل زمانه في معرفة النبات، وقعد في دكَّان لبيعه، نزل حلب مدَّة ثم عاد إلى وطنه، وتوفي بإشبيلية سنة /٦٣٧هـ/.

أما أبو الوليد، ابن الجنان، محمد بن المشرف بن الكاتب أبي بكر ابن العالم الجليل أبي العلاء ابن الجنان الكناني الشاطبي، الملقب بفخر الدين في المشرق. وُلد سنة /٦١٥هـ/ بشاطبة، وقد ذكر ابن سعيد أن آباءه ((توارثوا بشاطبة مراتب تحسدها النجوم الثاقبة، وأبو الوليد أشعرهم، وقد تجدد به في أقطاع المشرق مفخرهم)). وقد قصد أئمَّة النحويين، ورتَّب في شعراء الملك الناصر صاحب الشام. وله مقطَّعات غزلية سارت على الألسنة، صحب ابن سعيد بمصر ودمشق وحلب، وكانا يتبادلان الرسائل والشعر. كان عالماً، فاضلاً، دمث الأخلاق، كريم الشمائل، له مشاركة في علوم كثيرة، وشعره رقيق. يقول في الغزل:

أَنا من سُكرِ هَواهُم ثَمِلُ
لا أُبالي هَجَروا أَم وَصَلوا
فَبِشعري وَحَديثي فيهِمُ
زَمزَمَ الحادي وسارَ المَثَلُ
لا تَظنُّوا أَنَّني أَسلو فَما
مَذهَبي عَن حُبِّكُم يَنتَقِلُ

وله في وصف الخمرة:

إن تِهْتَ بالشمس يا أفْقَ السماءِ فلي
شمسان: وجهُ نديمي وابنةُ العِنَبِ
قمِ اسقنيها وثغرُ الصبح مبتسمٌ
والليل تبكيه عين البدرِ بالشُهُبِ
والسُحْبُ قد لبست سودَ الثِّيابِ وقد
قامت لترثيه الأطيار في القُضُبِ

توفي في دمشق، ودفن بسفح قاسيون، وأغلب الظن أن وفاته كانت بعد النصف الأول من القرن السابع الهجري.

ومن المعاصرين له أبو عبد الله، محمد بن سراقة الشاطبي، المالكي، الذي وُلد بشاطبة عام /٥٩٢هـ/، ورحل في طلب الحديث، فسمع ببغداد من الشيخ السهروردي والدينوري، وسمع بحلب من ابن شداد وغيره، وتولى مشيخة دار الحديث البهادية بحلب، ثم قدم مصر وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة، وبقي بها إلى أن توفي عام /٦٦٣هـ/. وهو أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة والنبل، وهو أحد المشايخ الصوفية، اتَّصف بالدين

والعفاف والبشر والوقار والمعرفة الجيِّدة بمعاني الشعر، وكان صالح الفكرة في جل التراجم، مع ما جبل عليه من كرم الأخلاق واطّراح التكلّف ورقّة الطبع ولين الجانب. ومن شعره قوله:

إلى كَمْ امنِّي النفسَ ما لا تنالُهُ
فيذهب عمرٌ والأمانيُّ لا تُقضى

وقوله:

نصبتُ ومثلي للمكارم ينصبُ
ورُمْتُ شروق الشّمس وهي تغرُبُ
وحاولت إحياء النفوس بأسرها
وقد غرغرت يا بُعْدَ ما انا اطلبُ
مرادي شيءٌ والمقادير غيره
ومن عاند الأقدار لا شكَّ يُغْلَبُ

وفي القرن التاسع الهجري نقع على ترجمة لمحمد بن يحيى اللبسي، الذي ولي قضاء المالكية بحماة، وسار سيرة حسنة، ثم حنق على نائبها في بعض الأمور فسافر إلى حلب مدّعياً أنَّه يريد السماع على بعض علمائها. وصفه ابن حجر بقوله: الشيخ الإمام العالم العلاّمة في الفنون، قاضي الجماعة. وقال أيضاً: إنه إنسان حسن، إمام في علومٍ منها الفقه والنحو وأصول الدين، يستحضر علوماً كأنها بين عينيه، وهو علامة دهره، وخلاصة عصره، وعين زمانه. توفي سنة /٨٨٤هـ/.

أما النحاة الأندلسيون فكان لهم حضور واسع، وأثر كبير في تدريس علم النحو وتطوُّره في حلب..

وقد تركوا جميعاً بصمةً قويةً واضحة، وربَّما كان ذلك لأنهم جميعاً من الأئمة النابهين في هذا المجال.

ومنهم أبو الحسن، ابن خروف، علي بن محمد بن يوسف بن خروف، القيسي، القرطبي، القيذاقي، كان إماماً في العربية، محقّقاً مدقّقاً ماهراً، عارفاً مشاركاً في علم الأصول. مدح الملوك والوزراء في بلاد المغرب ولكنَّه لم يجد عندهم ما كان يصبو إليه. وممن مدح الكاتب محمد بن عيّاش فلم يرضه ما أعطاه إياه، فاغتاظ وردّه وقال في ذلك:

مدحت ابن عياش فجدد لي الذي
حباني به ما قد تناسيت من كربي
واصبحت أسمو للمشارق طالعاً
لأنّي رأيت الشمس تنحط في الغربِ

رحل من إشبيلية، فحجّ، وجاور بالقدس، ثم عاد إلى قرطبة، وفي رحلته الثانية استوطن حلب، وفيها توفي عندما تردّى في جب طام عام /٦٠٩هـ/.

له مؤلفات في النحو، منها: شرح لكتاب سيبويه، جليل الفائدة، وشرح جمل الزجاجي، وله كتاب في الفرائض. وقد أقرأ النحو في بلاد عديدة.

وهو إلى جانب إتقانه علوم النحو شاعر مشهور، مدح الملك الأفضل والملك الظاهر، ابني صلاح الدين، وكان يتردد أيضاً بين حلب والموصل، يمدح الظاهر بن صلاح الدين ونور الدين أرسلان شاه. كان شاعراً مجيداً، بارع التشبيهات، نبيل المقاصد، ولا سيَّما في المقطّعات، يقول في رسالة إلى القاضي بهاء الدين ابن شداد (ت: ٦٣٢هـ) يستجديه فروة:

بهاء الدين والدّنيا
ونور المجد والحسبِ
طلبت مخافة الأنوا
ء من جدواك جلد أبي

وفضلك عالم أني

خروف بارع الأدبِ

حلبت الدهرَ أشطرَهُ

وفي حلبِ صفا حلبي

ومن شعره في مليحٍ حبسه القاضي:

أقاضي المسلمين حكمتَ حكماً

أتى وجه الزمان به عبوسا

حبستَ على الدَّراهم ذا جَمالٍ

ولم تحبسه إذ سلَبَ النُّفوسا

اتصل بقاضي حلب ابن شداد، وبقاضي القضاة محيي الدين، الذي أسند إليه الإشراف على مارستان نور الدين.

وكان ابن خروف ذا دعابة وظرف ومرح، حتى في أمور حياته الجادة. ولكنَّ هذا الظَّرْف سرعان ما يفارقه وهو يمدح ملكاً أو وجيهاً، فيلتزم الجدّ والرصانة والجزالية في شعره.

أما أبو عبد الله، جمال الدين، محمد بن عبد الله بن مالك الجياني، فقد نزل دمشق، وسمع على علماء النحاة وأئمتهم، ثم رحل إلى حلب وتصدَّر لإقراء العربية فيها، وجالس ابن يعيش، وتلميذه ابن عمرون، وغيرهما. وهو الإمام العلامة الأوحد الطائي الجيّاني المالكي النحوي، صرف همّته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية، وكان إماماً في القراءات وعالماً بها، وأما اللغة فكان إليه المنتهى فيها. أما النحو والصرف فكان فيهما بحراً لا يُشَقُّ لجّه، وأما اطلاعه على أشعار العرب التي يستشهد بها على النحو واللغة فكان أمراً عجيباً. وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية، مع ما هو عليه من الدين والعبادة، وصدق اللهجة، وكثرة النوافل، وكمال العقل.

أقام بدمشق مدة يصنِّف ويشتغل بالجامع وبالتربة العادلية، وكان قاضي القضاة ابن خلّكان يشيعه منها إلى بيته تعظيماً له. تصدَّر بحلب مدة، وأمَّ بالسلطانية، ثم تحوَّل إلى دمشق، وتكاثر عليه الطلبة، كما تصدَّر بحماة مدّة.

وهو صاحب الألفية المشهورة، وصار يُضرب به المثل في دقائق النحو وغوامض الصرف وغريب اللغات وأشعار العرب، مع الحفظ والذكاء والورع والديانة، وحسن السمت والصيانة، والتحري لما ينقله والتحرير فيه، وكان ذا انتصاب للإفادة، وصبر على المطالعة الكثيرة، تخرج به أئمة ذلك الزمان، وسارت بتصانيفه الركبان، وخضع له العلماء والأعيان.. له شعر ومؤلفات كثيرة، توفي سنة /٦٧٢هـ/.

ومن النحاة البارزين شهاب الدين، أحمد بن عبد الله بن مهاجر، الوادي آشي، فقد رحل إلى المشرق، وسكن طرابلس الشام، ثم انتقل إلى حلب وأقام بها، وصار من العدول المبرّزين في العدالة بحلب، يعرف النحو والعروض، ويشتغل فيهما. صاحب قاضي القضاة ابن العديم، والتقى به الصفدي في حلب أيام إقامته بها سنة /٧٢٣هـ/، وتبادلا الشعر والرسائل.

يقول الصفدي: إنه كان حسن التودد، وقد أنشده لنفسه قوله:

ما لاح في درعٍ يصول بسيفه

والوجه منه يضئ تحت المغفرِ

إلا حسبتَ البحر مدَّ بِجدولٍ

والشمسُ تحت سحائبٍ من عنبرِ

وله في مدح قاضي القضاة، كمال الدين ابن الزملكاني في حلب قوله:

من مخبرٌ عنّيَ الشهباءَ أنَّ كما
لَ الدّين قد شيّدت فيها مفاصره
وأنّ تقليده الزاهي وخلعتَهُ
التي تطرّز عطفيها مآثره

وقد خَمَّسَ لامية العجم مدحاً في رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لم تذكر المصادر سنة ولادته أو وفاته، ويبقى من أعلام النحو في القرن الثامن الهجري، فقد عاصر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون.

ومن النحاة المشهورين الصديقان: أبو جعفر الغرناطي، وابن جابر الأندلسي، اللذين أقاما مدة طويلة في حلب، وتركا فيها أثراً كبيراً.. وهما المعروفان بالأعمى والبصير، ونبدأ بـ:

أبي جعفر، أحمد بن يوسف الرعيني الغرناطي الأندلسي، الملقب بشهاب الدين، رحل إلى المشرق بصحبة صديقه ابن جابر، ونزلا القاهرة، واجتمعا بالشيخ ابن حيّان، ثم قدما دمشق وحلب، ورحلا إلى ماردين، ثم رجعا إلى حلب، ثم حجّا من حلب مراراً، وجاورا وأسمعا بها.

وقبل موتهما افترقا عندما تزوّج أبو عبد الله بإلبيرة على شاطئ الفرات، وبقي أبو جعفر في حلب، وتوفي فيها سنة /٧٧٩هـ/، فرثاه ابن جابر بقصيدة طويلة منها:

لقد عزَّ مفقود وجلّ مصابُ
فللخدِّ من جمر الدموع خضابُ
مصابٌ لعمري ما أصيب بمثله
ولا أنا فيما بعد ذاك أُصابُ

كتب أبو جعفر نسخة من البخاري في ثلاثين مجلداً، وكذا نسخة من صحيح مسلم. وبعض هذين الكتابين موجود في حلب. أقام في حلب نحو ثلاثين سنة، وكان عارفاً بالنحو وفنون اللسان، مقتدراً على النظم والنثر، ديِّناً حسن الخلق، كثير التآليف في العربية وغيرها، حسن الخط. لم تنسه إقامته الطويلة في حلب وطنه، فقد كان يأمل بالعودة إليه، وإلى السبيكة في غرناطة، موطن الصبا والشباب.. التي لم يخبُ ألقها في خياله أبداً. يقول:

ولَمّا وقفنا للوداع وقد بدتْ
قبابٌ بنجدٍ قد علت ذلك الوادي
نظرتُ فألفَيْتُ السبيكةَ فضةً
لحسن بياض الزُّهر في ذلك النادي
فلَمّا كستها الشمس عاد لُجَيْنُها
لَها ذهباً، فاعجَبْ لإكسيرها البادي

ويقول أيضاً:

ما هبَّ من نحو السُّبيكة بارقٌ
إلاّ غدا شوقي لقلبي شابكا
والله ما اخترتُ الفراقَ لربعها
لكنْ قضاءُ الله أوجب ذلكا

ويتشوّق إلى حمراء غرناطة فيقول:

دامت على الحمراء حمر مدامعي
والقلب فيما بين ذلك ذائبُ
طال المدى بي عنهمُ ولربّما
عاد من بعد الإطالة غائبُ

ولأبي جعفر في الغزل:

منازل سلمى إن خلت فلطالَما
بها عمرت في القلب منّي المنازلُ
رسائل شوقي كلّ يوم تزورها
وما ضُيِّعتْ عند الكرام الرسائلُ

وكذلك له دعوة إلى العزلة عن الناس وعدم مخالطتهم في قوله:

خلِّ الأنامَ ولا تخالطْ منهمُ
أحداً ولو أصفى إليك ضمائرَهْ
إنَّ الموفَّق مَنْ يكون كأنّه
متقاربٌ فهو الوحيد بدائرَهْ

ولـه أبيـات ينصـح فيهـا المـذنب ألا يقنط مهما كانت ذنوبه كثيرة:

لا يُقْنِطَنَّكَ ذنبٌ
قد كانَ منك، عظيمُ
فالله قد قال قولاً
وهو الجوادُ الكريمُ
نبِّئْ عبادي أنّي
أنا الغفورُ الرحيمُ

بل إن أبا جعفر يتناول في شعره بعض القضـايا الصـوفية، مـن مثـل القـول: إن الرسـول صلى الله عليه وسلم أوّل الخلق، وأول الرسـل، وهـي فكـرة مختلـف حولها. يقول:

يا أولاً في المرسلين وآخراً
الله خصَّكَ بالكمال ليرضيَكْ
مِنْ قبل آدمَ قد جُعلتَ نبيَّهُ
قدماً فقدَّمك الإلهُ ليُعْلِيَكْ

أما أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن علي بـن جـابر الأندلسـي، الهواري المريسي المـالكي الضـرير، فقـد رحـل مـع رفيقـه الشـيخ أبي جعفـر، ووفـد علـى دمشـق، وسمع بها على اشياخ عصره، ثم توجّه إلى حلب سنة /٧٤٣هـ/. قـرأ القـرآن والنحـو على ابن يعيش، وفِقْهَ مالك على ابن سعيد الرنـدي، وسمـع بحلـب وحـدّث بهـا، وكـان إماماً عالماً فاضـلاً بارعاً نحويّاً أديباً، لـه النظم والنثـر البـديعان، وألّـف وجمـع ونظـم (حلة السيرا في مدح خير الورى)، المعروفة بالبديعـة، أو (بديعـة العميـان)، وأتـى فيهـا بأنواع من البديع، ومطلعها:

بِطَيبَةَ انزِل وَيَمِّم سَيِّدَ الأُمَمِ
وَانشُر لَهُ المَدحَ وَانثُر أَطيَبَ الكَلِمِ

كان أمّةً في النحـو. حتى شغل الطلبة بحلـب، واشـتغل عليـه بهـا غالـب أولاد الحلبيين، وانتفعوا بـه وبصـاحبه في النحـو والأدب، وإليهمـا نُسـب مسـجد طغـرل، الـذي عـرف بمسجد النحـاة في حلب. انتقل ابـن جـابر إلى إلبيرة، فسكنها مـدة قبل أن يتوفى بهـا. لـه مؤلفـات كثيرة، منها: (شـرح ألفيـة ابـن مالـك)، وكتـاب (نسـيم الصـبا). نسب إليه بعض الباحثين اختراع البديعيات بعد أن افتتن بقصيدة البردة، فشغل نفسه بمعارضـتها، ودفعتـه إلى ابتكـار البديعيات[1].

له نظم رائع في أغراض مختلفة، فمن تشوُّقه إلى وطنه قوله:

لله عيشٌ بالمريّة قد ذهبْ
أخباره بالحُسْنِ تُكتب بالذهبْ
وهَبَتْ لنا تلك الليالي مدةً
ثم استردَّ الدهر منّا ما وَهَبْ

وقوله:

ذكر الله بالمريّة عيشاً
لستُ عن ذكرِهِ الجميلِ أحولُ

ومن معانيه الجديدة في الغزل قوله:

١- د. زكي مبارك ود. أحمد فوزي الهيب يؤيدان ريادته في ذلك، وابن معصوم المدني يشكُّ فيمن ابتدعها ابن جابر أم صفي الدين الحلي. وشوقي ضيف، وحامد حفني ودجاود الجرجاني، يرجِّحون تقدّم الحلي على ابن جابر في ذلك.

فقلت: أليس القلبُ عندَكِ حاصلاً

فقالت: قلوبُ الناس كلّهمُ عندي

فقلت: اجعليني من عبيدكِ في الهوى

فقالت: كفاني كم لِحُسْنِيَ من عَبْدِ

إذا شئتَ أن أرضاك عبداً فمُتْ جوًى

ولا تشتكي واصبر على ألَمِ الصَّدِّ

أما في الشكوى من قلة الوفاء وافتقاد الصديق المخلص فقوله:

إنّي سئمتُ من الزمان لطولِ ما

قد صدَّ عن حسن الوفاء رجالَهُ

ومن النوادرِ في زمانك أن ترى

خِلاً حَمِدْتَ ودادَهُ وخلالَهُ

وله أمداح نبوية كثيرة في غاية الإجادة.

وقد رأى بعض الباحثين أن ابن جابر من الذين حاولوا التجديد في الأوزان، من مثل قوله:

يرنُو بطَرفٍ فاترِ

مَهما رَنَا=فهوَ المنى=لا انتهي عن حبِّهِ

يهفو كغصنٍ ناضرِ

حلو الجنَى=يشفي الضنَى=لا صبرَ لي عن قربِهِ

لوْ كانَ يوماً زائري

زالَ العنَا=يحلو لنَا=في الحبِّ أن نسمى بهِ

أنزلتهُ في ناظري

لمَّا دنَا=قدْ سرَّنا=إذا لمْ يَحُلْ عن صبِّهِ

فهذه الأبيات يمكن أن تُقرأ على أربعة أوجه، فهي من الرجز المجزوء، وإذا حذفنا أعجازها صارت من الرجز المشطور، وإذا حذفنا منها (مهما دنا) وما يوازيها من الأسباب صارت من الرجز المنهوك[٢].

أمّا الشعراء فأقدم من دخل حلب منهم بحسب المصادر، أبو بكر محمد بن القاسم، المقلب بفشكنهادة الحجاري. وقد قدم إلى المشرق فجال في العراق، واجتاز بحلب، فأقام فيها، ولم يطب له هذا المقام، فأنشد متشوقاً إلى وطنه، نادماً على مفارقته، قائلاً:

اين أقصى الغرب من أرض حلبْ

أملٌ في الغرب موصول التّعبْ

حنَّ من شوقٍ إلى أوطانهِ

مَنْ جفاه صبره لَمّا اغتربْ

جال في الأرض لجاجاً حائراً

بين شوقٍ وعناءٍ ونَصَبْ

كلُّ مَنْ يلقاه لا يعرفُهُ

مستغيثاً بين عُجْمٍ وعَرَبْ

لَهْفَ نفسي اينَ هاتيك العلا

وا ضياعاه ويا غُبْنَ الحَسَبْ

والذي قد كان ذُخْراً وبِهِ

أرتجي المالَ وإدراكَ الرُّتَبْ

صار لي ابخسَ ما أعددتُهُ

بين قومٍ ما دَرَوْا طعمَ الأدبْ

يا أحبّايَ اسمعوا بعضَ الّذي

يتلقّاه الطّريدُ المغترِبْ

ولتكن زجراً لكم عن غربةٍ

يرجع الرأس لديها كالذَّنَبْ

ولئن قاسيتُ ما قاسيتُهُ

فبما أبصرَ لحظي من عَجَبْ

ولقد أُخْبِرُكُمْ أن التقي

بكمُ حتى تقولوا: قد كَذَبْ

ويبدو أنَّ أحاسيس الشاعر المرهفة، وعدم قدرته على التكيُّف، وشوقه

٢- الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، د. أحمد فوزي الهيب.

المضطرم إلى بلاده، أمور جعلته يرفض الغربة أينما كانت. فعندما اجتاز بدمشق قال أيضاً:

دمشقٌ جنّة الدنيا حقيقاً
ولكنْ ليس تصلح للغريبِ
بها قومٌ لهم عَدَدٌ ومَجْدٌ
وصحبتهم تؤول إلى حُروبِ

وهذا ما يفسر هدوء نفسه، وسعادته البالغة، عندما عاد إلى بلاده، ونزل بدانية ضيفاً على حاكمها مجاهد العامري. يقول:

وكم قد لقيت الجَهْدَ قبل مجاهدٍ
وكم أبصرتْ عيني وكم سَمعتْ اذني
ولاقيتُ من دهري وصرفِ خطوبِهِ
كما جرتِ النُّكباءُ في معطفِ الغُصْنِ
فلا تسألوني عن فراق جهنّمٍ
ولكن سلوني عن دخولي إلى عَدْنِ

لقد سكنت نفسه وهدأت روحه في وطنه الأندلس، رغم ما عُرف عن مجاهد العامري من زهد في الشعر وتضييق على الشعراء، حتى ((أقصر الشعراء لذلك عن مدحه، وخلا الشعر من ذكره))[٢].

ولم تذكر المصادر تاريخ ولادته أو وفاته، ولكنّنا نرجّح أنه قام بهذه الرحلة إلى المشرق بين عامي (٤١٨-٤٢٥هـ) تقريباً، لأنه كما يقول المقري: ((ارتحل إلى المشرق لما نبت به حضرة قرطبة عند تقلُّب دولها، وتحوُّل ملوكها وخولها..))، أي رحل في عهد الفتنة البربرية، هرباً من أهوالها، ينشد الأمن والاستقرار. ولكنه ما لبث أن رأى أن الضرب والطعن اللذين هرب منهما في بلاده أهنأ بكثير من مرارة الغربة وقسوتها، فقال:

واحملوا طعناً وضرباً دائماً
فهو عندي بين قومي كالضَّرَبْ

وعاد إلى بلاده، وأصبح من شعراء بلاط مجاهد العامري حاكم دانية، الذي حكم بين عام (٤٠٠-٤٣٦هـ)، فإذا قدّرنا أنّه رحل قبل انتهاء الفتنة سنة /٤١٨هـ/ وعاد سريعاً لأنه لم يستطب الإقامة، فلا بد أن رحلته من الأندلس إلى العراق ثم دمشق وحلب وطريق عودته يحتاج إلى وقت مناسب، والعودة قد تكون قريبة من عام /٤٢٥هـ/، حين كان مجاهد العامري ما يزال بحكم دانية، وبذلك يكون معاصراً لأبي الوليد الباجي. ولعلّه من الصعب أن نلمس أثره في الحركة الأدبية في حلب، لضآلة الأخبار، وقصر مدة الإقامة، كغيره من الأعلام■



سوق السقطية – حلب

٢- الذخيرة، ٣/١/٢٣.

إصلاح التعليم الديني

من منظور ابن خلدون

عبد الرحمن حللي*

"ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضَيَّقَ عن النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحَمَل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقاً وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحَمِيَّة والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها فارتكس وعاد في أسفل السافلين، وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف".

ابن خلدون

تمهيد:

تبدو قضية التعليم عموماً والديني خصوصاً من أهم عناوين الإصلاح التي طرحت محلياً وعالمياً، لاسيما بعد أحداث العنف التي افتتح بها هذا القرن الجديد، وأصبح تغيير المناهج من الخطط الاستراتيجية للقوى المهيمنة في العالم، وبالخصوص من خلال مشروع (الشرق الأوسط الكبير)، لكن هذا الطرح العالمي للموضوع لا يضيف جديداً غير كشف حقيقة ما يعانيه التعليم في العالم العربي والإسلامي، فالتأمل فيما آل إليه التعليم الديني بالخصوص من نتائج عملية على صعيد الواقع يجعل الحديث عنه يحتل صدر الأولويات، فهو في معظمه إما مغرق في نمطية تاريخية بعيدة عن الواقع شكلاً ومضموناً، أو يؤدي بشكل مباشر أو غير مباشر إلى تطرف فكري أو تسطيح لفظي لا يمس العمق أو عزلة عن حركة الحياة المعاصرة دون فاعلية فيها.

فذكريات الطالب حول مقرر التربية الإسلامية هي الأسوأ بين المقررات الأخرى فهو الأقل أهمية واعتباراً ومدرسوه هم الأقل كفاءة واحتراماً، نظراً لطبيعة العلاقة بين الطالب والأستاذ القائمة على التسلط والأمرية، فضلاً عن المكانة

---

* مدرّس في كلية الشريعة - جامعة دمشق.

الثانوية التي تحتلها المادة بين مختلف المقررات، وذاكرة الطالب عن حصص ذلك المقرر قلما تحمل معلومة بقدر ما تحمل طرفاً يتندر بها الطلاب، فهو مقرر ممتهن رسمياً في معظم الدول العربية، ولا ينتظر والحال هذه أن يتخرج طالب من المدارس وهو يحمل حصانة علمية ضد أي تيار يمكن أن يجرفه إلى ممارسة العنف ضد الآخرين (الإرهاب) باسم الجهاد، أو ضد نفسه (الرهبنة) باسم التصوف.

لذلك يكاد يجمع المعنيون بالتعليم الديني على وجود أزمة فيه، مع اختلاف في طبيعتها وتشخيصها وطرق معالجتها، فإصلاح مناهج التعليم عموماً والديني خصوصاً هو ضرورة ذاتية قبل أن يكون مطلباً عولمياً، وإصلاح التعليم هو واحد من بين ملفات كثيرة فتحت للنقاش في العالم العربي والإسلامي، وصادفت خللاً حقيقياً يستحق المعالجة، ومما أجج الجدل حول الموضوع ما اتخذ من قرارات بهذا الشأن في وزارات التربية في دول عديدة لاسيما في مغرب الوطن العربي وخليجه، فتم تقليص ساعات مقرر التربية الدينية أو إلغاؤها في بعض المراحل أو دمجها بمواد أخرى، أو غيرت مضامينها لاسيما تلك التي تتصل بمفاهيم الجهاد وغيره.

ما يستحق التنبيه في هذا المجال أن رجال الإصلاح كانوا هم أول من تنبه إلى تردي التعليم الديني من جميع نواحيه، وقدموا مشاريع لإصلاحه، نجد ذلك لدى محمد عبده وراغب الطباخ والطاهر بن عاشور وغيرهم، هذا في العصر الحديث أما في العصور الماضية فكان دعاة الاجتهاد يركزون بالخصوص على مراجعة مناهج النظر والبحث الفقهي، وكان ابن خلدون من أبرز من طرح مشكلات التعليم الديني صراحة وصفاً وتشخيصاً، ومقترحات علاج، وراهنية الحديث عن إصلاح التعليم تستدعي استحضار منظور ابن خلدون للموضوع كونه أبرز مفكر في التاريخ الإسلامي عالج القضايا الحضارية من منظور شامل، فقد أعطى للعلم والتعليم الدور الوظيفي الذي يؤديه في العمران، وربط بين التعليم والممارسة، وقدم في مقدمته رؤية حول العلم والتعليم مشخصاً مشكلاته ومقترحاً عناصر للعلاج، وسنعرض رؤيته من خلال ثلاثة عناصر تتناول:

أولاً- التعليم والعمران:

ثانياً- تشخيص مشكلات التعليم في عصره:

ثالثاً- مقترحات ابن خلدون في علاج مشكلات التعليم.

أولاً- التعليم والعمران:

يعتبر ابن خلدون أن تعليم العلم صنعة من جملة الصنائع لا بد لحصولها من ملكة في الإحاطة بمبادئ العلم وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله، وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي الذي يشترك فيه الجميع، ويستدل على ذلك باختلاف الاصطلاحات في العلم، فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم، وإذ لو كان من العلم لكان واحداً عند جميعهم [1].

١- انظر: ابن خلدون، المقدمة، دار القلم- بيروت ط:١١/ ١٩٩٢، ص:٤٣٠

فنظريته تقتضي أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة، فـ"الصنائع إنما تكثر في الأمصار. وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لأنه أمر زائد على المعاش. فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع. ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو"[٢].

فثمة علاقة عضوية بين ازدهار العلوم والعناية بها وبين استمرار العمران وازدهاره واتصال سند التعليم في البلاد. (يستشهد لذلك بحال الأندلس والمشرق)

ويصنف العلوم الواقعة في العمران مقيداً هذا التصنيف بعهده تحصيلاً وتعليماً إلى صنفين: **الأول: صنف طبيعي** للإنسان يهتدي إليه بفكره، هي العلوم الحكمية الفلسفية والتي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر، **والصنف الثاني: نقلي** يأخذه عمن وضعه، وهي العلوم النقلية وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي، ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن، وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه، وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها[٣].

ثانياً ـ تشخيص مشكلات التعليم في عصره:

يحاول ابن خلدون في تحليله لوضع التعليم الديني في عصره التركيز على الأسباب التي تحول دون تحول التعليم إلى ملكة لدى المتعلم بحيث تسهم في العمران، ويمكن تلخيص تلك الأسباب التي يراها أضرت بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته فيما يلي:

أولاً: طول مدة التعليم، ويعزو طولها إلى قلة الجودة في التعليم خاصة، لاسيما وأن تلك المدة التي يقضيها الطالب إنما تتم دون نقاش وحركة فيها، فبعد ذهاب الكثير من أعمار الطلاب في ملازمة المجالس العلمية تجدهم سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون، وبالتالي لا يحصلون ملكة[٤].

ثانياً: الخلط بين الملكة العلمية والحفظ: فالعناية بالحفظ أكثر من الحاجة، وظنهم أن الحفظ هو المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك[٥].

٢- المقدمة، ص:٤٣٤

٣- المقدمة، ص:٤٣٥

٤- المقدمة، ص.٤٣٢

٥- المقدمة، ص:٤٣٢

ثالثاً: كثرة التآليف في العلوم: وذلك لأن كثرة التآليف تشكل عائقاً عن التحصيل، وذلك من زاوية مطالبة الطالب بتحصيلها والوقوف عليها فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور ولابد دون رتبة التحصيل[6].

رابعاً: اختلاف الاصطلاحات في التعاليم وتعدد طرقها، ومطالبة المتعلم باستحضارها[7].

خامساً: كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم: فقد ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ، وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسراً على الفهم. **وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم، ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم،** لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت. ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة لكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التامة[8].

خامساً: تحويل علوم الآلات إلى علوم مقصودة لذاتها: كما فعل المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد وربما يقع فيها لذلك أنظار ومسائل لا حاجة بها في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو وهي أيضا مضرة بالمتعلمين على الإطلاق لأن **المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد؟** فكلما خرجت عن ذلك خرجت في المقصود وصار الاشتغال بها لغوا مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها. وربما يكون ذلك عائقا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع[9].

أمثلة يوردها ابن خلدون لما ذكر[10]:

١- **نموذج الفقه المالكي:** يضرب ابن خلدون لما ذكر مثلاً من الفقه في المذهب المالكي والكتب المدونة فيه وما كتب عليها

٦- المقدمة، ص٥٣١-٥٣٢

٧- المقدمة، ص٥٣١

٨- المقدمة، ص:٥٣٢-٥٣٣

٩- المقدمة، ص:٥٣٧

١٠- المقدمة، ص ٥٣١-٥٣٢

من الشروحات الفقهية الكثيرة، ثم مطالبة المتعلم بتمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا، وهي كلها متكررة والمعنى واحد، والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضي في واحد منها.

ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً، ولكنه -كما يصف ابن خلدون- داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها.

٢- **نموذج اللغة العربية**: ويمثل أيضاً بعلم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك، فكيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر.

فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلا الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة.

ثالثاً ـ مقترحات ابن خلدون في علاج مشكلات التعليم:

ينطلق ابن خلدون في تصوره لعلاج مشكلات التعليم التي تطرق إليها من تصوره لمكانة التعليم في العمران ودوره كصنعة أساسية لا تحققها الطرق السائدة في عصره، لذلك نجده يقترح في هذا المجال ما يمكن تلخيصه في العناصر التالية:

أولاً: التركيز على تحصيل الملكة، وأهم طرق تحصيلها وأيسرها فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها، وقد أشار إلى كون طرق التعليم الممتدة تعتمد على الحفظ والتلقين ويغيب فيها الحوار ويقضي الطالب وقتاً طويلاً وهو ساكن لا يتحرك، ويتخرج وهو لا يجيد الكلام والحوار[١١].

ثانياً: إتباع وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته: يقترح في هذا المجال إتباع ما يلي:

١- التدريج في التعليم شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً، فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجاً وذلك بـ:

- البدء أولاً بمسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب.

- ثم شرحها على سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله.

- ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى

١١- المقدمة، ص٥٣١.

أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته.

- ثم يرجع به وقد شد فلا يترك عويصاً ولا مهماً ولا مغلقاً إلا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات[١٢].

٢- عدم تداخل المسائل ببعضها: فلا ينبغي للمعلم أن يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه المتعلم من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره، لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم[١٣].

٣- تقصير مدة التعليم: فينبغي لك أن لا تُطوِّل على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها.

وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صنعة لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه[١٤].

٤- عدم خلط العلوم ببعضها: فمن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر فيستغلقان معاً ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة. وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصراً عليه فربما كان ذلك أجدر لتحصيله[١٥].

ثالثاً: التوسع في العلوم المقصودة بالذات دون علوم الآلات: كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، وكالطبيعيات والإلهيات من الفلسفة، وذلك بتفريع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار فإن ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة، والاقتصار في العلوم التي هي وسيلة وآلة لغيرها كالعربية والحساب والمنطق فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط، ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل لأن ذلك يخرج بها عن المقصود إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير[١٦].

رابعاً: التحذير من الشدة على المتعلمين لأنها مضرة بهم، لأن الشدة من سوء الملكة، فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدا عليهما في التأديب. يقول ابن خلدون شارحاً أثر الشدة في التعليم وما يورثه في العمران عموماً: "ومن كان مرباه بالعسف والقهر من

١٢- المقدمة، ص:٥٢٣ وما بعدها

١٣- المقدمة، ص:٥٣٤

١٤- المقدمة، ص:٥٣٤

١٥- المقدمة، ص:٥٣٤

١٦- المقدمة، ص:٥٣٦-٥٣٧

المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضَيَّقَ عن النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحَمَل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلّمه المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقاً وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحميَّة والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها فارتكس وعاد في أسفل السافلين، وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف"[17].

الخاتمة:

إن ما أورده ابن خلدون في تشخيصه لقضايا التعليم وما اقترحه من علاج لمشكلاته إنما هو جزء من تصوره لمكانة التعليم في العمران كصنعة أساسية من صنائعه، وكأن ابن خلدون فيما نظره قبل ستة قرون إنما يتحدث عن سنة حضارية ندرك آثارها اليوم، فالعلاقة بين التعليم والتنمية اليوم وما يطرح في هذا المجال ما هي إلا صياغة حديثة لما أورده ابن خلدون حول العلاقة بين التعليم والعمران، وأهم مشكلات التعليم المعاصر تحوُّله من ملكة وصناعة فاعلة إلى تلقين وحفظ وسنوات طويلة تقضى بالدرس والامتحان بغض النظر عن جدواها، ولا يتم تقييم أثرها في العمران والتنمية، وبالخصوص في مجال التعليم الديني الذي لم يكن منفصلاً عن غيره، حيث ما يزال وصف ابن خلدون لأحوال التعليم الديني والمتعلمين في عصره - والذي نجد للمصلحين وصفاً شبيهاً به لأحوال التعليم في القرن العشرين[18] - صالحاً اليوم لاسيما في المعاهد الشرعية التي تخرج حفظة للمتون والمعارف النقلية بغض النظر عن حصول الملكة في التعامل معها وتوظيفها في الحياة، بل وإن المحاورة والجدل الذي اعتبره ابن خلدون هو الذي يفتق الملكة لدى المتعلم يبقى الغائب الأساسي في التعليم اليوم سواء في المدارس أو الجامعات وبجميع الاختصاصات، وما اقترحه ابن خلدون من علاج لهذه الأدواء التي شخصها إنما هي قواعد عامة تمثل سنة حضارية لا تتخلف عبر العصور.

فهل تكون استعادة فكر ابن خلدون بعد ستة قرون على رحيله مؤشراً على بداية جادة للنهوض الحضاري أم تبقى مهرجاناً كسائر المهرجانات الثقافية تفاخر بماضيها وتؤكد عجز التعليم والفكر العربي والإسلامي عن إيجاد شخصية بوزن ابن خلدون■

١٧- المقدمة، ص٥٤٠.

١٨- أورد الشيخ راغب الطباخ مثلاً في كتابه "الثقافة الإسلامية" وصفاً لأوضاع المدارس الشرعية هي أشد سوءاً مما وصفه ابن خلدون، وما قام به الشيخ راغب الطباخ من إصلاح لهذه المدارس في الإدارة والمناهج هو أفضل من حالها اليوم.

حلب

في حياة ومؤلفات ابن عربي

جان جاك ديبون*

ربما يصعب على من لا يعرف ابن عربي تصور العلاقة بين أعماله وحوار الحضارات، فكيف تساهم أعمال هذا الرجل الذي عاش منذ ثمانية قرون في حوار الحضارات في أيامنا هذه الذي يوشك أن يصبح صراعاً مدمراً.

منذ أكثر من خمسين سنة شهدت الدراسات عن ابن عربي تطوراً واضحاً في العالم الغربي (أكثر مما هو في العالم الإسلامي) وهذا دليل على قدرة هذه الأعمال على تأسيس حوار مع الحضارة الغربية. وهناك دليل أخر وهو أن عددا كبيراً من الغربيين سواء في أوربا أو أمريكا قد اعتنقوا الإسلام عن طريق التصوف بشكل عام من خلال قراءاتهم لأعمال ابن عربي في تلك الفترة.

وقد قامت بعض الشخصيات البارزة من فرنسا وأوربا بنشر أعماله في الغرب. نذكر منها:

Michel valsan, Martin lings et f.schon, Michel chodkiewicz.



هذا الأخير قدم نظرية ابن عربي بدراسات وافية مما ساعد على إبراز عمق هذا المحيط بدون شاطئ. ولا شك أن هذه الأعمال قد مثلت ولا تزال تمثل جاذبية قوية للمتعطشين للروحانية في بلدان أصبحت كالصحراء في هذا الميدان.

* باحث ألماني

لما وصل إلى الستين من عمره وبعد أن بقي في الشرق حوالي عشرين سنة استقر ابن عربي في سورية، في دمشق حيث مات ودفن فيها، كما أنه سكن في مدينة حلب حيث حاولت جمع بعض المعلومات حول حياته وأعماله المتعلقة بمدينة حلب.

سوف نستعرض بعض الشخصيات التي التقى بها والنصوص التي كتبها والتجربة الروحانية التي عاشها في حلب.

من المعروف أن الشيخ الأكبر قد أقام فترات متقطعة في حلب ما بين ٦٠٢-٦٣٤ للهجرة ونعرف ذلك من خلال سماعات على بعض المخطوطات، فعلى سبيل المثال قرأ الشيخ الأكبر كتاب مقام القربة، وكتاب الميم أمام ثلاثة عشر من طلابه عام ٦١٧ للهجرة.

و كان لمحي الدين بيت في حلب مما يدل على أن المدينة لم تكن مجرد موقف خلال أسفاره العديدة بل استقر فيها والتقى ببعض العلماء المعاصرين وقرأ بعض أعماله فيها.

وقد ألف في ذات البيت شرحاً لكتابه المشهور ترجمان الأشواق على طلب من مريديه إسماعيل ابن سودكين وبدر الحبشي لأنهما سمعا بعض الفقهاء بمدينة حلب يّنكر أن هذا من الأسرار الإلهية وأن الشيخ يتستر لكونه منسوباً إلى الصلاح والدين. فكتب ذخائر الأعلاق وقرأه بحضرة المؤلف القاضي ابن العديم أمام جمهور من الفقهاء، فلما سمع ذلك المنكر رجع عن إنكاره. وكان سبب الإنكار أن الشيخ الأكبر استعمل في أشعاره الغزل والتشبيب.

في مقدمة كتابه الحاوي على /٦١/ قصيدة فسر أنه يشير فيها إلى معارف ربانية وأنوار إلهية وأسرار روحانية وعلوم عقلية وتنبيهات شرعية ويقول: جعلت العبارة عن ذلك بلسان الغزل والتشبيب لتعشق النفوس بهذه العبارات فتتوفر الدواعي على الإصغاء إليها

وكان السبب الظاهر لكتابة هذه الأبيات لقاء حصل عند الكعبة مع بنت الشيخ أبي شجاع الأصفهاني وأسمها نظام ولكن في الحقيقة كتب هذه الأبيات بعد عشر سنين من هذا اللقاء مما يدل على أنه لا يعبر في أشعاره عن محبة رجل لامرأة بل عن المحبة كمصدر لكل مفهوم ولكل علم وللحياة بشكل عام. إن الإنسان الذي لم يذق معنى المحبة لا يستطيع أن يتعرف على جوهر الحياة والمعرفة.

في الفترة التي عاشها في الغرب الإسلامي ابتعد ابن عربي عن السلاطين والأمراء، أما في الشرق فقد تغير سلوكه وكان يلبي دعوات الملوك سواء كانوا من الأيوبيين أو السلاجقة، فكان له تأثير ملموس على ملك حلب الملك الظاهر غازي. وكانت له كلمة مسموعة عند الملك وكان يستطيع أن يقدم له ١١٨ قضية ويحكمها بجلسة واحدة. حتى أنه استطاع مرة أن يشفع لشخص قد غدر الملك.

كان الشيخ محي الدين يتحدث مع الملك عن مظالم السلطة أو تصرفات بعض الفقهاء وكان الملك يجيب أنه لا يقبل كل هذه المنكرات ولكن عنده فتاوى لكل هذه المسائل، فمثلاً قال أحد الفقهاء بأنه

لا يجب عليه صوم شهر رمضان بعينه بل الواجب شهراً في السنة، والملك يختار الشهر فلعنه الملك في باطنه ولكنه لم يعاقبه.

وهذا يمثل عند الشيخ محي الدين ما يحصل للعلماء عندما يلجؤون إلى مصاحبة الملوك بهدف المناصب والجاه والأغراض الدنيوية، وهذا موجود إلى يومنا هذا ولا تزال هذه الظاهرة سنة البشرية في الكون.

تعرف خلال إقامته في حلب على بعض الفقهاء المشهورين كقاضي حلب بهاء الدين المعروف بابن شداد، والذي عينه الملك الظاهر قاضياً عام ٥٩١ للهجرة.

ذات مرة رأى رؤيا عجيبة وأعطي رقّ عريض جداً على مد البصر من جلد الكبشة وقيل له إنه صداق آهله، وبعد ذلك رأى نفس الكتاب هو عين زوجته ورقد عليه وكان يقرأ ما كتب في هذا الكتاب وكان بخط أحد علماء حلب وهو زين الدين عبد الله ابن الشيخ عبد الرحمن الأسدي المعروف بابن الأستاذ، تلميذ القاضي ابن شداد ثم ابنه بالتبني، وهذا الأخير كان يملي عليه ما هو نصه:

الحمد لله الذي جعل قرآنه وفرقانه وتوارته وإنجيله وزبوره * رقوم هذا الكتاب المكنون وسطوره * وأودعه كل آية في الكتب وسوره * وأظهره في الوجود في أحسن صورة * وجعل أعلامه في العالم العلوي والسفلي مشهورة * وآياته غير متناهية ولا محصورة * وكلماته بكل لسان في كل زمان وغير زمان مذكورة.

ثم أخبر أن اسم زوجته هو مريم وهي كما يشير إليها الشيخ حاملة روح الله ومحل لكلمة الله، مثنى عليها بكلام الله. فهذه الرؤية مليئة بالرموز، فنفهم أن ابن عربي حصل خلال هذه الرؤية على علم عالمي يشمل كل الكتب السماوية.

في رؤية أخرى عندما كان في حلب أيضاً، أعطي صورة الإخلاص وقيل له هي خالصة لك من دون المؤمنين فلما قيل له ذلك فهم الإشارة وعلم أنها ذاته وعين صورته لا غيره. وبتلاوة هذه الصورة رزق عين الفهم في تسميتها بهذا الاسم، فهذه الصورة التي تعبر عن التوحيد كانت جواباً لوثنيي قريش، وكانت أيضاً جواباً لنصارى المدينة ويهودها.

إنّ المسلمين يقدرون هذه الصورة التي تلخص فيما يرى الزمخشري وغيره كل القرآن. مما يدل على أهمية هذه الرؤية وتعطي لابن عربي موقفاً متميزاً للحوار مع اليهود والنصارى والوثنيين، على أثر ما فعله النبي في مكة والمدينة وتجعله مدافعاً عن التوحيد الخالص.

هذه كلها رموز بسيطة بين ابن عربي ومدينة حلب التي مارست جاذبيتها على ابن عربي لأن المدينة كما وصفها ابن العديم قبلة أهل العلم وكعبة أهل الأدب في زمان الملك الظاهر.

كثير من مهاجري الأندلس التجار توجهوا إلى الأيوبيين الذين دافعوا عن الإسلام وبنوا المدارس العديدة كما فعله الملك الظاهر وزوجته ضيفة خاتون يمثلون ذروة مدينة حلب في العصور الوسطى وكانت آنذاك أحد اجمل وانشط مدن الشرق الإسلامي وكانت بلاد الشام كما

قال المؤرخ الفرنسي كاهان قلب الثقافة الإسلامية باللغة العربية.

احتلت هذه المدينة مكانة خاصة لدى الشيخ بالإضافة إلى مدن أخرى مثل مكة وفاس وغرناطة ودمشق.

على الصعيد الرمزي هناك علاقة أخرى بين حلب وابن عربي حيث رأى في رؤيا في شبابه أنه بلغ نوراً عظيماً يمثل صورة الشعراء، جاء به ملاك من الملائكة وشعر كأن شعرة في جوفه ثم تقيأ الشعرة التي ما لبثت أن تحولت إلى كائن ابتعد في الأفق ثم عاد إليه من جديد وبذلك عرف ابن عربي أن كلامه سيصل إلى الأفقين: أفق الغرب وأفق الشرق.

وذكر أكثر من مرة في مؤلفاته بأن شعرة من النبي كانت في جسده، وهي ترمز إلى منصبه كخاتم للولاية المحمدية، ففيما أعرفه أن مدينة حلب تحتوي كذلك على الأقل شعرتين محمدتين. وهي علاقة زائدة بين المدينة والشيخ الأكبر.

أشرنا في البداية إلى تأثير ابن عربي في الغرب ولكن ما هي رسالة هذه الأعمال؟

إنها تؤدي إلى التسامح واستقبال الآخر في مختلف معتقداته، لأن الشيخ الأكبر يؤكد أن الله هو المعبود في كل معبود، ولو جهل ذلك الإنسان وعبد غير الله لا يمكنه من عبادة إله واحد لأن لله وجهاً في كل معبود.

إن مفهوم العالم هذا المعروف بعقيدة وحدة الوجود والتي أنكرها الكثيرون من المسلمين دون أن يحاولوا فهما تمثله هذه العقيدة، هذا المفهوم لا يدعو إلى اختلاط الأديان بل إلى تمسك كل شخص بشريعة دينه، وليس إذاً المقصود محو الاختلافات والمميزات بين الأديان بل المقصود التعارف المتبادل.

فنادراً ما دعا رجل إلى طلب العلم مثلما دعا إليه ابن عربي إذ يرى في كل تجربة وفي كل لقاء وفي كل فعل أو عمل علم لأنه يجد في كل شيء الحضارة الإلهية.

"و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه" فابن عربي يقرأ هذه الآية قراءة سطحية ولكنها عميقة. إذ لا يفهمها بلغة الفرض إنما يرى فيها أن كل النشاطات الإنسانية لها هدف واحد ووحيد وهو عبادة الله.

إلا أن ابن عربي كان شخصية مزعجة ولاقى إنكار المنكرين على قدر مدح المادحين، فكادت أعماله أن تمنع في مصر منذ سنوات قليلة.

و كان ابن خلدون يفتي بحرق كتبه أو إخفاء سطورها بالماء لإتلافها كيلا تضل قارئيها.

إن ابن عربي مفكر مستقل، وتشهد أعماله على تجارب روحانية نادرة تحير القارئ في كثير من الأوقات، ولذلك ليست في متناول كل واحد وإنما هذه الأعمال مصدر إلهام لكثير من الفقهاء والعلماء والباحثين عن الأبعاد الروحانية في الشرق وفي الغرب، إنها رغم المنكرين مشرب صاف لأجيال تبحث في حياتها عن روح الإنسانية وحقيقتها ■

حوار عملي

بين حضارتي حلب و اليابان

أتسوشي اوكيدا*

إن العصر الذي نعيش فيه يجتاحه الصدام الحضاري وما تفرزه العولمة الحديثة، وهدفهما المشترك هو سيطرة الأقوياء القليلين على الضعفاء الكثيرين بالطريقة الأشدّ سوءاً على المستوى العالمي. فوضع الضعفاء أمام اختيار شيئين، فعند الصدام الحضاري كان اختيار الضعفاء هو بين الموت تحت الهجومات الإرهابية لحكومات الأقوياء وبين الموت على حساب حرية الأقوياء وديموقراطيتهم في حين أن الاختيار عند العولمة الحديثة هو بين الموت جوعاً وبين الموت ذبحاً، لأن العولمة الحديثة تجعل الضعفاء أنعاماً للأقوياء بحيث يصبح الأقوياء أسوأ من الأنعام، قال تعالى: **﴿أرايت من اتخذ إلهه هواه افانت تكون عليه وكيلا، ام تحسب أن اكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾** [الفرقان ٤٤-٤٣]، إذاً على كل حال فإن ما ينتظر هذا العصر من هؤلاء الأقوياء هو الموت على كل الأحوال والعياذ بالله.

في اليابان حالياً يدرس نوع غريب من الرقص في المدارس الابتدائية الحكومية ضمن مادة الرياضة، فإنني أتمنى أن لا يكون تدريب الرقص هذا تدريباً لرقص دجاجي عند الذبح، كما قال الشاعر:

لا تحسبوا رقصتي ما بينكم طرباً

قد يرقص الطير مذبوحاً من الألم

لا يمكن لأحد أن يهرب من الموت، فهو قدر الله والله الوحيد الذي يقرر الموت، فلا يجوز أن يجبر أي واحد من بني آدم على الموت، وكما ليس لأحد الحق في أن يقرر إنهاء حياته، وهذا ما يجب أن يكون هو المعنى الصحيح لكلمة الحرية.

و لكن ماذا يحصل الآن؟؟ يجوز للأقوياء أن يجبروا الضعفاء على الموت وذلك من أجل حصولهم على حريتهم الخاصة وديموقراطيتهم الخاصة ومصلحتهم الحيوانية الخاصة، وهذا هو القانون الرئيسي في هذا العصر وهم لا يفهمون معنى الآية **﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾** [المائدة ٣٢] فلذلك في هذه الظروف لا بد بأن نشعر بأن حوار الحضارات بات أمراً عسيراً ولكن مع ذلك

---

* بروفيسور كلية إدارة سياسية ،جامعة كيزو اليابانية، نائب رئيس المركز الياباني للتعاون الأكاديمي بجامعة حلب

لا يجوز لنا أن نجيز استخدام القوة والإكراه فما يحقق حوار الحضارات هو الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة فقط، فكأن العصر الذي نعيش فيه هو الجاهلية الجديدة.

كما أشرت في كثير من المرات إلى أنّ كل إنسان يعيش ثمانية مقاييس، منها سبعة محدودة ومنها مقياس واحد بلا حدود، إذاً ما هي المقاييس السبعة المحدودة؟ أولها مقياس بضع سنوات وهو المقياس للفرد والثاني مقياس عشرات السنين وهو مقياس للعائلة والمجتمع المحلي، والثالث مقياس مئات السنين وهو المقياس للدولة، والرابع مقياس آلاف السنين وهذا المقياس للحضارة والثقافة، والخامس مقياس مئة ألف سنة وهذا المقياس للبشر كافة، والسادس مقياس ثلاث مئة وثمانين ألف سنة وهذا المقياس للكائن الحي، والسابع هو المقياس منذ الانفجار العظيم للكون وهذا المقياس للكائن المادي.

و إذا قارنا الأول مع الثاني فنجد الثاني أكثر إنسانية من الأول، كذلك نجد أن الثالث أكثر إنسانية من الثاني، فالرابع اكثر من الثالث، وبالتالي السابع الذي يقيس للكائن المادي هو الأعلى إنسانية، أليس هذا صحيحاً؟ كلا، إذا وقفنا على السابع فهذا يعني كوننا ماديين وعلمانيين فقط،.

فنحن إذاً نحتاج إلى مقياس آخر، ويجب أن يكون هذا المقياس هو الثامن وهو أبلغ من السابع الذي طوله منذ الانفجار العظيم للكون حتى نهاية الحياة الدنيا، فلا بد لهذا المقياس من أن يمتد حتى خارج فضاء الكون، زماناً ومكاناً أو حتى فوق عالم المخلوقات.هذا المقياس ليس له حدود ولا بداية ولا نهاية، وكل فرد من البشر يعيش هذا المقياس الثامن اللانهائي، بالإضافة إلى السبعة المحدودة، سواء كان يعرفه أم لا يعرفه، وقال أحد الحكماء: ما وسعك الكون من حيث روحك إنما وسعك من حيث جسمك. فإذا بقي الإنسان مع المقاييس السبعة فهو صغير لكن إذا خرج إلى المقياس الثامن صار أكبر من الكون، فالذي يعيش مع المقاييس السبعة هو داخل الكون والكون يحمله، أما صاحب المقياس الثامن الأخروي مع المقاييس السبعة الدنيوية فهو يحمل الكون والكون داخله وقال الله تعالى: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ [البقرة ٢٠١].

و لعل الذين ينظرون إلى مجرد المقاييس الدنيوية السبعة يرفضون هذه الفكرة ولذلك فإنني أريد أن أسأل كلاً منهم: هل ولدت أنت بإرادتك وقدرتك مثلاً كياباني عند والديك في اليوم المعين والمكان المعين؟ وهل أيضاً بإرادتك وقدرتك ولدت إنساناً، وليس عنكبوتاً ولا زيتوناً ولا جبلاً؟ إذاً لا بد من وجود الشيء الذي يتجاوز إرادتك وقدرتك. وهذا الشيء واضح في قلوب كل البشر. ويرشدنا دين الإنسانية والتوحيد إلى ما يتعلق بحقيقة الروح. قال تعالى: ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾ [السجدة ٩] والروح من الله تعالى، وهو أصل الإنسانية.

فننتقل الآن إلى موضوع الحوار الحضاري والتبادل الثقافي. إن الحضارات والثقافات هي نتاج المقياس الرابع، وقياسه آلاف السنين. كما شهد التاريخ البشري، إن هناك عدداً من الحضارات والثقافات في مستوى المقياس الرابع. وكما درّسنا التاريخ، فلكل حضارة بداية ونهاية، ويقول ابن خلدون إن كل الحضارات لها

مراحل معينة من بدايتها إلى سقوطها، ويصرح الفيلسوف الألماني، " نيتشه " بموت إلهم (يعني الأنظمة الكنائسية في العصور الوسطى الأوربية).ليس الحوار الحضاري والتبادل الثقافي مسابقة الأفضلية والأجمل بينها في إطار المقياس الرابع، ولذلك ليس اليابانيون فقط سيارات وقطعات تبديلها ومسجلات وحواسيب، ولا يعني التبادل الثقافي بين حلب واليابان أن يصبح الياباني حلبياً أو يصبح الحلبي يابانيا! و بالإضافة إلى ذلك لا يجوز أن يستخدم الحوار والتبادل كفرصة تتيح فتح مجالات سيطرة حضارات الأقوياء على الضعفاء؟

و يجب أن لا ننسى أن لدينا المقياس الثامن حتى أثناء الحوار الحضاري والتبادل الثقافي، بل يجب أن نميز المحاور الروحية المشتركة بيننا أثناء نشاطاتنا. ففي هذه الحالة أعتقد أن يسأل الناس عن الروح، قال تعالى:" ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا"(الإسراء ٨٥) فالروح امر غير مناسب للدراسة النظرية، وقد كان مستحيلاً أن نحيط بنظرياتنا شيئاً غير محدود بالزمان والمكان. فلعلنا نؤكد وجود روحنا من خلال نشاطاتنا العلمية فقط.و بذلك لا بد أن يكون الحوار الحضاري والتبادل الثقافي عملياً، لا نظرياً. فارغب أن تكون نشاطات التبادل الثقافي بين حلب واليابان عملية، وذلك هو الأساس العلمي للنشاطات التي تقام بين جامعة حلب وجامعة "كيؤو" عن طريق المركز الياباني للتعاون الأكاديمي بجامعة حلب وحرم " شونان فوجيساوا " بجامعة " كيؤو " اليابانية.

يا مدينة حلب الشهباء، عاصمة الثقافة الإسلامية، إنك لست عاصمة للثقافة الإسلامية على المقياس الرابع فقط. بل على المقياس الثامن أيضاً، كما أشار تاريخك الحضاري. ولكن حالياً ألم ترقصي قليلاً؟ ما أعرفه من بنيك الكثير من الذين يحتاجون إلى قيمة الأدوية أو الأغذية رغم وجود أموالك التي تجب فيها الزكاة وبعض النشاطات المحدودة لتوزيعها.

و ما أعرفه أن لديك المنطقة التي يرفض اثنان من ثلاثة سائقي سيارات الاجرة الذهاب إليها، واسمها الفردوس، وعلى شارعها الرئيسي كثير من الحفر وأكوام القمامات المتروكة ومياه وسخة آسنة... ولكن مع ذلك ما اعرفه أن في رحابك كانت ولادة شيخ يقول:" الصلاة صورة كاملة تمثل الحياة الاجتماعية الصحيحة من جوانب كثيرة."

ويقول من أهمها أن يختار الإمام لعلمه وتقواه، لا لحسبه أو نسبه، أو جنسيته، أو لونه... وهكذا اختيار الخليفة والحكام، والناس وراء صفوف مستقيمة بأبعاد واحدة، وهكذا يحب الإسلام النظام، ويكره الفوضى ".

و يقول أيضاً: الناس وراء الإمام متساوون، لا تمييز بين غني أو فقير ولا بين زعيم أو ضعيف، ، وهكذا الناس في المجتمع الإسلامي أمام الحق سواء ".

و يقول أيضاً عن الزكاة:" لها أحكام متعددة، منها مساعدة الفقراء، ومعونة ذوي الحاجات وذلك مما يوطد دعائم المحبة والمودة بين الفقراء والأغنياء، وينزع من القلوب الحسد والحقد، ومنها تقليل الجرائم بزوال أسبابها من الفقر والفاقة وتحسين حالة الفقراء الصحية وسد حاجة المعوزين، الذين لا يجدون ما ينفقون، فإن الزكاة تغني هؤلاء جميعاً.

يا مدينة حلب، ما أعرفه أنك

استقبلت عودة هذا الشيخ وجعلته في صدارة الفتوى عندك.

و ما أعرفه أنك استقبلت في رحابك الأستاذ العالم والرجل الصالح الذي يقول بأن حقوق الإنسان في الإسلام هي لكل البشر سواء أكان مؤمناً أو ظالماً أو كافراً بغض النظر عن اختلاف الجنسيات أو العرقيات أو الطبقات أو الأديان وإن حقوق الإنسان في الإسلام هي أوسع واشمل بكثير من حقوق الإنسان عند الغرب.و يقول دائماً: إن المسلم قلبه طيب وقوله طيب وفعله طيب ويمشي على الصراط المستقيم في الدنيا وهي مكان الحياة الصغيرة، وأنه يطبق ما بهذا القول عندما ندخل منزله نجد أمامنا الأكياس الغذائية من الرز والسكر والشاي وغير ذلك والتي تنتظر دورها للذهاب إلى الفقراء والمساكين.

وما أعرفه أن كثيرا من أهل العلم الذين يجيبونني وطلابي عن كل ما نسألهم إياه من دون أي مقابل. وما أعرفه أن عندك كثيراً من الفتيات والشباب الذين لهم مشاركات في نشاطات خيرية من خلال نشاطات المؤسسات الخيرية، وأخيراً ما أعرفه أن عندك الطبيب المجتهد الذي يقول إن حالة الشارع الرئيسي في الفردوس هي نتاج حال المسلمين وإن الحفر الكثيرة في هذا الشارع ما هي إلا مظاهر حفر قلوبهم وأنفسهم، فليس ذلك من فقر أو ضعف ولا من تقصير في الخدمات الحكومية، فلو اشتغلوا بإصلاح أحوالهم وأخلاقهم لما بقيت حفرة ولا قمامة ولا عيب في الشارع، وهذا الطبيب أعرفه دائماً يساعد الفقراء تارة بخدمات صحية وتارة بخدمات اجتماعية ودينية.

يا مدينة حلب الشهباء، عاصمة الثقافة الإسلامية. ما أعرفه أن عندك كل شيء، عندك مشكلات كثيرة وعندك أمل مشرق.

أريد منك أن تكوني قديماً وحديثا بشكل دائم متطورة إنسانية، لقد واجهت من خلال الألف سنة الأخيرة الصليبيين فالمغول فالاستعماريين والآن أنك متوجهة إلى الصدام الحضاري والعولمة الحديثة.

أرجوك أن لا ترقصي كثيراً.

أرجوك أن لا ترضي بمجرد النور المادي والوهمي.

و ما أعرفه أن في آفاقك النور الذي يضيء على كل زوايا ظلال الأضواء المادية.

وما أعرفه أن هذا النور ما يزال تحت مزارعك، قال الطبيب إن المهم هو الذي يكون تحت الأرض دائماً كبذور النباتات. وقال الأستاذ: لا توجد فائدة من بذور على سطح الأرض وإن كانت ظاهرة أمام الناس فمن اللازم أنها تزرع وتغطى بالتراب. قال تعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ [الواقعة ٦٤-٦٣]. وقال تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ [إبراهيم ٢٤].

إنني أرغب أن يكون المركز الياباني عندك مكاناً فيه نزرع ببذل كل جهودنا من أجل ظهور براعم الأشجار الطيبة بإذن الله.

يا مدينة حلب الشهباء، عاصمة الثقافة الإسلامية، إنني شاهدت عندك صوراً صحيحة لدين الإسلام وأنت التي شجعتني على دراسة العلوم الدينية والإنسانية عندك، وإنك دائماً معي بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، وأعجبتني كثيراً فأسلمت، وحتى الآن أنت تسمحين لي أن أعمل معك في المجال العلمي مع أهل العلم عندك، ولكل ذلك إني فخور بك وعاجز عن شكرك، والحمد لله رب العالمين■

ماويـة

ملكة عربية من القرن الرابع الميلادي

نقولا زيادة*

تاريخ عريق عاشته بلاد الشام وأدوار مهمة ومؤثرة قامت بها، من بينها ذلك العهد الذي اعتلت فيه (ماوية) عرش البلاد.



تشغل بلاد الشام المنطقة الممتدة من جبال طوروس شمالا إلى صحراء سيناء جنوبا ومن شواطئ البحر المتوسط غربا حتى تخوم الصحراء السورية شرقا. وهي رقعة تتوع سطحها بين سهول ساحلية وداخلية تزينها وتحرسها سلسلتا جبال تتجهان من الشمال إلى الجنوب، تكاد الغربية منهما أن تكون متكاملة فيما تتقطع الشرقية كتلا. ويلي ذلك إلى الشرق بادية تختلف أجزاؤها بين الصحراء الجماد وبين بقع فيها للزرع مكان.

وبلاد الشام غنية: فسهولها وسفوح جبالها تنتج من الحبوب والخضراوات والفواكه والأزهار أنواعا متعددة، كما أن أصناف الحيوانات تعيش في أرجائها، والغابات التي كانت (في القديم) تكسو الجبال كانت تزود المنطقة بالأخشاب الجيدة التي كانت تستعمل في بناء المعابد والسفن. وكان في جبالها قليل من الحديد وسواه من المعادن. فضلا عن ذلك فإن بلاد الشام تكوّن جسرا بين المتوسط في الجهة الواحدة والبحر الأحمر والخليج العربي في الجهة الأخرى.

---

* شيخ المؤرخين العرب المعاصرين، توفي عام ٢٠٠٦.

وبسبب هذه المميزات والثروات الطبيعية كانت مطمع الدول القوية الشرقية التي قامت شرقها (من الأكديين حتى الفرس القدامى) وإلى جنوبها (مصر) وإلى شمالها (الحيثيين وسواهم).

لكن بعد أن احتلها الاسكندر، واحتل ما يقع إلى شرقها في القرن الرابع قبل الميلاد، ولما قامت فيها دولة السلوقيين (وهي واحدة من الدول التي انتهت إليها دولة الإسكندر) وقامت إلى الشرق منها دولة الفرثيين (أو البارثيين) أصبح القتال حولها سجالاً. ولما احتل الرومان بلاد الشام في القرن الأول قبل الميلاد، أصبحت أجزاؤها الشرقية، والصحراوي منها على الخصوص، ميدان قتال بين الحكام الجدد والدولة الفرثية القديمة. وفي سنة ٢٢٦م قامت الدولة الساسانية على أنقاض الفرثية، وعادت الخصومات إلى سابق عهدها. وورثت بيزنطة الرومان أرضا وحروبا مع الساسانين (عن الرومان).

هذا الوضع التجاذبي حول بلاد الشام بين الشرقيين والغربيين الذي امتد نحو سبعة قرون (من ٦٣ق.م. إلى ٦٣٦م - معركة اليرموك) أنتج بطبيعة الحال زعامات داخلية كما خلف زعامات كانت قاعدتها البادية السورية.

ونود هنا أن نلفت إلى أن النساء لعبن دورا في حروب البادية السورية هذه. أشهرهن زنوبيا (القرن الثالث الميلادي) التي كانت عاصمتها تدمر مدينة كبيرة ذات أسواق ومعابد وقصور فشهرت زنوبيا بشهرتها، ولذلك ذاع صيتها وقدرتها وبطولتها.

واليوم نحن معنيون بملكة عربية أخرى هي ماوية، زعيمة القرن الرابع الميلادي، والتي حاربت البيزنطيين وكسرتهم، كما كان نصيب سابقتها زنوبيا، آملين أن نتمكن من إيلائها حقها في المكانة والمنزلة وتوضيح دورها في القيادة السلمية والحربية.

بيزنطة وارث الرومان

كانت الإمبراطورية البيزنطية وريثة الإمبراطورية الرومانية في جزئها الشرقي، الذي يشمل بلاد اليونان وآسيا الصغرى والمشرق العربي ومصر. وكان الإمبراطور الروماني قد أصبح الحاكم المطلق والسيد الوحيد للإمبراطورية منذ القرن الثاني للميلاد. وفي القرن الثالث مرت بهذه الإمبراطورية اضطرابات وحروب داخلية أدت إلى أن يصبح الجيش هو الذي يختار الإمبراطور ويكون عادة قائدا للفرقة أو الفرق الأقوى في هذا الجيش المنتشر في حدود الإمبراطورية أو في مراكز النفوذ فيها. فضلا عن ذلك فقد اضطربت الأحوال الاقتصادية في أنحاء البلاد.

ولما تولى ديوقلتيان شئون الإمبراطورية الرومانية ٢٨٤-٣٠٥م تمكن من السيطرة على السلطة إلى درجة كبيرة، وقام بإصلاحات اقتصادية أوقفت التدهور. ثم إنه أضاف ميزوبوتاميا (بين النهرين) إلى دولته، وأنشأ خطوط دفاع قوية في شرق الإمبراطورية، في منطقة خطرة، امتدت من العقبة على البحر الأحمر إلى قرقيسيا على الفرات. وكل هذا زاد من سلطان الحاكم العام - الإمبراطور.

والمنطقة التي نطلق عليه اسم

المشرق العربي اليوم كانت تعرف منذ أواخر القرن الثاني باسم (الشرق) (Orient)، كان الشرق يشمل المنطقة الممتدة من ميزوبوتاميا (أي بلاد بين النهرين) ومشتملة على بلاد الشام وسيناء. فهي، بحسب التعريف الحالي للدول والوحدات القائمة فيها الآن تشمل شمال العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن والجزء الشمالي من مصر (صحراء سيناء بخاصة). فضلا عن ذلك فإن منطقة دياربكر (آمد قديما)، وهي اليوم جزء من تركيا، كانت تدخل في إطار (الشرق).

كانت المناطق الشرقية من هذه الرقعة الواسعة هي الأكثر إزعاجا بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية. ذلك أن الدولة الساسانية (الفارسية الحديثة) التي قامت سنة ٢٢٦م، وكانت من ثم في أوج نشاطها وقوتها، كانت الجارة العدوة للبيزنطيين، فهي تزاحمهم على أرض الرافدين وطرق التجارة الشرقية. وقد كان أباطرة روما من قبل، كما أصبح أباطرة بيزنطة فيما بعد، تشغلهم مشكلة الدفاع عن حدود الشرق



والاستيلاء على المكان نفسه والسيطرة على الطرق التجارية.

وإذا تذكرنا أن المنطقة الممتدة من الفرات إلى العقبة هي منطقة سهوب تجاورها صحار، وإن سكان هاتين المنطقتين هم جماعات عربية بدوية متنقلة أو حضرية مستقرة في بقاع متباعدة في هذه الرقعة، أدركنا الصعوبة التي كان يلقاها أولو الأمر في سبيل المحافظة على نوع من الأمن في تلك الديار.

هذه الجماعات العربية أطلقت عليها أسماء مختلفة ومن ثم ضاع اسمها عامة في الفترة التي نتحدث عنها. فقد استعملت، على مر تلك القرون، تسميات متعددة: أولا: الساميون والآراميون والسوريون، ثانيا: أسماء الولايات التي قسمت البلاد إليها عبر الفترة الرومانية الطويلة (٦٣ق.م-٣١٢م)، ثالثا: الأسماء الجغرافية التي تعود إلى الجغرافيين الكلاسيكيين وهي العرب والسراسين (الشرقيون) واسكنتاي أي سكان الخيام.

إلا أن المهم هو أن الناحية الإثنية لهذه الجماعات، التي كانت تسكن المنطقة المعروفة بالشرق كانت عربية، وحافظت على هويتها العربية.

إن المنطقة التي تهمنا بالنسبة إلى (ماوية) هي تلك الممتدة من فينيقيا اللبنانية (الجبلية) عبر الولاية العربية وفلسطين الثالثة إلى سيناء. وهذه المنطقة تخترقها، من البحر الأحمر إلى الفرات، الحدود الرومانية التي أقامها ديوقلتيان (٢٨٤-٣٠٥م) من البحر الأحمر إلى الفرات عبر المنطقة التي هي الآن موضع اهتمامنا. ونود أن نؤكد أن (الحد الروماني) هذا

كانت فيه أبراج وحصون وقلاع، فضلا عن طريق يجاري ذلك كله، وذلك لدفع أذى أبناء الصحراء عن الإمبراطورية.

ولنذكر أنفسنا بأن القبائل العربية التي كان يشملها جميعا من قبل تعبير (السراسين)، أصبحت في القرن الرابع يشار إليها بأسمائها، ولو أن ذلك لم يشمل جميع القبائل.

عندنا الصفويون الذين كانوا يجوبون المنطقة الممتدة من جنوب شرق دمشق إلى تدمر والفرات أي البادية السورية. ولكن تركزهم كان في منحدرات جبل العرب إلى الشرق.

وهناك اللخميون الذين استقروا في المنطقة وكان من ملوكهم امرؤ القيس الذي نقش على قبره (نقش النمارة). والنمارة تقع إلى الجنوب الشرقي من دمشق. هذا النقش يشير إلى (امرؤ القيس ملك كل العرب). ومن الطبيعي ألا ننتظر أنه كان في الواقع ملك كل العرب المقيمين في المنطقة والظاعنين في آرجائها، بل أنه يشير إلى عدد من القبائل التي كان يحكم كلا منها واحد من أبنائه. والنقش مؤرخ سنة ٣٢٨م، وهي سنة وفاته، ويشير النقش إلى حروبه وتوسعاته بين حوران والفرات.

إلى هذا الملك وبعض المعروفين بالاسم هناك ملك ثالث لا نعرف اسمه، هو زوج الملكة ماوية التي خلفته على العرش عند وفاته حول سنة ٣٧٥م، والذي يمكن أن يكون قد حكم نحو عشرين سنة. وكان مرتبطا بالقرابة إلى اللخميين أو التنوخيين الذين حكمهم.

وقد يكون ثمة (ملوك عرب) آخرون لم يكشف عنهم بعد. على أن (الملوك) كانوا أصحاب سلطة على جماعات وقبائل قوية، لكن في القبائل الأصغر كان صاحب الأمر فيها يسمى شيخا (Pholyarch).

وهؤلاء الملوك والشيوخ كانوا جميعهم معاهدين للإمبراطور البيزنطي. أي أنهم ارتبطوا معه بمعاهدة، للقيام بواجبات معينة لقاء بدل مالي ولم يكونوا يتلقون جراية، على نحو ما كان عليه الأمر أيام الإمبراطوريةالرومانية، إذ كانت الجراية، أي المكافأة العينية تغلب على العلاقات بين الإمبراطور وزعماء القبائل الذين كانوا يسمون الأعوان.

ولنشر هنا إلى بضعة أمور تتعلق بهؤلاء المعاهدين، والملوك خاصة، إذ إن فيها فائدة لتوضيح دور (ماوية) الكبير في علاقتها مع الدولة البيزنطية.

١- تظل المعاهدة سارية المفعول مادام المتعاقدان الأصليان على قيد الحياة. فإذا توفي أحدهما انتهى العمل بالمعاهدة، واقتضى تجديدها.

٢- لأن المعاهدين من الملوك كانوا متعددين، ولم تكن هناك سلطة واحدة للعرب أجمعين، فقد تنوعت المعاهدات واختلفت بنودها لكن ليس ثمة تفاصيل توضح ذلك.

٣- لم يكن المعاهدون رعايا الدولة البيزنطية، ولو أنهم قد يقيمون داخل حدود الدولة (مثل امرئ القيس صاحب نقش النمارة) وجماعة الملكة ماوية.

كان المتوجب على المعاهدين أن يقاتلوا إلى جانب الإمبراطور ضد الدولة الساسانية وأن يقوموا بحراسة الحدود

وحماية النظام القائم ضد جيوب البدو المتنقلين والمقيمين من العرب، وبذلك كانوا يعتبرون جزءا من جيش (الشرق). وكانوا يتلقون بدلا نقديا لقاء هذه الخدمات.

كانت المسيحية في القرون الأولى قد انتشرت في المدن، لكنها ظلت بعيدة عن الريف، كما كانت القبائل العربية حتى أبعد من الريف بالنسبة للدين الجديد. لكن في القرن الرابع أخذت المسيحية تنتشر بين القبائل العربية. ويعزو الباحثون ذلك إلى انتشار النساك والرهبان بين هذه القبائل. وإلى التواصل التجاري بين المدن والحضر، وإلى الرغبة في الحصول على امتيازات خاصة من الدولة البيزنطية التي اعتنق أول إمبراطور فيها المسيحية في مطلع القرن.

الثورة ضد الظلم

كانت ماوية عربية أصلا وكان زوجها ملكا على مجموعة من العرب لعلها كانت اتحاداً لخميًا - تنوخيا قويا؛ (على نحو ما كان عليه امرؤ القيس (ملك كل العرب) المتوفى سنة ٣٢٨م) ولما توفي تولت ماوية زعامة هذا الاتحاد، ويبدو أن ماوية كانت (ملكة) في حياة زوجها، وإلا ما كانت لتحصل على هذا اللقب من الإمبراطور البيزنطي لأن المعاهدة المعقودة بين الملك (المجهول) والإمبراطور كانت قد انفصمت عراها بوفاة الأول. ولم تجدد المعاهدة بعد ذلك. إذ إن ماوية اغتنمت الفرصة وثارت على الإمبراطور فالنس، ومن ثم فقد اعتبرت عملها ثورة ضد ظلم ولم تكن عصيانا لمعاهد ضد الإمبراطور وهذا هو السبب في عدم إقدامها على تجديد المعاهدة.

كان أسقف العرب ثيوتميوس قد توفي في وقت قريب من - إن لم يكن متزامنا تماما مع - موت الملك المجهول (زوج ماوية). وكان فالنس قد أقصى عددا من أساقفة العرب الذين كانوا من أتباع الأرثوذكسية ونفاهم إلى فلسطين الأولى والولاية العربية ومصر، وعيّن مكانهم أساقفة أريوسيين من أتباعه.

واتخذت الثورة والحرب التي شنتها ماوية في الفترة الواقعة بين ٣٧٥ و٣٧٨م، شكلين مختلفين من القتال. كان الأول على ما يسميه العرب (غزاةً) أي الهجوم السريع على بلدات أو مدن قد تكون حتى محصنة، ولعل القصد منها كان الكسب أو النهب. إلا أننا نرى من دراساتنا لمثل هذه العمليات بين أهل البادية والمدن، طيلة الفترة اليونانية والرومانية، أن القصد قد يكون إثارة الأماكن الهادئة لدعم الثورة. ونرى أن ماوية كانت في هذه الهجمات تثير الأنظار إلى سبب هذه الهجمات وموقف الإمبراطور الأريوسي من المذهب الأرثوذكسي، ونحن واثقون من أن ماوية كانت تدخل في تكتيكها هذا النوع من لفت النظر، إذ إن الغزوات هذه لا يذكر المؤرخون أنها كانت تفيد ماوية كثيرا فيما يتعلق بالأسلاب.

وعلى كل فبعد هذه الغزوات التي لا نعرف مداها تماما انسحبت ماوية إلى ما وراء الحدود. ونحسب أن هذا كان للاستعداد للحملة الكبيرة التي شنتها ضد الرومان والتي انتصرت فيها.

وهذه الحملة أرّخ لها كثيرون من أهل القرنين الرابع والخامس الميلاديين (وفيما

بعد). والطريف في الأمر هو أن المؤرخين الكنائسيين كانوا أكثر اهتماما بها من المؤرخين العاديين أو حتى العسكريين، وهذا فيه دلالة على أن القوم رأوا فيها صراعا بين فئتين من أتباع الكنيسة المسيحية، وأن ماوية كانت تتزعم الفريق الواحد وفالنس كان على رأس الفريق الآخر. ويجدر بنا أن نشير إلى أمر حري بالاهتمام. فإذا كان الأمر بلغ درجة الثورة والقتال، فمعنى ذلك أن الشرخ بين الفريقين كان قويا وعميقا.

لم يستطع دارسو الكتّاب المعاصرين للثورة ولا اللاحقين من التأكد من أمرين: الأول زمن وقوع الحرب - ثورة ومعركة رئيسية - على وجه الدقة. ومن هنا فإننا نؤكد، للتذكير، أن المعركة وقعت بين سنتي ٣٧٥ و٣٧٨. والأمر الآخر هو موقع المعركة الرئيسية تماما. لذلك يحتم علينا أن نفيد من النتائج التي توصل إليها الباحثون، فالآراء التي يمكن عرضها في هذه العجالة تدعونا إلى النظر في أمور عدة، يمكن إجمالها فيما يلي:

١- إن ماوية سلطت ضربتها ضد الجزء الأقل تحصينا في الشرق، وقد كان هذا يشمل فينيقيا اللبنانية وفلسطين الثالثة والطريق إلى مصر عبر السلّم العربي الواقع شرقي الدلتا والمرتبط بفلسطين الثالثة من جهة الغرب. فضلا عن ضعف التحصين والحماية في هذه المنطقة الواسعة، فإن جزأين منها كان فيهما عنصر عربي قوي: الأول فينيقيا اللبنانية. التي لجأ إليها عدد كبير من أهل تدمر بعد تدميرها على يد الإمبراطور الروماني أورليان سنة ٢٧٣، والثاني في شرق الدلتا وسيناء والجزء المصاقب لهذه من فلسطين الثالثة. فضلا عن ذلك فإن المقاومة في هذه النقطة كانت ضعيفة.

٢- اختراق الحدود للوصول إلى أرض المعركة بالذات: كانت ماوية وهي التي شاركت زوجها الحكم وتمرّست بشؤون المنطقة، على نحو ما قامت به سابقتها في الثورة والقتال في القرن السابق زنوبيا، تعرف تماما الأماكن الصالحة لاختراق الحدود الرومانية (الليميس). وأدركت يومها أن نقطة اتصال فينيقيا اللبنانية بفلسطين الأولى قرب الجولان هي الأنسب للنفوذ.

٣- ثمة شبه إجماع بين الذين درسوا، لا الذين تصفحوا، المظان الأصلية أن المعركة بالذات وقعت في فينيقيا اللبنانية على مقربة من المكان الذي تم الاختراق فيه (حول منابع الأردن).

حري بالذكر أن ماوية قاتلت جنود الإمبراطورية في معارك متعددة، وكان نجاحها فيها مما زاد في طموحها وأدى إلى تنظيم شؤون الجيش البيزنطي استعدادا للمعركة الفاصلة. وهكذا جمع قائد العسكر في فينيقيا اللبنانية وفلسطين الأولى قواته واشتبك في معركة مع ماوية، ويبدو أنه هزم. ومن ثم رأى بأنه يستنجد بالقائد العام لقوات الشرق، يوليوس (الذي تولى هذا المنصب من ٣٧١ إلى ٣٧٨).

واعتزم هذا على القيام بالقتال بمفرده، فأمر القائد المحلي، وهو تابع له، أن يتنحى جانبا، وحمل هو على جيش ماوية حملة عنيفة، لكنه فشل في حملته هذه، ولم ينقذه سوى الشخص الذي طلب منه التنحي، والذي سهل للقائد العام سبل

التراجع، فيما دبر هو أمر التراجع، وأطلق على العدو الذي كان يحيط به سهامه. كان ثمة انهزام للجيش الإمبراطوري بلغ حد الكارثة.

طلب البيزنطيون الصلح، فكان لهم ذلك، على أن يُسمى موسى، الناسك الأرثوذكسي أسقفا لشعب ماوية. وقد تم له ذلك على أيدي رجال الدين الأرثوذكس الذين كانوا منفيين في مصر. يقول سوزومن، الذي كتب عن المعركة بعد نحو سبعين سنة (إن هذه الحادثة لا تزال قائمة في ذكرى الناس ولا يزال الشرقيون أي العرب يحيونها بالغناء).

ابنة ماوية وفكتور

كان لماوية ابنة صبية تجيد الفروسية. وهي، بطبيعة الحال عربية (ولو أن الإشارة إليها أنها كانت سراسينية على ما درج عليه بعض المؤرخين يومها من خلط بين الكلمتين أو من رغبة في الحط من شأن العرب). وكانت ابنة ملكة معاهدة ولم تكن مواطنة رومانية.

وكان ثمة قائد الفرسان في الدولة البيزنطية رجل في الستين من عمره (لعله كان عازبا أو أرمل). هذا الرجل المواطن الروماني، والذي تولى واحدا من أرفع المناصب في الإمبراطورية قرابة عشرين عاما (٣٦٣-٣٨٢) والذي كان، مثل ماوية، مسيحيا أرثوذكسيا مؤمنا إيمانا قويا بالأمرين.

وقد تزوج قائد الفرسان في الشرق ابنة ماويَة. هل وراء هذا الزواج مصلحة لأحد الفريقين؟ إن كان ثمة مصلحة فهي لماوية. كان الرجل صاحب منصب كبير،



وكان، على ما يبدو، أثره في شؤون الدولة في أيام فالنس كبيرا أيضا. هل كانت له يد في إقناع فالنس في تجديد المعاهدة بعد انتصارات ماويَة في الهجوم العام وفي المعارك؟ يبدو أن الجواب إيجابي. هل كان يستطيع بنفوذه أن يوثق المعاهدة عمليا؟ الجواب أيضا إيجابي. والسبب أن الرجل كان محترما في البلاط البيزنطي إذ عمل مع أربعة أباطرة قبل فالنس. يضاف إلى ذلك أن الرجل الذي كان أرثوذكسيا وقد عمل مع إمبراطورين اريوسيين (فالنس وثيودوسيوس الأول) وقبلهما ومع إمبراطور مرتد إلى الوثنية (جوليان) وظل في وظيفته بسبب ما اكتسبه من خبرات في ميادين القتال والسياسة، وبسبب تمكنه من خدمة الدولة والكنيسة في وقت واحد - مثل هذا الرجل يمكن مصاهرته للاحتماء بقوته ونفوذه، خاصة أنه من المرجح أن فكتور هو الذي أقنع فالنس بعقد الصلح مع ماويَة على شروطها. على أن عرفان شهيد اكتشف في الزواج شعلة حب. وعلى ما كانت عليه العلاقات والمعاهدات العربية-

البيزنطية من قوة أيام فكتور وعلى يده، إذ أضاف إلى المعرفة العميقة بالأمور والخبرة العملية في شئون الفريقين، الرغبة الصادقة في مصلحة الفريقين البيزنطيين والعرب من جهة واحدة، والكنيسة والدولة من جهة أخرى. كان فارسا خبيرا أمينا مجربا مخلصا. فإذا كان الزواج سياسيا من وجهة نظر ماويَة، فقد كان أيضا لمصلحة الجميع.

الثورة الثانية

خلف فالنس على العرش البيزنطي ثيودوسيوس الأول (٣٧٩-٣٩٥) الذي جاء من إسبانيا، والذي لم يكن يعرف أي شيء عن الشرق أو العرب. فلا هو سكن بينهم ولا قاتلهم. ولعل الأمر الذي كان قد نقل إليه بعد وليه الحكم هو أنهم كانوا أعداء للدولة، هذا مع العلم أن بعض أفراد فرقة الفرسان العربية التي أرسلت للدفاع عن القسطنطينية كانوا مازالوا يقيمون في العاصمة. ثم إن لابينوس الفيلسوف الوثني أثار قضية مقتل يوليان (٣٦٣) واتهم العرب بذلك، وهذا جاء بعد تولي ثودوسيوس العرش بقليل. فضلا عن ذلك فلم يكن للعرب في البلاط الجديد ولا في إدارة الشرق أنصار. فقد طغى العنصر الجرماني على الوظائف الإدارية وحتى العسكرية، لا في البلاط وحده بل حتى في الولايات الشرقية. ونود نحن أن نضم سبباً آخر لعله كان من مخبآت الشعور النفسي وهو أن البيزنطيين الرسميين على الأقل كانوا يضمرون بعض الحقد والضغينة للعرب الذين استطاعوا أن يكسروا جيوش القسطنطينية.

لذلك لما جاء ثيودوسيوس لتجديد المعاهدة مع العرب، حسب النظام القائم يومها لم يكن منصفا في ذلك. ففيما منح القوط شروطا خاصة، فإنه لم يعط العرب مثلها. هذا مع أن العرب مسيحيون أرثوذكس ولم يكن القوط مثلهم إذ كانوا وثنيين. وفي سنة ٣٨١ عُقد المجمع المسكوني في القسطنطينية ولم يدع أي أسقف عربي إليه، مع أنه كاد أن يكون وقفا على الأساقفة الشرقيين. ولم ينل العرب أيًا من المناصب التي شحنها ثيودوسيوس بالقوط الجرمان، حتى ولا الصغير منها، هذا على أن العرب حاربوا إلى جانب الدولة ضد القوط سنة ٣٧٨. كما أن العائدات المالية للعرب أنقصت. ومن ثم يمكن القول بأن الجو الإمبراطوري لم يكن مؤاتيا للعرب.

قام العرب بثورة ثانية ضد القسطنطينية. والمرجح أن يكون ذلك قد حدث سنة ٣٨٣ (وقد تكون بوادر الثورة قد بدت طلائعها قبل ذلك). وهنا يجدر بنا أن نذكر أن العلاقات بين بيزنطة وفارس في هذه الفترة كانت سلمية (في زمن الثورة الأولى كانت الحرب شبه مستمرة)، ولم يكن العرب الآخرون معنيين بالأمر. وأهم من ذلك كان الحد القوطي في تراقيا هادئا. فكان من المتيسر توجيه ضربة قاسية ضد العرب (التنوخيين - اللخميين) انتهت بانقصام ظهرهم.

كان فكتور قد انتهى عمله وغادر إنطاكية، عاصمة منصبه كقائد للفرسان. والذي تولى مكانه، والذي كان المشرف على حرب هؤلاء العرب هو ريشومر، وهو جرماني وثني، فلعله بذلك قاتل العرب من زاويتين القائد الجرماني للدولة البيزنطية

والرجل الوثني الذي لم تكن المسيحية تعني له شيئا هنا (وهو لم تعن له شيئا في العاصمة أيضا). وحري بالذكر أن الثورة الثانية، التي كانت بقيادة ماويَة أيضا، كان مسرحها المنطقة نفسها التي كانت مسرح القتال الأول، ولعل الفرسان والقوات المقاتلة البيزنطية كانت قد عرفت أسلوب القتال المناسب لتلك المنطقة فاستعدت للأمر. ويبدو أن العرب كانوا أضعف أيام الثورة الثانية منهم أيام ثورتهم الأولى. واغتنم أولو الأمر في العاصمة المناسبة فأنزلوا العقاب بالمكسورين، بدلا من إعادة الأمور إلى نصابها، وكان في ذلك القضاء على هذا التحالف الكبير.

النهاية

إن التحالف الذي تزعمه الملك المجهول والملكة ماويَة بعده انحلت عراه بحكم الهزيمة التي أصابته. ويبدو أن بعض الجماعات التنوخية، وهي القسم الأهم في التحالف، عادت إلى أراضي الدولة الفارسية التي كانت قد جاءت منها من قبل لخلاف مع الملك شابور الأول الفارسي (٢٤١-٢٧٢).

أما اللخميون فيبدو أنهم دخلوا أيضا أراضي الإمبراطورية الفارسية وأصبحوا، فيما بعد، سادة الحيرة وعملاء فارس عليها.

والجماعة المعاهدة التي خلفت جماعة ماوية كانت بني صالح، وهم الذين أصبحوا المعاهدين مع بيزنطة في القرن الرابع.

لكن يبدو أن بيزنطة تنبهت إلى ناحية مهمة جاءتها من انهزامها على أيدي شعب ماويَة، ذي الاتحاد اللخمي - التنوخي الكبير، فلم تسمح لبني صالح بأن تتسع رقعة نفوذهم، ومن ثم فلم يكونوا قوة مركزية كبيرة. بل ظلوا جماعة أصغر من التحالف التنوخي اللخمي كي يسهل التعامل معهم.

أما ماويَة فيبدو أنها اعتزلت الحياة العامة ولعلها انضمت إلى واحد من المؤسسات المسيحية فقضت حياة عبادة وخدمة للمجتمع.

وهناك نقش يوناني يعود إلى سنة ٤٢٥ عثر عليه على مقربة من خُناصرة، في شمال سوريا، ورد فيه اسم ماويَة وعزي فيه إليها أنها عملت على بناء صرح القديس توما. وليس ما يمنع أن تكون ماويَة نفسها، الملكة، كانت قد عمرت بحيث كانت حية سنة ٤٢٥م.

خاتمة

يقول غلن بورسُك في الفصل الذي كتبه (وترجم) في (قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب): (والأهم من كل ذلك هي ماويَة التي تشد كل اهتمامنا لأنها تستحق مكانة حرمتها بين النساء العظيمات في العصور القديمة. إذ تدل قوة شخصيتها وشجاعتها في الحروب أنها لا تقل أهمية أبدا عن زنوبيا. كذلك فإن قبول شعبها بقيادتها يدل على أن حكم النساء لم يكن مستغربا عن العرب قبل الإسلام... قد يدفعنا الضوء الذي سلطناه على ماوية إلى الاعتقاد بأن بطلات صحراويات أخريات قد يظهرن إذا ما نشرنا مخطوطات أخرى ونصوصا عربية تاريخية وجغرافية.

زنُبيا والزبّاء

"زينب" و"نابلة"

سعد زغلول الكواكبي *

ليس نقص بعض المعلومات لدينا نحن المثقفين العرب في أننا لم نتحرَّ أو نبحث عن تاريخنا، إنما المهم في أننا لا نجهد في السؤال عن المعرفة ولا نحقق ولا نتحرى، حتى وصل بنا الأمر إلى الإكتفاء بما تعلمناه في المدارس وما ورثناه من جهل المؤرخين العرب لتاريخهم وعدم الاهتمام بالتحري عن الحقائق التاريخية بشكل أكاديمي وجدي يستهدف الأدب الروائي السينمائي، إذ كان هم الروائيين العرب ينحصر في تأليف رواية يطلقون عليها لقب " تاريخية" يحشرون فيها أسماء لمواقع وأشخاص وحوادث توحي بأنها من التاريخ، إنه وحي ساذج، ولكنه ينطلي على أكثرية الشعب (وهم بعيدون عن الثقافة التاريخية) وبخاصة طلاب المدارس المبتدئون الذين يستبدلون بأساتذتهم في مادة التاريخ مسلسلاً تلفازياً أطلقوا عليه لقب" رواية تاريخية.

و أنا في هذا المجال لا أتحدث عن قصة موسى الواردة في التوراة وفي القرآن الكريم أو قصة " سارغون الأكادي"، وكلاهما من الميثولوجيا التي تختلف فيها العقائد، وإنما أتحدث عن وقائع وأناس لا تزال آثارهم قائمة إلى يومنا هذا نجول فيها كل يوم ونعجب بها، إلا أننا لا نكلف أنفسنا عناء تقدير قيمة هذا الإعجاب من عناء البحث والتحقيق.

و أكبر مثال على ما لقيت في هذا الباب من عقوق العرب لتاريخهم ما لقيته في أحد المسلسلات التلفازية الذي يروي للدنيا، عربا أولا ثم غير عرب، تاريخ مدينتنا "تدمر" وقصة "زنوبيا" ملكتها، فيخلط بينها وبين ملكة الجزيرة "الزبّاء" الملكة العربية "العمليقية" على الضفة الأخرى من الفرات.

حتى أنا بذاتي لم أتلق أية معلومات من أساتذتي أو من المؤرخين العرب عن "الزباء"، وكنت أجهلها حتى الزمن الذي أتاح لي فيه انتسابي إلى جمعية "العاديات" الآثارية في الخمسينات من القرن المنصرم ثم رئاستها، يومها اهتممت بآثارنا ورحت

---

* الرئيس الأسبق لمجلس إدارة جمعية العاديات - قاضٍ متقاعد.

أزور المدن الميتة ومنها المدينتان اللتان نسميهما اليوم " حلبية وزلبية " على ضفتي الفرات.

و لئن كانت الشواهد الأثرية القائمة حتى اليوم قد ساعدتنا على معرفة تاريخ "زنوبياء" بسبب وجود الكتابة النبطية والرومانية على آثارها وما جاء في مسجلات المؤرخين الرومان، إلا أنها لم تساعدنا على تلقي تلك المعرفة عن " الزبّاء " بسبب عدم عثورنا على كتابة مخطوطة فوق آثارها ولا في أي مكان آخر، إلا تاريخ واحد يعود إلى أيام الأمبراطور البيزنطي "جوستينيان " لا علاقة له بالملكة " الزباء "..

فهل أقف أمام هذا النقص في الآثار الكتابية المخطوطة والمعاصرة للـ" زبّاء " مكتوف الأيدي؟ أم يتوجب علي البحث العلمي والتحري عن " الزبّاء " في مجالات أخرى؟

نعم. لئن عزت الكتابة الأثرية فالأدب العربي لم يفتنا بعد. ولا نزال نعيش أدبنا الحالي ولغتنا العربية بفضل أدبنا العربي الجاهلي ثم ما بعد الجاهلية من قرآن كريم ونثر وشعر سعد بهم من منحه الله الذوق السليم

فلو رجعنا إلى الأدب العربي لعوضنا ما فاتنا من معرفة في التاريخ مما لم نعثر له حتى الآن على نص أثري مكتوب، وأخص في هذا المجال تاريخي "زنوبياء" و"الزّباء".

و أدبنا العربي يدلنا على أن الأولى اسمها "زينب" والثانية اسمها "نابلة". فمن هما؟

إنهما ملكتان عربيتان من أسرتين عربيتين أصيلتين. لكل منهما مملكة:

فمملكة "الزبّاء" أسسها "عمرو بن ظرب" (و هو غير "عامر بن الظرب الحكيم")، بسط منها مملكته على سائر الجزيرة الفراتية والشام الأدنى (syria prima)، وهو ابن "حسان بن أذينة العمليقي" نسبة إلى قوم "العمالقة".. وهو أبو " الزبّاء " التي لم يعرف لها أخ أو أخت. أشتهرت بحسنها وجمال شعرها المسبل الطويل الذي تلقب صاحبته بـ"الزبّاء"، والرجل -إذا كان طويل الشعر- يلقب بـ "الأزبّ" وأسماها أبوها "نابلة". إلا أن بعض الروايات تلفظه "نائلة". وأنا أعتقد أنها "نابلة" بمعنى أنها تجيد رمي النبال. ويقال للرجل "نابل". وأما استبدال الهمزة على الكرسي في الكتابة فقد جاء متأخرا، والعرب لم تكن تكتب الهمزة أصلا وبخاصة على الكرسي أي النبرة. ولئن كان يقصد أبوها أن يسميها نائلة كماذكر البعض لكان الأسم " نايلة "و لكانت كتابته بالياء لا بالباء.

و مما لا شك فيه أن الكتّاب - قديما - كانوا يهملون التقيد برسم الحروف وقل منهم من يهتم بجودة الخط من نسّاخ أو كتّاب.مما أدى ويؤدي دوما إلى ضياع أسماء في تاريخنا العربي أو عبارات ومثال ذلك اختلافهم في كتابة اسم الأميرة " نبات: أميرة حلب العباسية إذ راح بعض النساخ يكتبونها باسم بنات، وذلك لعدم تنقيط الحروف بصورة واضحة.. فما بالك إذا كان النقلة والناسخون قد أهملوا وضع أحدهم نقطة تحت كرسي "نا لة " بينما وضع الأخر نقطتين فصارت " نايلة "؟ فإن كانت

الثانية - أي الياء - فإن معناها هو ما نقصده اليوم بقولنا: "نائلة "و العرب كانت تلفظ الياء المكسورة بدلا من الهمزة والواو بدلا من الهمزة المضمومة، ومثل ذلك كثير.

إذا فنحن أمام روايتين: "نابلة" و"نايلة" بدون همزة.

و لم يقتصر التحريف على الملكة "نابلة "، وإنما تعداها إلى زميلتها " زنبيا ". فلقد أكثر الناسخ من حبر القلم أو قرّب نقطة النون إلى ما فوق سنها فالتصقت النقطة برأس السن فاستطال فانقلب " لاماً"، فراحوا يقرأونها " زلبيا" وهو اسم المدينة المقابلة لمدينة " الزبّاء" على الضفة الثانية من الفرات.و لهذا السبب يقولون اليوم: " حلبيا وزلبيا " دلالة على المدينتين المتجاورتين، على خط الطول /٣٩/ وخط العرض / ٤ر٣٥ /عند "المضيق" الذي أسماه العرب الأُول مضيقا لوقوعه بين بلاد "الخانوقة" و"قرقيسياء" (وهذه هي الآن: "البصيرة" التي عند تلاقي "الفرات" بـ "الخابور" قرب "دير الزور").

وعودة إلى التاريخ:

كانت حاضرة " الزباء" مشيدة على شاطئي الفرات الجزري والشامي. حتى أن المؤرخ " موسل" يرى أنها كانت حصنا لمدينة متوزعة على الشاطئين، وقد أسسها " آشور بانيبال" سنة ٨٧٧ ق.م. وأسماها " دور كرياتي ". ثم جاء " آشور ناسربال الثاني " فقوّى حصونها وشاد في قسميها الشامي والجزري قلعتين سنة ٨٩٥ ق.م.

و ما يجعل الاحتمال مقبولا في كون هذه المستوطنة الحالية هي " دور كرياتي " التي وردت في أخبار " آشور ناسربال الثاني " هو أنه لا توجد قلعتان متقابلتان على الفرات إلا هاتين القلعتين اللتين تبعدان ستين كيلو مترا عن مدينة " دير الزور " شرقي سورية.

فالمدينة إذن آشورية الأساس والتاريخ، سواء ما كان منها في البر الجزري أو ما كان في البر الشامي. ولعل الآشوريين قد تركوا هذه الحاضرة، بشقيها، للكلدانيين الذين حكموا المنطقة خلال سني ٦١٢- ٥٢٥ ق.م، فبقيت في أيديهم حتى مجيء " قورش " الفارسي الذي قضى على دولتهم. ولعل الفارسيين قد سكنوها أو دمروها خلال احتلالهم للمنطقة الذي انتهى بدخول " الإسكندر المكدوني " يوم موقعة" كوكميل" سنة ٣٣١ ق.م. التي دحر بها الملك الفارسي " دارا ". ولا ندري أيضا ما إذا كان قواد "الإسكندر المكدوني" قد احتفظوا بها أم تركوها. على أن المؤرخ " هيرزفيلد " يرى أنهم ابتنوا عندها مدينة يونانية صرفة أسموها " كارديثا". ولا يسعنا أن نجزم ونبت في هذا الأمر ما لم تثبت لنا التنقيبات الآثارية ة شيئا من ذلك، وهذا ما لم يحصل حتى اليوم. وكل ما نعرفه حتى الآن ما هو إلا سمع ورواية عن راوين ومؤرخين. ولكننا لا نهمل ما جاء على لسان الرواة، لأن الرواية كانت من مصادر التاريخ، كما حصل لأساطير السومريين التي دخلت الديانة اليهودية ثم راح التاريخ يأخذ بها لأسباب معروفة. وتظل الروايات مأخوذا بها طالما لا ينكرها الإنسان أو تنفيها الآثار الحسّية. وكانت عادة العرب اعتماد الرواية وتناقلها من الأجداد إلى الأحفاد.

و ما دامت مملكة " عمرو بن ظرب " التي استعمرت المضيق عند هذا المكان على الضفتين قد تأسست أيام ملوك الطوائف - كما يرى المؤرخ "المسعودي" - وعاصرت وخضعت للرومان، فإن ذلك يعني أنها استمرت إلى ما بعد دخول الرومان سنة ٦٤ ق م في أعقاب اليونان الذين استمر وجودهم فيها نيّفا وثلاثماية سنة. واعتمادا على رأي المسعودي بأن مملكة " عمرو بن ظرب " إنما كانت من ممالك الطوائف التي خلفها الإسكندر" فإن عهدها، من أيام " أذينة " جد " عمرو بن ظرب " لا يمكن أن يستمر ثلاثماية سنة حتى وجود " عمرو بن ظرب " هذا. وأعظم احتمال لبعد الحفيد عن الجد لا يمكن أن يتجاوز ثمانين سنة.

من ذلك، واعتمادا على قوله إن " أذينة " كان مخضرما، أي وجد أيام اليونان ثم أيام الرومان، فإن حفيده " عمرواً" لا يمكن أن يكون عهده قد تجاوز السنة الخمسين بعد الماية الميلادية، وأن عهد ابنته " الزبّاء " كان في أواخر القرن الثاني بعد الميلاد. ولكن هذا الاعتماد سيثبت لنا عدم صحته.

و لو كان التاريخ العربي قد أمدنا بمعلومات زمنية عن تاريخ مقتل " عمرو بن ظرب " على يد " جذيمة الأبرش" ومقتل "جذيمة الأبرش" على نطع "الزبّاء"، ثم موت "الزبّاء" انتحاراً أمام "عمرو ابن عدي" أو قتلاً بيده لأدركنا تاريخ "الزبّاء" على وجه الدقة.

و لكننا سنستخلص التاريخ من الأدب والتاريخ العربي ومن قصة " قصير والزبّاء وعمروبن عدي ".

أقول: لم يكن هاجس المكدونيين القضاء على القبائل العربية على ضفتي الفرات حتى أقاصي الشرق بتطهير عرقي أو لغوي أو اجتماعي كما كان هاجس الرومان بعدهم. ولهذا السبب، فقد أبقوا على القبائل العربية حاكمة في أماكنها محافظة على كيانها، وبقيت معها لغتها العربية وآدابها. بينما جهد الرومان في إدخال لغتهم إلى قلب مملكة " تدمر " التي ارتبطت بهم وهي مرتبطة أصلا بالقبائل النبطية العربية التي اختصت بلغة وكتابة نبطية.

فبناء عليه، وجدنا الآثار التدمرية بعيدة عن اللغة العربية والأدب العربي، بينما لم نجد هذا التغيير في مملكة " عمرو بن ظرب ".

إلا أن المكدونيين خلفاء الإسكندر اتبعوا القاعدة الإستعمارية الأزلية في أن التفريق بين الشعوب المحتلة هو أساس السيادة. فتركوا القبائل العربية تتصارع فيما بينها تاركة لها تنازع بلاد الشام طالما أن نزاعهم لا يوقف زحفهم وسيطرتهم.

و هكذا فقد استعرت نار الحرب الكبرى فيما بين "عمرو بن ظرب العمليقي" والد "الزبّاء" وبين "جذيمة الأبرش" ملك الحيرة الذي تسلم الملك من عمه "عمر بن فهم"، وكان هذا قد أعقب أخاه "مالكاً بن فهم" أبا "جذيمة" في الملك. وهؤلاء كلهم من ملوك الطوائف المتعددة التي أبقى عليها المكدونيون. في القرن الرابع بعد موت الإسكندر الكبير

و في تلك الحرب تمكن "جذيمة الأبرش" من قتل "عمرو بن ظرب" والد

الزبّاء"، وقد أشار إلى ذلك الشاعر " الأعور بن عمرو بن هناءة"فقال:

كأن عمرو بن ثريّا لم يعش ملكا
ولم تكن حوله الرايات تختفق
لاقى جذيمةَ في جاواء مُشعَلةٍ
فيها حراشفُ بالنيران ترتشق

[و يشير قاموس المنجد إلى أن "جذيمة بن الأبرش" (الوضّاح) كان في القرن الرابع أي بين سنة ٣٠١ و٣٩٩ ميلادية وينسب إليه تأسيس مملكة الحيرة].

و حلّت " الزباء نابلة " - الشابة الشجاعة والفارسة البطلة التي كانت تقاتل إلى جانب أبيها حتى شهدت مصرعه - ملكة لمملكة حاضرتها على نهر الفرات.و تمكنت، بقيادتها الشجاعة من قتل " جذيمة الأبرش "بإسالة دمه على النطع بين يديها.

و ما يهمنا الآن أن نعرفه هو أن حاضرة مُلك " عمرو بن ظرب " (التي عرفت فيما بعد باسم ابنته الملكة " الزبّاء نابلة العمليقية ") كانت بين القرنين الرابع والخامس الميلادي، وأنها على أقرب تقدير كانت في القرن الخامس الميلادي.. وأما مملكة ابنته" الزباء " فقد كانت في القرن الخامس أو أوائل القرن السادس، نظراً لما سأبينه.

أقول إنني تحريت النصوص العربية القديمة من الشعر والنثر فلم أجد ما يشير أو يساعد على الإشارة إلى تاريخ " الزباء " - رغم عثوري على كثير من الأشعار التي تشير إليها بدون تأريخ لها -. فلما رجعت إلى معجم أمثال العرب فوجئت بمثل قديم أعرفه إلا أنني لم يخطر ببالي أنه سيفيدني يوماً في تأريخ وجود " الزبّاء "! وهو لا يذكر اسمها ولا علاقة له بها، إلا أن شرحه الوارد على لسان شارح المعجم" الميداني " أفادني كثيراً.

و المثل العربي الجاهلي هو:" تمرّدَ ماردٌ وعزّ الآبلق ". فلقد شرح إسم " مارد " على أنه حصن بأرض تيماء، وشرح اسم " الأبلق" بقوله:

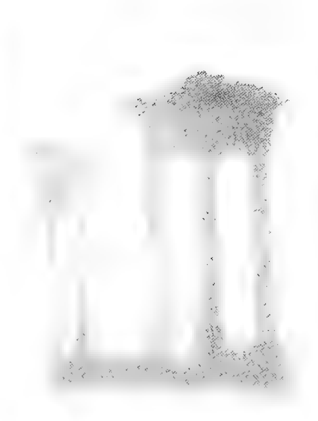
" حصن للسموأل بدوامة الجندل قصدته ملكة الجزيرة ورجعت عنه ".

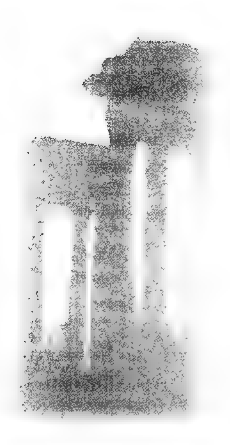
و بما أننا نعرف قصة " السموأل بن عاديا " الذي أودع عنده " امرؤ القيس، النصراني " أمانة يوم رحل قاصداً بلاد الشام ثم بلاد الروم ليستعين بقيصرها ليمنحه الملك.

يعني ذلك - استنتاجاً منطقياً - أن "الزبّاء" قد عاصرت "السموأل" الذي عاصر "امرأ القيس" الذي عاصر قيصر الروم المسيحي.

فمن هو قيصر الروم المسيحي؟

يذكر صاحب المنجد أن " يوستينيانوس الأول قد زاره - خلال فترة حكمه - بين سنتي ٥٢٧ و٥٦٥ ميلادية - " الحارث الغساني ". والصحيح أنه " الحارث بن جبلة " الذي عاش بي سنتي ٥٢٩ و٥٦٩ ميلادية والذي قتل " المنذر الثالث "، وهو غساني أيضاً وقد زار الأمبراطور " يوستينيانوس " فجعله ملكاً على بلاد الشام. وذلك بين ٥٢٩ و٥٦٩ ميلادية (كما ذكر صاحب " المنجد ". وهذا يعني أن الحارث الأول والحارث الثاني قد زارا " يوستينيانوس الأول ": الأول قبل الثاني





من كل ذلك أمسى من المؤكد أن " الزبـاء " قـد عاصـرت " السـموأل " وأن محاولتها الهجوم على حصنه " الأبلـق " كانت في أواخر القرن الخامس الميلادي أو أوائل القـرن السـادس، قبيـل تنصـر ملـك الـروم أو بعـد ذلـك بقليل.و هـذا ما ينطبـق على شرح المثل العربي آنف الذكر.

و أمـا مـوت "الزبّـاء " فقـد كـان قبـل الإسـلام وبعـد زيـارة الحـارث بـن جبلـة الغساني

و لا بد من أن تكون مملكتها قد زالت بعد مقتلها على يد "عمرو بن عدي".

و لا ندري مـا إذا كـان أحـد قـد أقـام مكانها أم لا. وإن كان هناك أحد فإن الفتح الإسلامي لها على يـد عياض بن فهم في خلافة عمر سنة ١٩ هجرية و٦٤٠ ميلادية لم يأت على ذكره، وكل ما ذكره أنه هاجم تلك المدينة واحتلها كما احتل بلدة " زنبيا " (بالنون الصحيحة)التي على الضفة الثانية من الفرات، ولم يذكر من كان فيها أيضا وقتئذ..

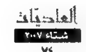
و الجدير بالذكر أن "طريف بن ربيعة بن مالك " الشاعر قد ذكر اسم المدينتين باسـم ملكتيهمـا رغـم كونهمـا قـد ماتتـا. وبالأخص " الزباء " فإن موتها لم يكن قـد مضـى عليه أكثـر مـن بضـع سـنين. (ماتـت حـوالي سـنة ٦٣٣ والفـتح كـان سـنة ٦٤٠ تقريبا) على ما تحقق لدينا ■

ملف خاص

القصائد الفائزة بمسابقة

حلب

عاصمة الثقافة الإسلامية



معلقة حلب

وليد محمود*

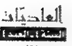
هذه صور فوتغرافية التقطها عابر سبيل لحلب وكلفني ان أعلقها على جدرانها

صورة لمدخل المدينة

الخمر في لحظها والماء في القربِ
وأنت ظمآن حد الموت فاقترب
قد طوقتك ذراعاها فأوصدتا
كل الدروب التي تفضي إلى الهرب
شهباء لا بد قد مرت بخاطره
لما دعا الشهب شهبا والد الشهب
قست يداها على أعدائها وعلى
أصحابها كانتا أندى من السحب
أنى التفت وجدت الماء يتبعني
والورد يرسل وفد العطر يلحق بي
ومن زحام غصون في حدائقها
تأتي نسائمها لهثى من التعب
وحورها وعليهن الحرير وقد
قدمن من كل بيت طاهر النسب

---

* شاعر وأكاديمي من العراق.



جم الندى يتلقى من يمر به

سياجه بتحيات من العنب

حتى سألت أفي أرض حللت أنا

أم جنة لم ترد من قبل في الكتب

هذي مساجدها إن ضاع قاصدها

أيد تشير الى الاسلام والعرب

كانني أبصر الخيل العتاق مضت

منها الى نصرة المسلوب لا السلب

وأسمع المتنبي الآن ينشدها

(يا أخت خير أخ يا بنت خير أب)

ان لم تكوني لأرض الشام عاصمة

فأنت عاصمة للشعر والأدب

لو حدقت لحظة عين بها لرأت

في لحظة كل ما قد فات من حقب

فقل الى الخلد آت حين تقصدها

ولا تقل انني آت الى حلب

صورة لدار شهيد من شهداء حلب
وتبدو دواة من الحبر على حافة شرفته

(هل غادر الشعراء من متردم

أم هل عرفت الدار بعد توهم)

دارا أقيمت في الثرى لكنها

أضحت بفضل المجد فوق الانجم

جعلت حدود الشام لا لترابها

بل للنجوم وللكواكب تنتمي

مالي أكتّم حبها ولقد جرى

بدمي لحد جهلت أيهما دمي

والله لا احتاج غير دواته

لأعلم التاريخ ما لم يعلم



محاولة فاشلة لالتقاط صورة لقلعة حلب

أسرى بنا في الذي قد أسلف السهر

لغادة بخمار الليل تستتر

هيفاء مدبرة الأيام مقبلة

على الخوافق الا أنها حجر

غراء صاحت ديوك الفجر حين بدت

في ظلمة الليل ظنا أنها السحر

دعجاء نحذر كنا قوس حاجبها

لوكان ينفع مما نحذر الحذر

رحنا نسائلها من أنت فاحتجبت

وارتد يندب منها حظه البصر

محاولة ثانية

ظلم مبكرة وشمس تسهدُ

وكواكب من حولها تتهجدُ

ونضارة مر الخريف ولم تزل

بالرغم من عجلاته تتجدد

حط الحمام على الجدار وقد رأى

غصنا من الذكرى وطار الهدهد

وأناخ ناقته الزمان بها فلا

أمس ولا يوم يمر ولا غد

قف خالعا نعليك ليست قلعة

هذي الطلول الدرس بل هي معبد

هي جمرة حار الزمان بأمرها

هيهات ما مضت الليالي تخمد

الجيل تلو الجيل ينذر عمره

حطبا لتبقى بعده تتوقد



حلب بالزي العسكري

شهباء أجمل ما رأينا عندما

وضعت بمعصمها الصمود سوارا

ياريقها يا ماء مزن قد شأى

بصفائه في الجنة الأنهارا

يا جفنها المكحول من بارودها

يا ماءه لو سال يفتح نارا

تيمور أجرى أنهرا بسيوفه

حتى تلقى سيفها البتارا

يا وجهها فتن النهار بحسنه

فرمت عليه من الظلام خمارا

ياكل مافيها ومن فيها ومن

دفنوا بها ياصمتها المعطارا

ماذا يقول الشعر في أوصافها

وبوصفها كل العصور حيارى

كم خاننا التعبير كم راغ الهوى

حتى كتبنا بالدم الأشعارا

صورة لحلب في منتصف الليل

بين الرصاص وبين الورد نائمة

اميرة والزمان العاشق الكلف

ما زال من ادم للآن يعشقها

لكنه ليس يدري كيف يعترف

حلفت بالليل اذ يغشى شوارعها

لو لم يُكفَّرْ بغير الله من حلفوا

إني شهيد هلال في أزقتها

يلقي قصائده والليل ينتصف

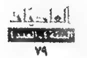
من مقامات العشق الحلبي

محمود محمد أسد*

لهذا الصباح المعطر وجدي
وسادة قلبي
وقلبي على ساريات المرافئ
بوح القصيدة..
يفرد، ينتظر العرس
في بارقات العيون..
بيارق تنساب كالدفء
أيان أرسم لون
التراب
على كل باب
يعانق نبض الزقاق
لهذا الصباح المغرد ترنيمة
أيقظت قبر أمي
سعال الجوار
وجاءت إلي محملة بالعبير
وتلك البشائر
حطت سحابة حب

وكنت استدنت من الولدين
حديث الأزقة
وما أجمل الذكريات
تقص عليكم مشاويرها
في أزقة باب الفرج...
ومن ذا يلملم آهات باب الفرج
ومن يقرأ الوقت والأغنيات؟
لذا جئت باب الجنائن
مددت يديك لتقبيل
نبض المآذن
أصغيت للعشق للمولوية
سرحت قريبا، بعيدا
ورحت أعانق سفرا
ندي التهجد
لهذا المساء يشف الحوار
وتتسع الأمنيات
أمام السرايا ترف قلوب الحسان

* شاعر وقاص له كتب كثيرة.



تهدهد باب المقام،
تنادي الصبايا، وتغزل عطر اللقاء..
وحـي المعـادي كـأي مـن الـذكريات
الجميلة..
معا نصعد الباب
نحمل في القلب أحجار
سور المدينة..
وتلك المساجد حاكت ثياب النساء
وفي قاعة الروح والشوق
أزرع ذكرى..
فهذا الحبيب من الوجد ينهل،
وذا سيف دولتها في البلاط
يحاور أهله..
وفي الثغر يحيا وللثغر ينهض..
أمضي إلى دفتر الوجد
والروح ظمأى..؟
نعانق سوق الحرير
وخان الوزير
ومن متجر نحتسي كأس قهوة..
أنسأل عن بيت من شغل الناس
بالشعر وأستل سيف البلاغة..؟
ويأتي إلي الجواب فصيحا
يزف انتصار البيان
ويتوج فوق الإمارة
معا قد صعدنا
معا قد عبرنا الرواق
دخلنا الكنائس
أشواقنا في التسامح تنبت

مددت إليها يدي
صافحت في ودي
دعتني إلى مسرح الشوق
هل كان قلبي معي
لست أدري
فهذي تباريح حيي
تغازل شوق الحجارة
تمسح عنها الغبار
تعيد القراءة
تلك التي في المعابر
معا نعتلي قاعة العرش
في القلعة التي أيقظت
ألف عين
وألف تساؤل
تدور بك الفاتنات
لتسرق مني الشرود الشقي
تمد إليك يدها
أريج الحياء
ضفائر شعر الحبيبة
ردد رجع خطاك
تشدك للحسن للنبض
نبض الزمان
لتأخذ منك الجواب..
لهذي وتلن نوافذ قلبي
تشع الضياء..
آخطب ود الحسين
وأقرأ ما فاض من أبجدية..
على الرقم والمدخل المحتفي .

بالضيوف ترى أبجديات
عشق البقاء
تسامر صوت المؤذن في كل فجر
تهب من الصمت
تغسل نفسك
تجويقة الفجر معزوفة
مجدت ما اصطفاه الإله
هنا في الجديدة تسمو النفوس
ترى روضة الحب
نبت الإخاء
فيزهر روض التآخي
وتحيا جميع الزهور
أوقف تاريخ قلبي
أسبح أحمد رب العباد
على بابها يبسط العشق
فالروح تفضي إلي بعذب هواها
وسحر نداها
وعشق الهدى..
لك الحب يانجمة أيقظت أمنياتي
فكنت البيادر للحسن
والكرم للمعرفة
لهذا الصباح المتوج
نورا وصفحا
تغرد شهباؤنا
توقظ الوقت والعمر
من غفلته
وتبسط تاريخها للمعري وللأسدي
لأحمد شمس البيان

هي النسغ والغيم
تعطيك سحر الغناء
وعشق الحجارة
تجول..تأمل
شريط طويل كعمر المكان
تعرف وغرد
ففي كل حي قديم
مواجد حب ودفتر ذكرى
أتسمح لي أن أقبل بهو المسجد
أن أقرأ الشعر والقد
السهروردي وابن العديم
أتسمح لي أن أزور المقابر والأولياء
وأبحث عن قبر الأسدي
أمامي تضيق المسافات
يمتد تاريخ أسواقها
أتنشق من عطر خاناتها
فالزمان أمامي رسول خجول
ستبقى كعابا
بخصب الأنوثة تزهو
وتحيا لكل الدهور
تراها قديما وحديثا
غناء وعلما
تعانق فينا الغياب
تلامس فينا الحضور
تموسق للكون لحن الحياة
تجدول للوافدين
بيانا نميرا شفيق الحوار...

مئذنة في سماء الله

حسن شهاب الدين *

تنأى بنا الدّنيا ونغتربُ ... ونعود تحصن صوتنا حلب

ياقوتة في الشّام مودعة ... ولشاطئ الفردوس تنتسب

مهما نغب ستظل تسكننا ... حلما يلملمنا فنقتربُ

أو تنطفئ فينا قصائدنا ... ستضيئها في أفقها الشهب

حلب التي في الأرض مئذنة ... حتى سماء الله تنتصبٌ

ما زلت أخجل كيف أكتبها ... والمجد مستمع ومرتقبٌ

وحروفها تنأى وتوغل بي ... في الشعر حيث تهاوت الحجب

وابن الحسين هناك متكئٌ ... وأبو فراس منصب طرب

وخيول حمدان انتشت كرماً ... وتململت في غمدها القضبُ

فقطفت نجم الشعر مرتجلا ... وقصيدتي من أضلعي تثبٌ

الطائر المصري ها أنذا ... إن قلت يا حلب ازدهى الأدب

هي أول الدنيا وآخرها ... شهباء.. تمَ الناس والحقب

يا فتنة الشعراء ما غربتْ ... تلك الشموس ولا خبا اللهبُ

سر الحياة على ثراك نما ... وسقته صفو علائك السحب

ومن المحيط إلى الخليج أتتْ ... لتحج قبلة مجدك العربُ

والشعر يا شهباء مرتجلٌ ... كالنور في الآفاق ينسكبُ

من كل قافية مذهبة ... أثوابها -رغم الأسى- قشبُ

شعراؤها أحلامهم كتبوا ... فزهت بهيَم ويحلمهم كتب

إلاّ أنا فالنار مسرجةٌ ... في أحرفي وقصائدي غضب

حمراء تنثر صوتها حمماً ... ونارها الأكوان تختضبُ

يا جمرة للمجد ما انطفأتْ ... منك اقتبست الشعر يا حلبُ

---

* شاعر ومدرس من مصر، له العديد من المجموعات الشعرية.

يا فتنة الشعراء معذرةً   انا لبست للشعراء النسبُ
لا أعرف القيد الذي عرفوا   حريتي هي ليس منا أهبُ
طوفت في الدنيا بأغنيةٍ   لا فضة فيها ولا ذهب
بل من دمي انتزعت حرائقها   كمنارة بالجمرة تُعتصبُ
وسألت عن مرساة أغنيتي   فأجبتني يكفيك تغترب
شهباء طال الشوق فاقتربي   ولقد تعبت وملني التعب
حتى كأني غيمة لعبت   ريح بها في الأفق تضطرب
سأحط في كفيك مرتشفاً   عبق الخلود فإنه الأرب
ما رمت من تمنٍ لأغنيتي   أنت المنى والمجد والنشب
إن نلت ما أمات فيك عُلا   وكرامة فقد انتهى الطلب
اولست أم حضارة عظمتْ   شمخت بها الدنيا ولا عجبُ
سورية الأمجاد لا وطنٌ   هي أو حدود بينها حجبُ
أو غاب أسد العرب تدخرهمْ   لفخارها أو معقل أشبُ
سورية الأمجاد ملحمةٌ   بخلودها قلب الدنا يجبُ
سورية الأمجاد معجزةٌ   عبر الزمان تضيئها الحقبُ
وأنا ابن مصر البار قد سمعتْ   صوتي على أبوابها العرب
انشودتي من نيلها سكرتْ   فقصيدتي .. لا الخمر والعنبُ
يمشي الزمان وأنت غرتهُ   وبضاء صوتك حيث لا شهبُ
لا تغفلي عني وعن كلمي   بيني وبينك في العلا نسبُ

شهباء كيف الحال في زمنٍ   قد كان بالأحرار ينقلبُ
هذي الدروب وكنت أعهدها   لخيول حمدان بها خببُ
إني أراها الآن شامخةً   وكأنها بالأمس ترتقبُ
هذي المساجد هل مآذنها   لما تزل في الغيب تنسربُ
تتلو صلاة الحق في أفقٍ   آياته للنور تنجذبُ
هذي البيوت تسامحا ورضاً   كيف البنون بها وكيف أبُ
الرافعون جباههم أنفاً   وجه الأصالة ليس يحتجبُ

شهباء شهباء انتشى قلمي   لما أضاء بصوتي اللقبُ
صوتي إلى جهة الندى ظمئٌ   مدي يداً أسقى كما شربوا
إني أتوق لمنبر السبق   في ساحتيك هناك ينتصبُ
والعرب أجمع نحو شاعرها   قبل العيون قلوبها تثبُ
وابن الحسين هناك متكئٌ   وأبو فراس منصت طربُ
وبنوك يا شهباء ترقبني   وعلى الوجوه المجد والحسب
نختال باسمك والزمان بنا   يختال والتاريخ يصطخبُ
يا أول الدنيا وآخرها   لولاك ماذا كانت العربُ

طريقُ الحرير

كمال قجة*

أسابق موتي إليك

وأحلم أني صداك

تناغم في موكب الذكريات

وعرس الدهور السحيقة

أعلم أنك أنت الرحيل بجرحي

وأن القوافل تحدو لعرس اللقاء بُعيد الأسى

وأسأل قبل احتضاري

أسائل صوتي لماذا تأخر عنه الصدى

لماذا تجوس الرياح

تفتش عن قبلة في جيوب المحبين

عن دمعة مزقتها المآقي

وعن شمعة لا تزال تَوَقَّدْ ...

لماذا

لماذا تخبئ عنك الرياح الهديلْ

وتستل هذا السكون

تحاول أن تمنح الغيم وقتاً

إجازة صيف بعرس الهجيرة

لماذا تصادر صوتك حيناً

وراء القباب

كقبّرة في مساء الخريف المهاجر

◆ ◆ ◆

سألت دمي عن رصيدي بعينيك

قال المحبون: ليس لفعل الرياح حساب

وليس لجرح المتيّم طقس

فكل الطقوس تداوي جراح المحبين

كل الحكايا

على ثغر سوسنةٍ كالهواء يبوح

يفتح مثل الندى

بنفح شهي

كصوت المآذن والياسمين الطري

ترقى من العتبات

على مهرجان اللقاء

وموج الرياحين لما يزل في صلاة من الطهر والعشق

يرسم وقع الصدى

◆ ◆ ◆

* شاعر ومدرس لغة عربية له عدد من الدواوين.

شهباء!

أنت المسافات بين الجراح

وبين الدروب ترتل ضوء الشعاع وتمخر جفن السقوف

الرطيبة عبر الأزقة تهفو خطا الشمس

ينبض من وجنتيك الضياء

حين تناجين: يا راحم الكائنات ...

يا حيُّ ... يا حيُّ

يجلو الصدى ويقوم النهار

يا بديع السمواتِ

◆ ◆ ◆

من رحم الأرض تنبثق الأغنيات عذارى إلى الغيم والنجم

نحو السماء العليّة: أن تمطر الشوق والأبجدية

تشكل نبض البراءة عبر حروفي

فهذي حروفي شهباء جرحي ونبضي

تفاصيل جلدي على رُقُمٍ من مسامات دهرِ

سحيق الخطا لا ينام

مسامات دهر تفتق فيه دمي مهرجاناً ووهجاً

يناجي

نشيد الحضارات مبتهلاً في الدعاء

تناجيه يا رب: اسق العطاش

فتزهو المفاتن

◆ ◆ ◆

ريحانة الدهر أنت

شهباء هذا الزمن

ووهج المكان

لهاث هنا يشرئب ويخضل بين البنفسج

يفتح جرح الشقائق أحمر كالأرجوان

بصوت الصُّداح الجميل ووهج الحناجر يمضي من القيظ

يأوي إلى الغيم طفلاً يناغي لتلويحة العاشقين

وراء النهار

هذا رصيد دمي في بريق القوافل يسعى كرمضاء

تلك الرمال يجسّد عمري

◆ ◆ ◆

أتيتك شهباءَ روحي

على قلمة الخلد تروي جراحي

تقص فصول دمي في محطات هذا الزمان السحيق

ترسّم نبضي

تفاصيل وجهي وعشقي

تقض مضاجع دهري وحتفي

شموخاً

على جبهة الدهر ترسو

على هامة الأفق

أبوابها لا تزال

كالشهب السبعة اللامعات

تشكل هذا الوريد

أي سر ينام

على البؤبؤ الوسني الجميل كنهر الحرير وخدر العذارى

ونفح من الطهر والعطر والعشق

كم ذراع تفتّح فيك ليحمل قلبي ويمشي وئيد الخطا

في صباحات عينيك

◆ ◆ ◆

هناك على جبهة الأفق بين الصنوبر والفستق الحلبي

وتلك الورود

جورية في دمي لا تزال

كميس القدود

كحورية في جفون السحاب

تزيل غشاوة قلبي

أي سر ينام على جفن دالية في التراتيل

مثل الثريا توهج كالجمر يذوي بسحر الرضاب الشهية

يحلو كوهج الرضاب

◆ ◆ ◆

خذيني لمجدك

خذيني لأيام عزٍّ توالت

هنالك وقع الصدى والسنابل وشم على معصميك

كنهر الحكايا عن الروم حين تهاوت صروح الطغاة

أتيتك كيف الدخول لعينيك ألمح كل المرايا تصور ترصد سمت الزمان

فكيف الدخول

وأعراس قلبي كأبوابك السبعة انطلقت كالشهاب

تبعثر حلمي ليصحو على معصميك

تذكرت كان المغني يقول

أراك عصياً وشيمتك المشق والصبرُ...

أليس لجرح الهوى آخرُ

◆ ◆ ◆

أدقّ على الباب

أقرأ صوتي

وأعرف أنك أنت الحَصان

مهما غزاك من الروم علج

ومهما تمادى سواهم من الروم

فإنك أنت الحَصان

على جبهة الدهر

من كل ثغر بعينيك من كل باب سيأتي الفرج

ومن كل باب ذراعان تحتضنان القوافل

تتوئين بالحمل حتى يحط الرحال

◆ ◆ ◆

أي سر تخبئه في الدوالي كبوح الثريا توهج مثل

الرضاب الشهية يحلو كقوس القزح

كتكويرة من رحيق الشفاه

كحلم اليتيم على الركن ينأى يعضّ الأنامل خجلى تلوب

على حلمة شنتها وهج هذا النهار

كجمر الرضاب يذوب وينأى كصوت الرصيف يلم جراحي

ويلهث حين أسير ورائي كظل

يلاحقني في ممرات هذا الزمان

السحيق بعيداً عن اللغو والعولمة

◆ ◆ ◆

قريباً من الفجر ارقب عينيك حين يغادرها وسن من خيوط المساء

ألتمُّ كالحزن يذوي رصيف جراح المحبين..

خبزي نداؤك يعلو بحجم الفضاء فأستل وقتي أكبُرُ

أعلن فجر الحياة وأعلن أن نسوغ الحياة تبدأ منك

وتمتد حيث المحبون كانوا ولا زال في العمر وهج بريق لطعم الحياة

ولا زال في رعشة الهدب طوق النجاة

◆ ◆ ◆

ومن فرجة الشغف اللاهث المتعب

هناك ينام حبيبي وحيداً

تداعبه في المساءات ريح الصنوبر

سعف البراري

هناك احتفالي وعرس دمي وتلويحة للسنابل تعشق

عرس الحضارة ما زال فيك يداوم

كل النهارات تحبو إليك دهوراً من الحب عبر التخوم السحيقة

تميل على غصنك البضّ زهرات أنثى كوشم تعلق بين الشغاف

◆ ◆ ◆

اغسليني بسعف الصنوبر فإن رمادك كالفستق الحلبي

توهّج كالأغنيات فأعلن صوتي نداء

لفجرك نحو السماء

يمرّ الصدى وابلاً من دعاء تضرّع: اسق العطاش

وارفق بنا وترحّم

هذا دمي فاسألوه عن الشهد

هذا قلبي لا يزال ندياً بنفح التلاوة من سورة الكوثر

وهذي خطاي إلى المجد

هلاّ سألت الخيول عن الصحب

قال المحبون: هذا طريق الحرير من المسك حتى الشغاف

من النسغ حتى الوريد

يزهو بعرس المدينة

بميقات سوق المدينة

حيث المرائس

حيث الحرائر

نهر الصبايا تدفق

أي وريد سيحمل قلبي

أدميْنَ قلبي

من النسغ حتى الوريد

وفجر الحياة كشريان نبضي تقطر منه الهضاب

هنالك حلم العذارى

يطرزن خدراً وحلماً وشرنقةً مثل حبل الوريد

وبوابةً للغد المقبل

تضوع كالطيب كالنفح بين النجوم تنام على سحب بضة

من رحيق الغيوم

◆ ◆



طريق المحبين نحو الحرير
فأين الوصول
وأين الدخول
وكيف المفارق تنأى بعيداً وتلتم فيك
تشكل عرس الحياة
كيف القوافل تترى بسوق المدينة
ويبقى الصدى لاهثاً لا يخيب
على رقمٍ من حروف المعاني
يترجم تلك النضارة يطرق درب الحضارة
شوق الحياة لعرس قديم جديد
أنا لهفة الرمل أحكي كتاب الخلود
وأقرأ سفر البداية
من قلعة الخلد
من قاعة العرش
ألهو بأسواقها أستزيد انتعاشاً
بخاناتها يلهث الشوق حتى يحط الرحال
ويعبر درب المحال
يترجم عهد النضارة
يفرش بالشوق والأغنيات ربيع الحياة
على حلم كان ينهض يفرش بالياسمين
دروب الحرير لتعبر قطر الندى
فالخليفة يعتصر الشوق وجداً
يتوق لعرس يزف إليه انتصاراً يتوج قلباً
ليجمع صمت الصحارى الطويل

❖ ❖ ❖

أمير البلاد
يا سيف دولتها
كيف يصحو الجواد
كبا ألف عامٍ وأغفى طويلاً
أما من رماد
يحرك جمر الصدى
وكيف تعيد إلى الحدث الآن لون الدماء
لترجع حمراء بعد اليباب

❖ ❖ ❖

يا أمير البلاد متى سترد العلوج
فإن الصدى لا يزال يجلجل
لا زال صوت أبي الطيب الفارس الملهم
متى ستعيد له الصوت؟
لا زالت الروم تحسب ألف حساب
لصوت المغني
دعوه
فإن الفراشات تبحث عن شدوه لتراقص موج الرياح
والفراشات تبحث على أحرف كي يُجسِّد هذا الصهيل
والفراشات تهفو لموج الرياح بُعيد الأفول
والسنابك لا زالت الآن ترسو
تشد الخيول
فمري على جرحه فالمجدُ في آل حمدان يزهو
كومض الجفون

أعيدي له الصوت
يخرج شوقاً من المستحيل
أعيدي له الصوت
فالليل يعرفه
والخيول
وبيد الدياجي
وعرس الفراشات بين الجراح
يناغي الشقائق حمراء تزهو
كلون الخضاب
وطعم الرضاب
وجمر الثريا
دعيه يغني
فإن الأزقة تحلو بوهج الصدى
وصهيل النشيد
بريحانة لا تزال على رعشة الانتظار

◆ ◆ ◆

فرشت طريق الحرير من الياسمين
وصليت خمساً
وبعد القيام الأخير
يجيء التهجد حين
دعوت بأن يزهر الجرح فيها
من البؤبؤ الوسني تمدين هذا الشراع
إلى الشمس
في رصيف جراح المحبين نبضي
وعرس دمي
في احتفال الحقيقة يزهو
بوهج الحصاد يداوم نحو الشموس
دهوراً

◆ ◆ ◆

تسافر أبوابك السبعة الحالمات
إلى النصر والفرج المقبل
وأخرى تسافر في الريح نحو المدائن
على كل نبض تقوم المنارات تشدو
وفي كل باب هديل يعانق وجه
المسافر:
يا حادي العيس إن الوداع
وإن اللقاء
على جبهة الدهر يحلو بأزكى رضاب
يا حادي العيس
شدّ الرحال
تلويحة المتعبين
لهاث الزمان وعمق المكان
وسورة نصر ستأتي

◆ ◆ ◆

فعرّج لكي نمسح الجرح
كي يكبر الشوق
شهباء عرس المحبين
صوت المحبين
هذا رصيفي
وهذي ذراعي
على جبهة الأفق تعدو
فودّعْ وقبّلْ خطاهم
فإن نهاراً
إن نهاراً سيأتي

◆ ◆ ◆

مشكاةٌ على الفردوس

(إلى حلب القديمة)

حسن إبراهيم حسن *

* شاعر ومهني نال العديد من الجوائز.

(١)

قمرٌ يُرفرِفُ في مرايا الماءِ
مشكاةٌ على الفردوسِ
أغنيةٌ تُهيِّجُ لسعةَ الذكرى
ارتعاشةُ طائرٍ في القلبِ مسَّتهُ خطى
امرأةٍ تسيرُ على مياهِ الروحِ
بوصلةُ الحنينِ لهودَجٍ يسري على قلقِ
المنافي
قُبلةٌ أولى
هديلُ حمامةٍ في الفجرِ
نرجسةٌ يكلِّلها الندى
نارٌ يؤجِّجُها المغيبِ على زجاجِ البحرِ
بوّاباتُها السبعُ[1] اختصارٌ
لانتصاراتِ الأنوثةِ
في مفاتنها العصيّةِ - كالسرابِ - على
(أزاميلِ) الطبيعةِ والجيوشِ
كأنَّها فرسٌ جموحٌ لم تُروِّضْها
الفصولُ البربَريّةُ وانحسارُ النهرِ[2] عن
جَسدِ المكانِ
يَلفُّها حَبَقُ البيوتِ
فتنجلي حُلماً شفيفاً حينَ تدهَمُها
الظهيرةُ،
ثمَّ يوغِلُ مرمرُ العتباتِ ليلاً في
ضراوتِهِ
ليشهدَ خيبةَ الغزواتِ،
يألفُها الغريبُ،
و تألفُ الغرباءَ
إنْ طرقتْ مساءَ عيرُهم ((بابَ
السلامِ))[3]
يلفُّهم دِفءُ الهديلِ: أن ادخلوها
آمنينْ...

(٢)

لها طقسُها الشخصيُّ في فوضى
الفصولِ،
على بساطتها غموضُ البحرِ في عينِ
المراكبِ
و التباسُ الماءِ في غَبَشِ السرابِ،
سريرها سهلٌ وصَعبٌ...
...كالتمائمِ حولها - في المهدِ - بوّاباتُها
السبعُ اختصارٌ
لاندلاعِ فصولها
فصلُ التجدُّدِ والتمرُّدِ وانبجاسِ
العشبِ من حَجَرٍ على أطلالها
فصلُ الوداعِ لخُضرةِ العينينِ والطيرِ
المهاجرِ كالغمامِ يشدُّهُ ظمأٌ إلى صلصالها
فصلُ الزوّاجِ البربَريِّ على قناطرِها
الخجولةِ بينَ صفصافٍ وظلِّ عابرٍ في ليلها
فصلُ انتظارِ العائدينَ من الحجازِ،
تُعلِّقُ الأحداقَ بالأبوابِ تنتَظِرُ
القوافِلَ،
كلَّما ارتَعَشتْ ضفائرُها على أكتافِ
قلعتها
اشرأبَّتْ للجنوبِ كأنَّها امرأةٌ تُفيقُ
على هواجسِ خيلها
و تُعِدُّ ثوبَ زفافها للقادمينْ

(٣)

و كأيِّةِ امرأةٍ على فردوسها العشرينَ
بوّاباتُها السبعُ اختصارٌ
لانبعاثِ الروحِ في جَسدِ المكان
كأنُّها الفردوسُ
إن صعدَ الربيعُ توشَّحَتْ بالخصبِ
كي تغوي القوافِلَ
بارتيادِ الحلمِ في وضحِ النهارِ،
علـى مشـارفها تـودِّعهم حُـزانى، ثمَّ
تحملـها الحنـاجِرُ حشـرجاتٍ في حـداءِ
العابرينْ

(٤)

للّيـلِ في أحـداقها كحـلٌ حجـازيٌّ
البريقِ،
و إنْ تخلَّلها شحوبٌ عابرٌ
عندَ ارتحالِ الصيفِ يغشاها الوقارُ،
على ذُرا الأشجارِ
تُسـدِلُ لونهـا القمحـيَّ شـاهرةً علـى
((تشرينَ))
طلعتها البهيَّةَ في اصفرارِ الوجنتينْ

(٥)

لها سطوةُ امرأةٍ على الغرباءِ إنْ
دخلوا مرايَاها غُزاةً صدَّعتهُم
بعثرتهم كالسُكارى في صدى خلخالها
ألقتْ ملامحها عليهم، ثمَّ رَدَّتهُمْ إلى
زوجاتهم أسرى مَفاتِنها
يُضرِّجهم سلامُ الياسَمينْ

(٦)

قَدْ بُحَّتِ الكلماتُ في قيثارةِ الشعراءِ
لكن
لم تُطاوِلْ كعبَهَا سُحُبُ المجازِ
و لا تراتيـلُ الـذينَ اطّوَّفـت ببيـارِقِ
السـورِ القـديمِ خيـولهم حـتى امّحَـتْ
حذوَاتها،
لكأنَّها ذكرى التقاءِ المرأةِ الأولى
تخـونُ لغاتنـا وتمـرُّ في دَمنـا ارتعاشـاً
واندهاشاً في مرايا المقلتينْ...

(٧)

جهةٌ على كلِّ الجهاتِ،
ضفيرةُ امرأةٍ يُعَمِّدُها الرذاذُ،
أناملٌ تغفو على عُنُقَ الكمانِ،
حمامةٌ،
قمرٌ يُظَلِّلُ عاشقينْ...

حواشي:

[١] بواباتها السبع: هي أبواب مدينة حلب السبعة.

[٢] انحسار النهر: جفاف نهر (قويق).

[٣] باب السلام: أحد أبواب المدينة، وهو باب مندثر

صلاة..

صهيب عنجريني *

... وكم ذا
يحج إليها العقيق،
ليعمر في كل شبر له
مسجدا...
وكم تستفز أنوثتها الشعر،
يهبط فيها أميناً،
لينفخ من روحنا
لاثما حلمات الهواء،
فيونع نبض زقاقها
واجدا....
دعوها...تلبسني في التباكير،
طافحة بالندى
دعوها...
ففي الصبح إذ يتنفس
سوف تنفسني،
كي تعيد حفاوتها بالحياة،
أنا المبتدأ....
وتخبر عني التفاصيل:
عصفورة في مهب الأريج،
غصون تلفع بالورد،
توق الصبايا،
أحاديث جاراتي أمي
على قهوة لم يزل هالها
واجدا...
ولدتني المدينة؟
أم كان قلبي لها والدا؟
يا ابنتي...
أسري في الآن في العطر،
إن لعشاقك الصب حقاً،
فيمسي على صفحات القلوب
كما أنت...
من قال إن المدينة
أضواء باذخة في احتفال أنيق؟
-أنا يا أبي...
لم أغادر صباي
منحت لوراد عدني
بكر الرحيق،
وأعناب فادحة الخمر،
قمحاً...
وقطناً...

* شاعر ومسرحي عرض الكثير من مسرحياته في حلب



وفستق وجد ،
جنته يداي..ولست لأحفل
باللاهثين
على درجات الرياء المراوغ،
فالعابرون
هم العابرون...
وزيتي عصي على الوقت،
لست لهم يا بني،
أنا للنسيمي،
للخيل..والليل،
يا أبني...
أنا لك
-يا أم...
ها شف ماء بعيني عنك،
موردة الوجنتين...
وشاهقة الحزن...
أشهد،
طينك أشهى من الدجلتين
حصانك..يواقت
هذي المواقيت سادنة فيك خصب
المواسم
تشهد....

وتنسك فيك حمائم
أمتك من كل فج تأبد.
....فكم
يتها المستحيلة داريت سوءات
أبنائك
الآبقين..
بما رحمة لنت،
أشرعت أبواب روحك،
أعلنت (هيتك) للتائبين..
....
مهيلك...
هل يدلفون بدون وضوء؟
لهم ماء قلبي،
كي يدخلون إذاً
آمنين

أنثى ٠٠٦

المأمون قباني*



بوح من السحر أم فوح من العطر ... أم ضمة الورد في الخدين كالخدر

هل شفها الوجد للأقمار تلثمها ... أم يلثم الشهد عنابا على الثغر

ترنو لكأس الهوى صهباء عاشقة ... والكأس من خمرها نشوى من السكر

هل شدها الكأس تغويها أطارفه ... أم أن للكأس في العينين ما يغري

همس الطيوب على أعطافها نغم ... ينساب كالنسم الريان في الفجر

من سندس لبست عن نرجس كشفت ... في فتنة سفرت كالكوكب الدري

يصحو الصباح على أهدابها فرحا ... يغفو المساء على شلالها السحري

في هدأة الليل يحلو همسها غزلا ... كالوشوشات..كموج الليل في البحر

غنَّت بلا بلها للقد أغنية ... ماس القصيد بها في مربع الشعر

يشدو الكنار بأوتار الحنين ... ماشفه الشوق للبستان والنهر

رباه..كيف لنا أن لانهيم بها ... والكبرياء على أبوابها العشر

شاب المغيب على أسوارها ففدت ... شهباء..أحجارها تنبي عن العصر

---

*مهندس شاعر وقاص اصدر العديد من الكتب

أضفى الشموخ على أبراج قلعتها … نبلا تسامق فيه قمة النسر

خذ حفنة من ثرى أطلالها لترى … أبطالها الصيد كم سادوا على الدهر

تستل سيفا من التاريخ يجعلها … في موكب المجد..من عز..ومن نصر

برد الحضارة في آلائها.. سمة … نسغ الثقافة في أوداجها يجري

تختال في حقب الماضي على ألق … تستاف من عبق الآتي بلا نزر

العبقريون في تاريخها..كثر … والعبقريات فيها موئل الفخر

في كل مفترق فيها.. لهم صور … تروي زخارفها الإبداع با لحفر

في كل زاوية ركن به قلم … في كل مكتبة فيض من الفكر

في كل زخرفة حرف له لغة … في كل مئذنة حرب على الكفر

تدعو الإله بآلام المسيح..كما … يدعو الصليب بآيات من الذكر

قدس العروبة والإسلام موئلها … قدس المسيح.. مشى فيها على الجمر.

بغداد..هبي ولا تصغي لتفرقة … في الموت..لا فرق بين القبر والقبر

بغداد..من شيم الأبطال أنهم … لا يسذعنون ولا يرضون بالأسر

فالغادرون بغوا فيها بلا خجل … يستأسدون على الاطفال بالغدر

شنو بظن على الإسلام حملتهم … لكنهم فجعوا بالخسف والخسر

في ظنهم.. رهب.. في عقلهم رعب … في فعلهم هرب..كالأرنب البري

والنائمون عن الإجرام من وجل … يستكبرون على الأيتام..بالقهر

شدوا النقاب على الأبصار واحتسبوا … إن الشعار نعام..في ردا الصقر

أفديك ياحلب بالروح أرخصها … لكنها القدس.. من بغدي لها يسري

أم البلاد..وان الأم سيدة … قد خصها الله بالتبجيل والكبر

والأم أنثى..ومنها تولد الدنيا … من نبضها ترضع الآمال بالصبر

فيها الجمال وفيها كل مأثرة … "فينوس" في فيئها تطوي عن الذكر

فيها الحنان وفيها الحب مختزن … فيها الوفاء وفيها الجسد بالهذر

فيها وفيها..وما فيها يليق بها … فيها..وما فيها قد ضاق بالحصر

لا تكتم السر إن أحببتها أبدا … أحبب بها بلدا في السر والجهر

تأبى الحجارة الاعشقها.. ولها … عند البناء سيوف النهي والأمر

قلبي عليها ولكن قلبها حجر … للعاشقين غدا أقسى من الصخر

إن ما جفت زمنا..إني لعاذرها … لكن في جفوها..لا.. ليس لي عذري

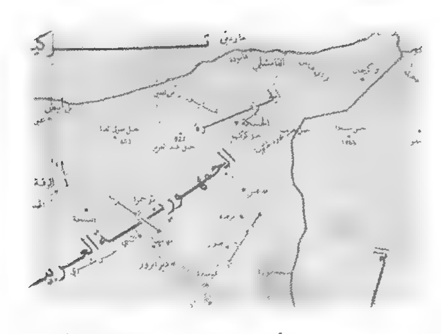
حيث اتجهت فلا أرجو سوى حلب … إني بها كلف ما امتد بي عمري

هلا درت حلب أني بها كلف؟؟ … واحسرة حرى إن لم تكن تدري

التاريخ الشفوي

(الجزيرة السورية أنموذجاً)

محمد السوري*



عرف العرب منذ القدم التاريخ الشفوي الذي يعتمد روايات شهود العيان، وهي الطريقة البدائية البكر لمحاولة معرفة الزمن، وامتدّ العمل بهذه الطريقة رغم تطور العلوم التاريخية، وقد أثرى التطور النظري والمنهجي لتلك العلوم التاريخ الشفوي كممارسة لأنه أوجد الأدوات المعرفية لتحديدها فضلا عن الجدل والمناقشات الحادة التي أثيرت عن طبيعة العلاقة بين التاريخ والذاكرة: الماضي والحاضر، فإن هناك مجموعة من الأفكار والمناظرات الإشكالية حددت شكلاً معاصراً للتاريخ الشفوي ومن هنا تأتي مناقشة أخلاقية أخرى عن مدى قيمة التاريخ الشفوي وشرعيته.

لقد أرّخ العرب بالأحداث الهامة النادرة كالظاهرات الطبيعية من: خسوف وكسوف وفيضانات وبراكين وزلازل، أرّخوا بالأحداث الإنسانية: كالحروب والموت والزواج والسفر، وحيث لم تكن للعرب دولة واحدة في شبه الجزيرة العربية ولم يكن لديهم عادة كتابة التاريخ لغياب الأسباب والدّواعي الملّحة لذلك، فالأشعار التي تتحدث عن بطولات قبيلة ضد أخرى أو تتحدث عن معركة أو بعض الخصال كانت تفي بالغرض لحدود الذاكرة الموظفة بمسألة توكيد الذات الفردية أو الجماعية.

* باحث، له العديد من المؤلفات.

وفي جاهليتهم عرفوا أياماً جعلوها محطات تاريخية كعام الفيل ويوم ذي قار وغيرهما، ورغم معرفتهم بالتاريخ المدوّن في الإسلام ولاسيّما بعد الهجرة التي اعتمدت كبداية للتاريخ عند المسلمين وهي بحدّ ذاتها كانت حدثاً مهماً في حياتهم وعندما نهى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أثناء واقعة مذاكرة الشاعر حسان بن ثابت مع الشاعرين عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب، فقد نهاهم عن تلك المذاكرة التي كانت بمثابة إشارة للامتناع عن ذ كر أخبار ما قبل الإسلام وعمت تلك الظاهرة سائر بلاد المسلمين، حتى عهود متأخرة إلا أنهم سمّوا السنين بأسماء الأحداث الكبرى التي حصلت كامتداد معرفي للطريقة العربية في التاريخ، فسمّوا السنة الثانية للهجرة بسنة الأمر بالقتال، ثم تلتها سنوات التحميص والترفيه والأحزاب والاستئناس والاستغلاب والفتح وحجة الوداع، أما السنة الحادية عشرة للهجرة فكانت سنة الوفاة وأرّخوا: بحلف الفضول، وحلف المطيبين وعام الرمادي وأطلقوا على الغزوات أسماء الأمكنة: كبدر، وأحد، والخندق وهكذا.

ونقول: العربي أهمل تاريخ الأحداث وتدوينها لأنه مسكون بالنتائج بسبب جدّيته التي أملتها بيئته الثقافية لكنه سرعان ما يستحضر تلك التفاصيل والأسباب بعد الاطمئنان على الخاتمة، كما تأثر العرب في ظل الإسلام بالمنهج القراني في ذكر القصص حيث لم يدون القرآن الأحداث بتاريخها بشكل مباشر وإن ذلك يعدّ من الإعجاز الذي لم تفهمه العامة من الناس وظلّت مسألة كشفه في عناية المفسرين والعلماء ففي مطلع سورة الروم لم يحدد البيان الإلهي السنة التي ستغلب فيها الروم فارس بل جعلها (في بضع سنين) لأن التاريخ هنا غير مهم بالقدر الذي تحمله البشرى الإلهية (ويومئذ يفرح المؤمنون) الروم فكان هذا الإخفاء المباشر للزمن بمثابة الإشارة إلى أهمية الحدث لا إلى أهمية تاريخه وزمنه.

الجزيرة السورية أنموذجاً

لقد عرف أهل الجزيرة السورية- كغيرهم من العرب- هذه الطريقة في تسمية السنين بالأحداث التي وقعت فيها وقد ورثوا طريقتهم هذه بالتواتر كحالة امتداد معرفي فرضتها بيئتهم الثقافية العربية ونمط حياتهم الاجتماعية القبليّة.

أما أهم حالات التأريخ التي يتداولها الناس فهي الظاهرات المناخية وأهمها حالة نزول الثلج باعتبارها من الحالات النادرة في الجزيرة ذات الجو الصحراوي الحار صيفاً والبارد الجاف شتاء، مما يسببُ القحط الذي لا يبقي ولا يذر حيث تموت المواشي والزروع، فتكون هذه السنين علامات فارقة في الزمن لا يمكن للجزري نسيانها ومن هذه السنين:

١- سنة ذرَّاية (١٩١٠) من ذرّا نشر والذر: الهباء المنتشر في الهواء ومنها ذرا البيدر: نشر التبن وأبقى الحب، ومن هنا اشتقوا اسم هذه السنة فشبهوا الثلج بالتبن المتناثر من البيدر، وهي السنة التي ذرت الثلج وقيل إن ارتفاع الثلج بلغ شبرين (نصف متر) أو كما قالوا من مبالغات: وكان ثلجاً أحمراً نخاله يحمل أتربة من رياح خماسينية مغبرّة فسمّوها بسنة الثلج الأحمر كما عرفت بسنة الدمّام أي أن الثلج

قد غطى الأرض تماماً وفي تعبير أهل الجزيرة (دمّ) تعني طمر بالتراب ومنها دمّ الميت دفنه، ولأن الثلج غطى الأرض تماماً سمّيت بسنة الثلج الدمّام وقد هبّت عاصفة سوّت الأرض حيث جرفت الثلج من المرتفعات إلى المناطق المنخفضة ولذا سمّي بثلج الدمّام وتمّ التأريخ بهذه السنة وذلك لغرابة الحدث حيث أن الثلج من الظاهرات شبه النادرة في معظم بلاد العرب ولهذا لا نجد للثلج مرادفات في اللغة العربية.

٢- **سنة الغلاء (١٩١٦)**: هنا لا يعني المفهوم غلاء الأسعار بالتعبير الاقتصادي والتجاري، ففي تعبير العامة الغلاء: هو القحط وكان سببه انحباس الأمطار عن الجزيرة. وقد شهد هذا العام أحداثاً مهمة كالثورة العربية، وسفر برلك المعروفة بالسوقيات.

٣- **سنة الوسميّة (١٩١٧)**: سنة الوسم هي سنة الأمطار الغزيرة عندما تهطل مبكراً، وقد أرّخوا بها لأهميتها في حياتهم بعد سنة من القحط والجفاف.

٤- **وقعة بياندور (١٩٢١)**: كانت الحامية الفرنسية تتمركز في قرية بياندور قرب القامشلي وتتكون من حوالي/ ٣٥٠/ جندياً بقيادة الجنرال (روغان) وقد منعت قوات الاحتلال الأهالي من ورود الماء، فاجتمعت قبائل المنطقة وطوّقت الحامية من جميع الجهات وقضت على الحامية وقتلت قائدها (روغان) ولا يزال يدور جدل بين هذه القبائل للتفرّد بشرف مقاومة المستعمر، لكنهم أجمعوا على اعتماد هذه السنة كتاريخ مهم في حياتهم جميعاً.

٥- **سنة لوفة (١٩٢٥)**: وهي سنة برد شديد -بحسب المعمّرين- قيل أن الفرات ودجلة تجمّدا في هذه السنة وإن الجمال عبرت بأحمالها من فوقهما، وفي اللغة لاف الطعام أكله، وفي تعبير العامّة يقال: (لافت الناس) فصلت بينهم وبين مواشيهم وفي هذه السنة تأسست مدينة القامشلي فهي بذلك تتزامن بولادتها مع الثورة السورية، وإن القامشلي تمصّرت في هذا العام وهذا لا يعني البتة بداية الوجود البشري فيها، وأي زعم من هذا القبيل يجافي الحقائق التاريخية.

٦- **سنة الجراد (١٩٢٦)**: وقد غزت المزارع أسراب هائلة من الجراد وقام الأهالي بحفر الأنفاق والسواقي، والضرب على الدفوف وصفائح التنك وإطلاق الرصاص، فعبرت أسراب الجراد نهر دجلة باتجاه الشرق، وهو عام بناء أول جامع في القامشلي، كما بنيت في عام ١٩٢٨كنيسة مار أفران النصيبيني من اللبن.

٧- **سنة موّاصة (١٩٣٠) في اللغة الموّاصة**: الغسالة أي ما غسل به الثياب أو الإناء ولعلهم يقصدون بهذه التسمية إنها سنة جدب ومحل فقد ماتت المواشي كالأغنام والماعز جوعاً من شدة البرد والقحط ويقال: إن الثلج دام على الأرض أياماً، وتعرف هذه السنة باسم سنة (ضوّاية) الضاوي في اللغة: الآتي ليلاً، وفي تعبير العامة ضوى البعير أناخ ومن المفهوم نستدل على أن الثلج دام في الأرض، كما عرفت بسنة أم عظام أي أنها لم تترك سوى عظام تلك المواشي.

- وفي هذا العام تم بناء دار الحكومة في القامشلي.

- وبنيت في العام /١٩٣١/أول مدرسة رسمية للمعارف باسم مدرسة صقر قريش.

٨- طوشة عامودا (١٩٣٧): أرّخوا بهذه السنة حيث ضربت قوات الاحتلال الفرنسي بالطائرات بلدة عامودا الواقعة شرقي القامشلي /١٤/كيلو متراً، وأحرقت بعض أحياء البلدة وقد تصدى لها الأهالي وقاوموا قوات الاحتلال وأخرجوها من البلدة.

٩- سنة الجدري (١٩٤٢): وقد عم المدن والأرياف وباء الجدري مترافقاً مع وباء الملاريا، حيث قامت الحكومة بتشكيل لجان لمكافحته، برئاسة الدكتور بكري قباقيبي، وقد قضى خلق كثير بهذا الوباء الفتاك، والملا ريا كانت منتشرة كوباء منذ تأسيس المدينة وأستمرت لغاية الخمسينات وسبب ذلك يعود إلى وجود المستنقعات الكثيرة والأشجار الكثيفة ونباتات القصب والقاميش والسوس والزال وغيرها لاتي تغطي مساحات واسعة على أطراف النهر وانتشار البعوض وأنواع الحشرات فيها، كما كانت مأوى لقطعان الخنازير والثعالب والذئاب والهوام المختلفة، ويعد وادي الجراح ومستنقعاته الكثيرة أحد أسباب أنتشار الملاريا فضلا عن كثير من الأمراض التي تعرضت لها المواشي، واجتاحت أسراب الجراد في هذه السنة مزارع المنطقة مرة أخرى، وعرفت أيضاً باسم سنة الجراد.

١٠- سنة السبع ثلجات (١٩٤٣): سبع ثلجات وفي هذه السنة تجمد وادي الجراح أحد روافد نهر جغجغ

(الهرماس) الذي ينبع من طور عابدين مروراً بنصيبين ويرفد الخابور، ومن التسمية يتبين أن الثلج قد نزل على الجزيرة سبع مرات وتسمى أيضاً بسنة العايشة من العيش والإعاشة: توزيع الأرزاق والمؤن على الجماعات.

١١- سنين الميرة (١٩٤٠ لغاية ١٩٤٥): أسس الأحتلال الفرنسي ما يعرف بالميرا وعين ضباطاً فرنسيين فيها وتمت مصادرة أنتاج الفلاحين من الحبوب من قبل قوات الأحتلال الفرنسي، وكانت ترسل لجان التفتيش على الحبوب والمؤن في المنازل وتنبش ما خبئوه في حفر تحت الأرض كانوا يسمونها (الجفر) وشهدت هذه الفترة دخول أول حصادة آلية لحصاد حقول الأرز حيث كان المحصول الرئيسي للجزيرة، وأول جرار زراعي ويؤرخ أهل القامشلي خاصة بسنة أسمها (سنة مانوك) تقع - على الأرجح - ضمن فترة الميرا وهي سنة مجاعة، تم فيها توزيع الطحين على الناس من مطحنة مانوك في القامشلي.

١٢- زيارة الرئيس شكري القوتلي للقامشلي (١٩٤٧/٥/٥): حيث وضع حجر الأساس للمشفى الوطني في شارع القوتلي، كما سمي فيما بعد أما الزيارة الثانية فكانت في ١٩٥٥/١١/٢٠.

١٣- المقاومة الشعبية (١٩٥٦): وقد أطلق مشروع المقاومة الشعبية ضد التهديدات التركية لسورية، أبان الأحلاف الاستعمارية والعدوان الثلاثي على مصر.

١٤- سنة جمال ١٩٥٩: وفي هذا العام زار الرئيس جمال عبد الناصر مدينة القامشلي، وألقى خطاباً على الجماهير، وكانت سنة قحط بسبب انحباس المطر، وهذه السنة تذكر لشدة المجاعة التي تعرضت لها المحافظة.

١٥- حريق سينما عامودا في ربيع عام ١٩٦١: وفي هذه السنة أحترقت السينما بينما كانت تعرض فلماً لأطفال المدارس يعود رعيه لدعم الثورة الجزائرية، وقد قضى حوالي ٢٠٠ طفلاً منهم، وقد ذكرت روايات عديدة عن أسباب الحريق منها: كثرة استعمال الفلم فارتفعت درجة حرارة المحرك بينما جدران السينما مغطاة بالخيش، الذي أحترق وأحرق السينما ومن فيها ويتوسط البلدة اليوم نصب تذكاري للشهداء الأطفال.

١٦- سنة الكوم ١٩٧١: وهي سنة مجدبة بيعت الغنم بالكوم أي بالجملة وقيل أن رأس الغنم بيع في القامشلي بكأس من الشاي في المقهى.

ونحن لا نزعم أي تاريخ مؤكد ودقيق لهذه السنوات لأنها من مصادر شفاهية تعتمد على ذاكرة بعض المعمّرين في المنطقة ذلك لاعتماد الفئات الشعبية على الذكر الدوغمائي للأحداث مجهولة التاريخ على طريقة التقريب أوالذكر الوهمي مما يضيع هذه الأحداث ولاسيما عندما لاتقترن بالظاهرات المعروفة فاستعملوا عبارات فانتازية مثل (سنين الترب) للدلالة على الأحداث القديمة جداً. أو ذكر أحداث تارخية واقعية لكنهم لا يعرفون تاريخها كعبارة (منذ خراب البصرة) من قبيل المبالغة.ولكن كيف تم تحديد هذه السنين بتاريخها المتفق عليه كما هو؟ فإن (العوارف والحسّابة) لديهم معارفهم الخاصة لتحديد التاريخ وحسابه فهم يقولون: ذرّاية قبل الفرمان التركي ولجوء الأرمن إلى الجزيرة (١٩١٥) بخمس سنين، ومن ذرّاية إلى لوفة خمس عشرة سنة، ومن لوفة إلى موّاصة خمس سنين، ومن موّاصة إلى سبع الثلجات ثلاث عشرة سنة، ومن سبع الثلجات إلى الوطنية ثلاث سنين، أما الوطنية فهي عام أستقلال سوريا (١٩٤٦) وهكذا يتم حساب السنين لديهم، وحفظها بالتواتر والتأريخ بها فهي محطات يتم بموجبها حساب أعمارهم ووفيات مشاهيرهم، وأحداثهم من زواج وطلاق ومعاملات طويلة الأمد كبيع الأراضي واستملاكها، وعمارة القرى، وتاريخ سكنهم في هذه الديار أوتلك أوالرحيل عنها، واتفاقات بيع الخيول أو محاصصتها لآجال بعيدة. وهذه السنون تتخللها عادة أحداث صغرى ليس لها صفة العمومية لأنها قد تخصّ جماعة محددّة أو فرداً فلم تلحظ بشكل دقيق لكنها لم تهمل إهمالا كاملا، كالتأريخ للشخصيات الاجتماعية من الزعماء السياسيين ومشايخ الدين، وشيوخ القبائل، بتنصيبهم ووفياتهم أو أعمالهم المختلفة. وحتى على مستوى الأسرة الواحدة فهناك تواريخ شفاهية يحفظها الوالدان ويحلو لهم تكرارها على مسامع أبناءهم، ليحفظوها، ثم يجعلوا مقاربة بينها وبين الأحداث الموازية لها فهم يربطون هدفاً بحدث آخر له أهميته القصوى لديهم.كأن يقاربوا تاريخ زواج أو وفاة أو ولادة أحد أبناءهم، بتاريخ الرحيل في الربيع إلى مناطق الرعي والعودة في أول الشتاء، فهم يحفظون هذه السنين ويذكرون أحوال كل سنة منها تبعاً لمستوى الربيع فيها، أو ما جرى لهم من أمور خلالها، ويربطونها بأحوالهم الراهنة وقد يذهب بهم الميل الشديد لمشافهة تواريخهم إلى المقاربة بين أعمار خيولهم ومواشيهم مع بعض الظاهرات والأحداث

المهمـة في حياتهم لتأكيـد معرفتـهم أمـا طريقتـهم في حسـاب أعمـارهم وأجيـالهم فتعتمد على حساب الفروق بينها ومقارنتها فيقال مثلا: (أنا حملتك على رقبتي) دلالة على أنه يكبره بحوالي خمس عشرة سنة، ويقال أيضاً: (أنا دبكت في عرس أمك)، أو (أكلت من صبحة أمك)، أو (كنت من زفّافة أمك) وللتعبير عن التقارب في أعمار فئة منهم يقول قائل منهم كلنا (قطع سنة) ويقول: (أنا ابن مّواصة، وأنت ابن لوفة) يعني أنه يكبره بخمس سنين. وعبارة (أنت واعي جدّي) وهكذا... والمثل الشعبي القائل: (الشهر المالك بيه خبز لا تعدو ولاتعد أيامه) يكشف للدارس طريقة العرب في الاهتمام بالزّمن فهم لا يعتنون كثيراً بالزمن المجردّ، بقدر ما تهمهم أحداثه. ونؤول سبب هذه النزعة لديهم إلى شظف العيش ومكابدة مكدّراته ومنغّصاته فلديهم دوماً ما يشغلهم عن الاهتمام بالمجردّات.

ومن خلال حرصهم على مذاكرة تلك السنين تتجلي أمام تتبعنا للحيثيات السلوكية لدوافعهم من المذاكرة الدائمة معطيات هامّة نستخلص من دراستها وتأويلها، أنّ أثرها في نفوسهم دفعهم دفعاً باتجاه تأريخها مما أوجد عندهم نوعاً من الاهتمام بعلم التاريخ ولما كان لهذه السنين تأثيرها في مجرى حياتهم فذلك يولد الحاجة الملحة الأخرى لديهم وهي تطلعهم إلى المستقبل والاعتبار من هجمات الطبيعة المفاجئة ولاسيما أنهم امتلكوا خبرات كبيرة في إدارة الأزمات والكوارث، والصراع مع الطبيعة وما هذه الشجون المتواترة والمتكررة سوى دروس للأجيال ونقل للتجارب والخبرات والأمثلة عبر الزمن. فقالوا مثلهم المشهور (المايونّي يغرق) لتأكيد ثلاثية الزّمن بأبعاده الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل.

إن دراسة ظاهرة التاريخ الشفوي للسنين وتوثيقها التاريخي تعدّ ضرورة ثقافية وعلمية وقد يستنبط منها الدّارس والباحث في شؤون علم خصائص الشعوب وتطورها معطيات معرفية مهمة ومدخلا لفتوحات في مجال الدراسات المستقبلية وقد حرصنا في هذه الدراسة على مقاربتها مع أهم أحداث التاريخ المدّون، مما يتيح لنا اعتماد توثيقها على أنها من أحوال تلك السنين التي وقعت فيها تلك الأحداث المعروفة، كأسباب المعيشة وأشكالها في الرخاء أو القحط فنهيىء لدراسة تاريخية شاملة للتاريخ الشفوي لقطرنا توثق تاريخ الشعب وتراثه غير المادي، ولا تقتصر على ذكر خجول للمحطات التاريخية الرسمية.

ويمكن أن ينهض بهذه الدراسة مركز للدراسات التراثية لو هيئ لإحداثه■

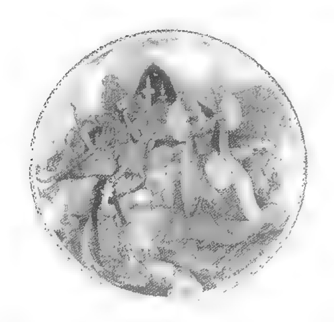


الواقعي والتخيلي

في ألف ليلة وليلة

محمد عبد الرحمن يونس *

ما من عمل أدبيّ شعبيّ نال شهرة واسعة في آداب المجتمعات الإنسانيّة أكثر من ألف ليلة وليلة. وكثيرة هي الدراسات التي تناولت هذا العمل في جوانبه المتعدّدة، بوصفه نتاجاً معرفيّاً وحضاريّاً لكثير من الأمم والشعوب. ويمكن القول: إنّ حكايات ألف ليلة وليلة تعبّر عن مخزون الذاكرة المعرفيّة الجمعيّة للمجموع الإنسانيّ عبر رحلته التاريخيّة والحضاريّة، هذه الذاكرة التي عايشت تاريخ المجتمعات، وعاداتها وأحوالها، والتحولات الفكريّة والسياسيّة لهذه المجتمعات في تطوّرها الحضاريّ. ومن هنا فإنّ السرد الحكائيّ في ليالي ألف ليلة وليلة ليس سرداً بعيداً عن الإيديولوجيا الّتي تشكّل خلفيّة معرفيّة، يؤسّس عليها الرّواة مقولات أبطالهم الفكريّة، حركة هؤلاء الأبطال، وما يقومون به من أفعال، وليس هذا السرد بعيداً عن التاريخ والسياسة. وكل محاولة لدراسة حكايات ألف ليلة وليلة بعيداً عن بنية المجتمعات التي تتحدّث عنها اللّيالي ستفرض علينا اعتبارها عملاً



تخيليّاً صرفاً، وبالتالي ستفقدنا المتعة الكامنة في السرد الحكائيّ المرتحل في مدن هذه المجتمعات، وفضاءاتها المتعددة، وعلاقاتها الإنسانيّة والطبقيّة الّتي يمكن أن تكون علاقات قد قامت فعلاً، في زمان تاريخيّ معيّن، وفي فضاء مكانيّ معروف.

وإذا كانت حكايات ألف ليلة وليلة تنهل من كثير من الأبعاد الأسطوريّة والخرافيّة، والأحلام البشريّة الجمعيّة

---

* باحث وأستاذ جامعي، وقاص.

الجامحة للطبقات الوسطى والفقيرة، فإنّ ذلك لا ينفي أن تكون هذه الحكايات قد نهلت من بنية الواقع بعلاقاته وعاداته، ومكوّناته الفكريّة والرؤيويّة، ولا ينفي أن تكون هذه الحكايات رصداً أنثروبولوجياً لحضارة الجماعات البشريّة بأزمنتها وأمكنتها، لأنّ هذه الأزمنة والأمكنة -وإن كان من المحتمل أن تكون تخيّليّة- متشكّلة بفعل الخبرات المعرفيّة للرّواة الذين قرأوا كثيراً من معارف عصورهم والعصور التي سبقتهم أو حفظوها بعد أن سمعوها شفاهياً - قد تكون حقيقيّة، بل هي أقرب إلى الحقيقة منها إلى التخيّل.

إنّ وضع اللمسات على الحدود الفاصلة بين ما هو واقعيّ وبين ما هو تخيّليّ وحلمي في ألف ليلة وليلة من الصعوبة بمكان، إذ لا يمكننا أن نحدد بدقّة متى ينتهي الواقعيّ ومتى يبدأ التخيّلي، لأنّ الواقعيّ في مدن ألف ليلة وليلة يبدو أحياناً أغرب من التخيّلي نفسه، من حيث سحريّته وعجائبيّته.

وكذلك نجد أنّ السّرد التاريخي في حكايات ألف ليلة وليلة، وفي بعض الأحيان، لا يعني مجرد ذكر الحادثة التاريخيّة بشخوصها وأفعال هذه الشخوص، وعلاقاتهم في الزمان والمكان، بل هو يخرج عن إطار الحدث ومحدوديّته ومصداقيّته، ليصبح سرداً مؤسطراً يتجاوز ما هو تاريخيّ إلى ما هو تخيّلي وحلمي. فعلى سبيل المثال يُلاحظ -أحياناً- أن السّرد الذي يذكر الخليفة العباسيّ هرون الرشيد يتخطّى حدود التاريخ، ليُدخل هذا الخليفة في دائرة العجائبيّ الأسطوريّة، إذ يبدو مستهتراً ماجناً، وعاشقاً مغتلماً، لا همّ له إلاّ إشباع لذائذه الجنسيّة، وباطشاً مستبداً بأقرب المقرّبين إليه، وزيره جعفر البرمكي، وقادراً على إخضاع الجان لمشيئته.

ويبدو أنّ الراوي سبق له وأن رأى كثيراً من أخطاء الدولة العباسيّة، وتجاوزات خلفائها وسلطاتها لما هو شرعي ودينيّ وأخلاقي، فعمد إلى تبنّي إيديولوجيا مضادة لإيديولوجيا هذه الدّولة، ومن خلال هذه الإيديولوجيا المضادة أضفى على تاريخ خلفاء هذه الدولة -ومنهم الخليفة هرون الرشيد- سرداً نأى عن الحدث التاريخيّ بواقعيّته، وحقيقة أبطاله، ومسيرتهم التاريخيّة، على أنّ أيديولوجيا الرّاوي في نهاية المطاف ليست فردية، ولا يمكن أن تكون كذلك، لأنّها تمثّل رغبة الجماعات المستضعَفَة - بفتح العين- والفقيرة، والمحرومة، في الدولة العباسيّة وتطلّعاتها. ومن هنا يبدو طبيعياً أن تشكّل نصوص ألف ليلة وليلة حقلاً مرجعياً، ووثيقة تاريخيّة واجتماعيّة، يمكننا من خلالها أن نفهم طبيعة الإنسان والمجتمع، والحضارات الإنسانيّة، وقيمها وأعرافها، وأنظمتها الفكريّة والسياسيّة، إذ لا يمنع التخيّليّ الخارق في ألف ليلة وليلة هذه الليالي من أن تكون هذا الحقل المرجعي، لأنّ التخيّلي -ومهما كان خارقاً وعجائبياً- فإنّه في نهاية المطاف يستمدّ كثيراً من عناصره التخيّليّة من الواقع وإشكالياته، وحركته، وقبحه وجماله، وأحلام جماعاته، وهو بهذا يعمل على تخطي هذا الواقع، ليؤسّس مكوّناته التخيّلية الجمالية المتجاوزة لهذا الواقع، والقادرة على الدخول بالذات الإنسانيّة إلى عوالم سحريّة أخّاذة مليئة بالدهشة

والغرابة.

وإذا كانت بعض العلاقات الاجتماعيّة والسياسيّة التي ظهرت في مدن ألف ليلة وليلة علاقات عجائبيّة سحريّة لا تتحقق إلاّ في الحلم والتخيّل، وأوهام الذاكرة، ووفقاً لنسق ميثولوجي وسحريّ، فإنّ كثيراً من مدن ألف ليلة وليلة كانت مدناً واقعيّة معروفة بتاريخها وحكّامها، وطبيعة الحياة فيها بمختلف أشكالها، لقد قامت هذه المدن منذ القديم، وعُرِفت، ولا تزال معروفة حتى الآن، ومن هذه المدن: بغداد والبصرة والكوفة، ودمشق، وحلب، وصنعاء، والقاهرة والإسكندريّة، وفاس ومكناس، وغيرها من المدن الكثيرة التي ذكرتها نصوص الليالي، في حين أنّ مدناً وجزراً أخرى ذكرتها الليالي، كانت غاية في العمران والهندسة المعماريّة الفائقة فنّاً وإبداعاً، وتخطيطاً جمالياً مدهشاً، غير أنّ هذه المدن، إذا حاولنا أن نتتبّع معالمها على الخريطة الجغرافيّة الحديثة -بعد أن تشكّل العالم الحديث تشكّلاً جغرافياً جديداً ومعروفاً من حيث معالمه وحدوده وبحاره ومحيطاته، وعواصمه ودوله- فإنّنا لن نجد أسماء لهذه المدن. فإمّا أن تكون قد اندثرت بفعل عوامل الطبيعة من زلازل وبراكين، وسيول وأنهار، وإمّا أن تكون قد تغيّرت أسماؤها، بفعل التحولات التاريخيّة والجغرافيّة التي تعرّضت لها قارات العالم وفق تشكّلاتها الجديدة، وإمّا أن تكون مدنا قد تشكّلت مورفولوجيّاً وجمالياً وفق رؤية الرّواة الجماليّة الخاصّة، ومن خلال عمليات التخيّل والحلم، أو من خلال المثاقفة الفكريّة والحضاريّة بين ثقافة رواة ألف ليلة وليلة وبقيّة الثقافات الأخرى، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ هؤلاء الرّواة كانوا على قدر كبير من العلم والمعرفة، إذا اطّلعوا على ثقافات الشعوب وعاداتها وتاريخها وأدبها، وعادات مدنها. وإمّا أن تكون هذه المدن قد خُرِّبت وتهدّمت بفعل صيرورة التاريخ نفسه، وحركات الاضطراب والفتن والثورات المعارضة والحروب، وبالتالي تأسّست مدن جديدة بدلاً منها، وبأسماء جديدة، وإمّا أنّها انتهت بزوال سلطتها السياسيّة وقوّة ملكها، لأنّ الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها (...)، [و] الدولة إذا اختلّت وانتقضت فإنّ المصر الذي يكون كرسيّاً لسلطانها ينتقض عمرانه وربّما ينتهي في انتقاضه إلى الخراب ...

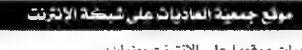
ومن هذه المدن التي ذكرتها حكايات ألف ليلة وليلة، والتي تبدو مجهولة، أو التي لم تعد محتفظة بأسمائها في خارطة التسميات الجغرافية المعاصرة: مدينة النحاس، ومدينة اختيان الختن، والطيران، وجوهر تكني، وواق الواق، والمدن والجزر الكثيرة التي كان يصل إليها السندباد البحري، كمدينة الملك المهرجان، ومدينة القرود، وإقليم الملوك، وجزيرة السلاهطة، وتلك التي لا تأخذ اسماً، وهي معظم الجزر التي وصل إليها في رحلاته السبع، ومدينة أخرى، يبدو أنّ الرّاوي لا يعرف اسماً لها، إذ يقول عنها:

والله لا أعرف للمدينة (...) اسماً ولا طريقاً. يُضاف إلى ذلك مجموعة كبيرة أخرى من المدن المتخيّلة التي تتوزّع على حكايات ألف ليلة وليلة، والتي شكّلها الرّواة من خلال قراءاتهم الكثيرة في الأساطير

والخرافات والحكايات الشعبيّة، ويبدو أنّ جميع مدن ألف ليلة وليلة الواقعيّة والمتخيّلة غير المعروفة، باختلاف تشكيلاتها الاجتماعيّة وتوجهاتها الدينيّة، هي مدن موشّاة بالسحر والأسطورة والغرابة، وقلّما نجد مدينة في ألف ليلة وليلة إلاّ ولها سحرتها الخاصّون، ومنجّموها الذين يستشعرون الخطر قبل قدومه، ونساؤها الخبيرات في جميع فنون المكايد والحيل والمكر، ورجالها السلطويّون الذين أفنوا أعمارهم في مجالس الشراب والطرب، والتمتع بأجساد الجواري، والحروب الطاحنة، رغبة في تعزيز بطشهم وسلطاتهم، بعيداً عن أيّة قوانين أو شرائع إنسانيّة أو أخلاقيّة، من شأنها أن تحمي مواطنيهم البسطاء من شرورهم واستبدادهم.

إنّ قسماً من مدن ألف ليلة وليلة مدن واقعيّة معروفة عبر منها رجال التاريخ السلطويون فارضين رؤيتهم وقسوتهم، واستبدادهم المطلق بشعوبهم، والقسم الآخر مدن متخيّلية شكّلها عدة رواة متشعّبو الثقافات، وينتمون إلى حضارات متعددة، متعاقبة، ومتجاورة زمنيّاً وتاريخيّاً.

و تعدّ حكايات ألف ليلة وليلة من بين أكثر النصوص الأدبية الإسلامية والعربية تأثّراً بالمجتمعات العربية والإسلامية، وبخاصة في عهد الدولتين الأموية والعباسية، بعلاقاتها السياسية والاجتماعية، فقد صوّرت هذه الحكايات عادات المجتمعات العربية والإسلامية، وأنماط معيشتها، وعرّجت على تركيبتها الطبقية والسياسية، ووقفت طويلاً عند مظاهر الترف واللهو والفجور التي انغمس بها كبار رجال السلطة ونساؤهم وأبناؤهم، وعرّجت على هموم الفقراء والمهمشين ومآسيهم في هذه المجتمعات، وأشارت بشكل جريء إلى فساد الرجال والنساء في هذه المجتمعات المنفتحة حضارياً ومعرفياً على ثقافات الحضارات الأخرى المجاورة.■



أطلقت جمعية العاديات موقعها على الإنترنت بعنوان:

www.adyatsyria.org

خصصت فيه زوايا متعددة لمتابعة نشاط الجمعية الثقافي من المحاضرات والندوات والرحلات العلمية والترفيهية، فضلا عن زوايا لنشر المقالات والمشاركات الهامة لأعضائها ومتابعة أعداد مجلة العاديات الفصلية.

وتميز الموقع بضمّه بين صفحاته صوراً لأعلام الجمعية الراحلين والمعاصرين مرفقاً بسيرهم الذاتية ولمحة عن حياتهم.

تستقبل الجمعية جميع الآراء والمساهمات والمشاركات وتحرص على مشاركة الجميع في تطوير نشاط الجمعية الثقافي.

التقليد والتجديد

في العمل الإبداعي

شريف محرم*

يقال دائماً إن القوانين والنظريات لا تتعدل أو تتبدل إلا باكتشاف وقائع جديدة لا تلائمها، ولكن لماذا يقال وقائع جديدة؟. إن ما تتيحه لنا الطبيعة ليس جديداً، ولا بد أن يكون الجديد هو اختيار الإنسان بين معطيات بعينها، وربطها فيما بينها كوقائع.

ومهما يكن من اتساع ميدانها أو ضيقه، فهي تسلم إلى تجلية الصلة بين الفلسفة والعلم.

وتعد الفروض العلمية أبرز صور الإبداع في العلم. وفيهما تتحقق شروط الإبداع، فهي تكشف عن التماثل في المختلف والوحدة في المتنوع عندما يعمد الباحث إلى ربط نثار الوقائع في خط متصل. كما تضع الفروض تركيباً جديداً هو الذي يقوم به الباحث عند صياغته للفرض في نظرية برهانية لها نتائجها المترتبة على مقدماتها. فهذه النتائج هي التي تدبر لها المواقف التجريبية لاختبارها بحيث لا بد أن تكون الوقائع القليلة التي ربط بينها الفرض بخط متصل، من بين نتائج الفرض المنطقية. ولكنه سرعان ما يتجاوز تلك الوقائع القليلة الأولى بقفزة عقلية إبداعية ليمضي إلى التنبؤ بالمستقبل الذي لا يكون في متناوله حينئذٍ.

والفرض أكثر صور التعبير عن المشكلة العلمية خصوبة وإنتاجاً. فبيان المشكلة وتقريرها بوصفها فرضاً، يقلل من حجم عرضها ويختزله إلى عناصرها الجوهرية في نطاق إطار موجز. فالفرض يصف ظرفاً أو حدثاً مستقبلاً ممكناً في مقدورنا اكتشافه. ومن ثم لا تصاغ المشكلة بسوابقها بقدر ما يعبر عنها عن طريق الفرض بمتضمنات معرفتها المستقبلة.

فهي بذلك تخمين وحدس يتضمن ظرفاً لم يبرهن عليه بعد في الوقائع المتاحة ولكنه " جدير " بالاستكشاف، كما أنه يقدم في الآن نفسه حلاً مقترحاً للمشكلة يختار من بين عدد محتمل من الحلول.

ويقوم الفرض بمهمته وهو غفل عن الاسم والعنوان، ويظل كذلك حتى يُعَمَّد بالتحقيق والإثبات، فيصير قانوناً أو نظرية ويتسمى بهما. والقوانين تقريبية لأنها مستخلصة من نتائج التجارب التي لا بد أن

---

* فنان تشكيلي.



تكون تقريبية، فكل تحسين يطرأ على الأدوات العلمية يؤدي إلى تعديل صيغ القوانين التي سبق تحديدها، كذلك هي تقريبية لأننا لا نستطيع أن توفر كافة الشروط التي يتوقف عليها القانون، أو التي ينبغي أن يتوقف عليها القانون، وكيف لنا أن نتيقن أننا لم نهمل شرطاً جوهرياً منها.

ولما كان الإنسان موجهاً بأفعاله نحو المستقبل فإن ذلك المستقبل ما يزال مغيماً لم تجله أبصارنا بعد فتأتي القوانين بمثابة المشاعل والمصابيح التي تبدد غيومه وظلمته "ليرى الجديد ويأتي به"، فهي القاعدة التي ستقودنا إلى مستقبل لم يعد بفضل هذه القوانين مجهولاً. حيث لن يكون المستقبل "مجهولاً" بل مبنياً على أسس القديم "الأصالة".

ونتيجة ما أسلفنا يمكننا أن نؤكد بوضوح بأن لكل عصر من العصور تصوراته الخاصة، وأفكاره التي يلتزم بها، ورؤيته التي يتعرف من خلالها على الأشياء.. ولكن عصراً من العصور لا يثبت على تصوراته، وأفكاره ومدركاته أبد الآبدين، وإنما نراه يعيش على معطياتها. وإفرازاتها، حتى إذا استهلكها، واستنفذها تماماً، راح يتحول عنها ويزهد فيها، فهي لم تعد تفي بحاجات العصر ومطالبه، الأمر الذي جعلها تبدو كأثر تقليدي من آثار التراث.

وإذا كانت مهمة الفيلسوف منذ أرسطو حتى الآن، تنحصر في إقامة نسق ذهني يرمز إلى عالم الأشياء ويعمل على تفسير ظواهره، فإن المبدع " الفنان والأديب " في استطاعته أيضاً أن يفسر هذه الأشياء تفسيراً خيالياً وجدانياً، مستعيناً في ذلك، بحاسته الفنية التي تمنحه قدرة على ابتكار عالم جديد يفيض بالحياة وينبض بالصور والأشكال والألوان "الإيقاع الذائب الحركة".

وإذا كنا نتمثل "العمل الفني" في تلك العملية التي يتم من خلالها تكشيف بعض المؤثرات السائدة وتشكيلها تشكيلاً جمالياً يوحي برؤية جديدة، فلا غرابة إذا رأينا "الإبداع المعاصر الأصيل" يستوعب تجربة العصر، ويعمل على تغيير معطياتها، ويوسع حدودها إلى درجة أنه يدخل في نطاقها ألواناً عديدة من الخبرة الإنسانية.

ويعتبر تحولنا عن النظرة الاستاتيكية (الساكنة) للأشياء، وسعينا إلى تحطيم ثوابتها المقدسة انقلابا خطيراً في نظرية الإدراك، فقد أمكن للمبدعين وفي ضوء رؤيتهم الجديدة أن يضعوا أيديهم على جوهر الأشياء.. أعني أنهم استطاعوا الكشف عن مفهوم الحركة في الأشياء، وعلى هذا صار العالم أشبه بكائن ينبض بتلك الدائبة التي تمنح الأشياء تغيرها ونموها وتحولها، والتي تتمثل في أجل صورها، في ذلك الصراع المرير الذي ينشب أظافره في الكائنات فيعمل على محوها، وتلاشيها، لكن يظهر أنواعاً جديدة تحل محلها، وهكذا تجري دورة الحياة باستمرار..

وإذا كان الأمر كذلك فمحتم علينا أن نرفض فكرة ((المثال)) الذي يعبر عن الحقائق الأزلية الأبدية، فلم يعد عالمنا محصوراً في مقولات أرسطية، أو في طبائع نيوتن الثابتة، وإنما صارت ظواهره حركة دائبة، تطوراً وصراعاً، وخلقاً مستمراً، فالشيء لا يتألف من هيولى، وصورة، وهو ليس ظلاً لمثال أو حزمة من أفكار، أو امتداداً في الخارج، ولم يعد حزمة مقولة من مقولات العقل النظري، أو ترساً في عجلة الكون له وضعه المحدد ومجال حركته

الخاصة، وإنما صار الشيء واقعة تعيش في لحظة زمنية معينة، لحظة تضم جميع المؤثرات التي صادفتها منذ ظهورها وحتى بلوغها تلك الصورة التي هي عليها الآن، بالتالي فهي لحظة كلية تحوي جميع اللحظات التي تراكمت في جوفها على مر الزمن فلا غرابة إذا رأينا الأشياء هنا تنسلخ من روابطها الآلية، وتتحرر من قيودها العلية، فلم يعد أحدها معلولاً لعلة سابقة عليه، وإنما صارت علاقة الشيء بالأشياء الأخرى متمثلة بارتباطه بالعملية الكلية للعالم.

فإن شيئاً ما لا يوجد تلقائياً، أو مكتفياً بذاته، وإنما يوجد على أنه جزء من مجموع وحدات متداخلة، فهو يمثل واقعة من وقائع الماضي التي ما تزال كائنة، وستظل هكذا ما شاء لها الزمن.. ومن ثم فيمكن أن نتمثل الزمن هنا في تلك القوة التي تعرض في الأشياء تدريجياً، حتى إذا تلاشت واختفت ظهرت أشياء أخرى تأخذ مكانها، تؤدي دورها من جديد.

تلك هي عملية التطور الدائبة التي صارت محور تفكير المبدعين والمفكرين والشعراء والروائيين، فقد راحوا يفسرون الأشياء في ضوئها، بعد أن تمردوا على العقل الذي أصاب عالمهم بالجمود والثبات.. وعلى هذا أمكن أن تنتصر الحركة على الجمود، فهي بمثابة النبضة الحية التي تجعلنا نميز بين الحياة والموت... ولم تكن هذه الحركة ذات نزوع عشوائي متخبط، وإنما هي حركة ديالكتية هادفة، فهي تدفع الأشياء إلى الوجود والتطور، كما أنها تستبد بها، وتجعلها تتقلص، تذبل، وتتمحي.. اليوت يصور هذا المعنى أصدق تصوير حين يقول: ((مولد، واتصال، ثم موت، تلك هي كل الحقائق حين تدق المسامير في النعوش، مولد واتصال ثم موت..)).

ونتيجة ذلك يمكننا القول: بأن المبدع يتبع، طريقة الفصل الحاسم بين النقيضين دائماً.. فهو يفصل فصلاً قاطعاً بين الماضي، والحاضر، وبين الحقيقي، والوهمي، وبين الحياة والموت وقد يستخدم هنا الزمن، كقوة ميكانيكية تعمل على تصنيف العناصر، وتنظيمها في سياق خاص، وهو يتخذ من الزمن جداراً سميكاً يحول دون الاقتحام لعالمه الفني، فمن الصعب رؤية ما يجري في جوفه الماضي إلا في عينيه.

ولما كان وعينا لا يسير على وتيرة واحدة، ولا يجوز عليه التجانس والاتساق في مساره، لأنه يتشكل وفقاً لطبيعة المنبهات التي تتواتر إلينا باستمرار، سواء من الداخل أو الخارج، ولما كان هذا الوعي يمثل بالنسبة إلينا جوهر الحياة فلا غرابة أن تجيء ((ابداعة الزمن)) صورة صادقة لتيار الوعي الذي يجسمه ((المبدع)) في شكل شخوص ومفردات متنوعة تتحرك أمامنا بدافع من قوة الشعور، أو اللاشعور ولا غرابة أن يستخدم المبدع في هذا الصدد تكنيكاً جديداً لم يعرفه العمل الإبداعي التقليدي من قبل، تكتيك يتحول من آلية نيوتن إلى النسبية العامة، حتى يتسنى له التعبير عن تلك الأنواع المختلفة من الوعي.. ذلك لأن تيار الوعي قد يتخذ في مساره أحوالاً لا شعورية متباينة منها الحاد، ومنها البسيط، منها ما يبلغ درجة موغلة من الغموض، والأغرب، ومنها ما يطفو فوق السطح ناصعاً جلياً.

ومن الضروري أن نذكر أن الإبداع المعاصر، لم يجد ترحيباً لدى المتلقي في

بادئ الأمر، ولعل ذلك يعتبر أمراً طبيعياً، فمن الملاحظ، أننا نقف دائماً موقفاً معارضاً لكل شيء فني جديد.. فنحن مثلاً نحبذ ذلك التحول الذي يطرأ على الأشكال الفنية، لكننا من ناحية أخرى نستهجنه ولا نألفه بسهولة، وهنا يكمن الصراع بين القديم الراسخ، والجديد الذي يحتاج إلى رسوخ واعتياد.. فإذا كنا نتعاطف والقيم التي صارت لها صفة الآلفة، والثبات، فإن مبدأ التغيير الذي يتعرض له عالمنا في كل لحظة إنما يدفعنا إلى تقبل فكرة التغير والتعدد، وإلا صارت أساليبنا السلوكية، والذهنية، والفنية، أثراً مستهلكاً بالياً، مبتذلاً، ورغم ذلك، فمازال موقفنا متردداً لا يعرف حلاً جذرياً لهذه المشكلة.. فمن الغريب أن نعمل على تشجيع الحركات الطليعية الرائدة في الأدب والفن، ثم نجد أنفسنا في نفس الوقت نتأثر بردود الفعل المحافظة التي تنجم عن حركات التجدد.. ومهما يكن من أمر، فإن للخبرة الإنسانية قطبين متقابلين تتأرجح بينهما دائماً وأبداً.. أحدهما نلمسه في عملية تكرار الأشكال، تكراراً ميكانيكياً يبعث على الملل والجذب، والثاني، نتمثله في قوة التعبير التي تعمل على تحطيم آلية الشكل الذي أصابه الضمور، والاهتراء..

والتحطيم هنا يبدو بمثابة أداة لخلق وسائل جديدة تلائم روح العصر.. تلك الوسائل التي تعد وثبة هائلة في تاريخ الإبداع، ذلك لأن هذه الوسائل إنما يستعين بها المبدع على كشف أبعاد جديدة في الرؤية، والإدراك، والمعرفة.. ولقد استطاع المبدع المعاصر أن يحقق ذلك في مجال التجديد المعاصر.. فنراه هنا يقوم بمحو الفروق بين حياة الشعور، واللاشعور، وبين اليقظة، والحلم، وبين الحقيقة، والوهم، وهو يستخلص من وراء ذلك، علاقات جديدة يصوغها في مركب جديد يمكن أن نطلق عليه اسم ((الرؤية المعاصرة التحليلية)) حيث يعيد للزمن مجراه، وفاعليته، وإلى العصر كثافته وامتلاءه، وإلى الإنسان قيمته.

وهنا يأتي الصراع الأكبر في الرؤية المعاصرة والذي يأتي في مساحة التجديد أو التقليد في العمل الإبداعي.

إن للتجديد أخطاره من جانب المشتغلين بعملية الإبداع أنفسهم، نتيجة لظن بعضهم أن التحرر من قيود القديم معناه التحرر من كل قيد أو قاعدة.

فكل قديم فيه ألفة لا نستطيع التخلص منها بسهولة، وكل جديد فيه غرابة لم نتعودها هذه طبيعة الأشياء، لكن جوهر الأشياء أيضاً أن يحمّل الجديد بذور التمرد على القديم - وإن أخذ منه - لتصبح له شخصيته، فهذه دلالة الحياة، وقانون التطور، وقد ينطوي هذا الجديد على مبالغة وتطرف لا يحد منها إلا ذوبان القديم والجديد معاً للوصول إلى شكل جديد يعبر عن مضمون الحياة الجديدة.

مقاومة التجديد بين الصحة والمرض:

الفن، شأنه في ذلك شأن ألوان النشاط الإنساني الأخرى، كالتقاليد الاجتماعية والأوضاع السياسية.. الخ.. يقابل أي تغير فيه بمعارضة قوية من المجتمع، وهذا أمر لا غرابة فيه، فهو دليل على تماسك الجماعة وعدم استسلامها المتسرع أمام أي عنصر جديد قبل أن تمنحه الألفة والاستمرار، فإما أن تقضي عليه وحينئذ يتضح أنه لم يكن سوى بدعة، وإما أن يثبت أنه نابع من حاجتها التي لا مفر منها لتطورها إذا أرادت ألا يكتب لها الموت.

وتختلف الجماعات من حيث مدى رفضها أو تقبلها للحديث فهي إذا تقبلت كل جديد دون معارضة كان معنى ذلك أنها عرضة للانحلال وذوبان شخصيتها، وإذا قاومت كل جديد أياً كان فمعنى ذلك أنها تتحجر وتحكم على نفسها بالفناء من حيث ظنت أنها تحافظ على نفسها. إن معارضة الجديد في المجتمع الصحي تجعله في حالة أشبه بحالة الحمى، حين يواجه الجسم عنصراً دخيلاً، فإذا تقبله المجتمع فإنه يصبح بمثابة مناعة له مما يهدده من عناصر الموت.

مشكلة التجديد:

لعل أهم مشاكل التجديد هو وجود فجوة دائمة بين المبدعين وبين جمهور المثقفين، فالمتلقي يتذوق الأعمال الإبداعية من خلال تقاليد تربى عليها منذ طفولته وهي تقاليد استقرت ورضي عنها المجتمع، أما المبدع فمهمته أن يضيف إلى هذه التقاليد السائدة، وذلك من خلال محاولته تناول قضايا عصره بأسلوب معاصر، مما يصيب بالدهشة جمهوره المعاصر، وعليه أن ينتظر على الأقل جيلاً جديداً ينشأ، وقد ألفت حواسه هذه الأساليب الجديدة، فيستطيع تتبعها ويحاول تذوقها وتقديرها والاستمتاع بها إن أمكن، فتذوق الأعمال الفنية خلال قوالب مألوفة أيسر من تذوقها من خلال قوالب جديدة، فالقوالب المألوفة جزء من تكوين شخصية المتلقي ومن شأن القوالب الجديدة أن تهز هذا التكوين المستقر، وما لم تكن الشخصية من المرونة بحيث تستطيع أن تطور نفسها وتتهيأ لتقبل هذا الجديد، فأنها تعتبره بمثابة تهديد جدي عليها أن تقاومه أو تتجاهله، وهما موقفان - كل منهما بالنسبة للفنان - أسوأ من الآخر، وهنا يأتي دور الناقد المخلص ((إن وجد)) دون تحيز أو تعاطف - بل المطلوب العقلانية والتفهم المنطقي - الذي وُهِبَ قرون استشعار مرهفة، أن يتعرف على تلك الإبداعات الجديدة التي سيعقد لها لواء الصدارة في المستقبل القريب - بعد أن يميز صحيح الجديد من زائفه ويفسره - ثم يعمل على تقريب الفجوة القائمة بين المبدع المتلقي المتعاصرين، فيقلل من دهشة المتذوق الذي يستمتع بأعمال إبداعية عبرت عن غير عصره حسب رؤاه، بينما يقف حائراً أو رافضاً بل مهاجماً عملاً أبدعه أحد معاصريه يتناول فيه إحدى قضاياه المعاصرة بالرؤية الحديثة التي يعيشها، بهذا يختصر النقد الحقيقي مسافة الزمن، ويخلق للفنان جمهوره مما يشجعه على أن يستمر، بدلاً من تركه في صراع مع الجمهور المتلقي بعضٌ يثبط عطاءه بعداء وبعضٌ في حيرة من أمره فيما يختار، وقد يحمله هذا على التوقف أو العودة إلى الأساليب التقليدية البالية ليرضي قلة من جمهوره، وهذا يبعث على الملل والجدب، ومؤثراً السلامة ومتملقاً جماهير ترشوه بشهرة زائفة غير مقنعة له ولإبداعه لأن ذلك مؤقت وآسر لإبداعه.

أخطار التجديد:

وإذا كانت تلك مصاعب التجديد التي يلقاها المبدع من جانب جمهوره، فلا شك أن للتجديد أخطاره من جانب المشتغلين بعملية الإبداع أنفسهم نتيجة لظن بعضهم أن التحرر من قيود القديم معناه التحرر من كل قيد أو قاعدة، فيكون نتاجه أقرب إلى الفوضى والهراء أو إسراف في التعقيد واللامعنى والغموض وهكذا يتسلل كثير من الأدعياء على نحو ما حدث في الفن

التشكيلي والشعر، وربما بصورة أقل في القصة والمسرح والفنون الأخرى، فالناظم أي ((الشاعر)) الذي يثور على الشكل القديم كما يقول ((محمد النويهي))[1] لمجرد ليس شاعراً صادق الشاعرية، وأما الشاعر الصادق فهو الذي يتخذ الشكل الجديد لا لسهولة مزعومة فيه، بل لما يتيح له هذا الشكل الجديد من إمكانيات إيقاعية وفكرية وعاطفية لم يستطع الشعر القديم النهوض بها رغم أن للقديم بناءه وتكوينه الخاص والمميز عن الشعر العالمي بخصوصية إيقاعية وموسيقية متفردة فالفرق بين صعوبة الشكل القديم وصعوبة الشكل الجديد هو في صميم الفرق بين أغلال العبودية ومسؤولية الحرية. أغلال العبودية قيود مفروضة من الخارج على المبدع وعلى عمله الإبداعي تخمد روحه وتجمده، أما مسؤولية الحرية فنابعة من إحساس المبدع بحقه في اختيار الوسائل وابتداع الأساليب التي تعمل على تطوير أعماله الفنية وإثرائها.

التجديد بين النظام والقيد، والحرية والفوضى:

فالأشكال الجديدة لا تتحرر من القيود إطلاقاً بل من قيود القديم فقط، لتخلق قيودها الجديدة، والخاصة بها. ولا يفطن المعترضون على التجديد إلى هذه الحقيقة، فيقيمون اعتراضهم على أساس أن الشكل الجديد قد تحرر من القيود، وأن أصحابه أكسل من أن يخضعوا أنفسهم لقيود الشكل التقليدي الذي يبدو أنهم لا يريدون أن يعترفوا إلا بها (كما في رؤية نازك الملائكة بقضايا الشعر المعاصر - دار الآداب بيروت ١٩٦٢ - ص ٣٧). لقد علمنا تاريخ الأدب أن الأشكال الأدبية تحتاج من حين إلى آخر إلى إعادة صياغتها من جديد بل هي أحياناً تختفي لتبعث في صورة جديدة وكل ما تولد خلال التاريخ الإبداعي من أشكال له قيوده الخاصة به، فلا شكل بلا قيد، ومجرد انتماء ما يبدعه المبدع إلى العمل الإبداعي معناه قبوله أو خلقه لقيود تميزه عن صورة الشكل المتداول. والظن بأن الفوضى أسهل من قيود الشكل وهذا وهم تام، وإلا لكان الضرب في متاهات الصحراء أو حتى في حديقة غناء أسهل من السير على هدى طرق معبدة وإشارات مرور متفق عليها.

فالشكل نظام وليس قيداً، واللاشكل فوضى وليس حرية، والنظام ليس قاصراً على القديم، بل يشمل الجديد أيضاً، وإن اختلف عن نظم الأشكال التقليدية، فإن تمرد الجديد على القديم ليس تمرداً فوضوياً بل هو تحرر من شكل لاءم عصره واستنفذ أغراضه، لخلق شكل أكثر ملاءمة لمقتضيات ما جد من أوضاع.

حدود التجديد:

لكن التجديد ليس متاحاً في كل عصر بدرجة واحدة، كما أنه لا يعتمد على التكوين الشخصي فقط للمبدع، بل إن العصر الذي يعيش فيه المبدع بأوضاعه الاجتماعية، وتقاليده السائدة عامل هام في درجة التجديد فكما يقول الشاعر الانكليزي / ت - س - إيليوت / ((هناك أزمات استكشاف أرض جديدة، وهناك أزمان لاستثمار الأرض التي اكتشفناها))، فهناك عصور يحتاج فيها الإبداعي إلى إدخال السائد.

ومع ذلك يجب أن لا نغفل قيمة

١- قضية الشعر الجديد : معهد الدراسات العربية العالمية - جامعة الدول العربية - القاهرة ١٩٦٤ ص ١٢٧.

العامل الشخصي في التجديد، فهناك مبدعون أقدر من غيرهم على استشعار حاجة العمل الإبداعي في لحظة تاريخية معينة إلى التجديد الجذري، وفي إمكانهم تلمس الاتجاهات الجديدة وتفجيرها، هؤلاء نطلق عليهم لقب الرواد وأصحاب المدارس أو المذاهب الإبداعية، ويأتي بعدهم تلامذة ومريدون يتفاوتون بين مجرد التقليد وبين محاولات التطوير والإضافة والوصول إلى درجة أكثر نضجاً حتى يستهلك الشكل الجديد بدوره، كل طاقاته فيقع مستخدموه في خطر التكرار، ويأتي التكرار نتيجة حتمية لاستخدام الأشكال المستهلكة والتي تدفع من يستخدمها - شعورياً أو لاشعوريا - إلى التقوقع في المضامين المستهلكة، لأن مجرد اختيار أحد هذه الأشكال يستدعي في الذهن عشرات الصور أو التكوينات التي سبق أن أرست دعائم هذا الشكل الإبداعي في ذهن متلقيها، فيلقي بظله على المبدع ويدفعه إلى تكرار الأشكال الراسخة والصور المعادة ويحده عن الانطلاق إلى ميادين جديدة، فالأشكال القديمة تصل إلى درجة من التشبع لا مزيد بعدها، ولا يكون معنى ذلك أن الوقت قد حان للارتداد إلى أشكال أكثر قدماً، بل معناه أن الوقت قد حان للتقدم إلى شكل أكثر مسايرة لما جد من أوضاع.

الشعر كنموذج تطبيقي:

لعل الشعر في أدبنا العربي خير مثال على ما أسلفت، فله تاريخ طويل يمتد إلى أكثر من ألف وأربعمائة عام، وهو في معظمه شعر غنائي يستثنى من ذلك مثلاً شاعر مثل أبي العلاء المعري الذي عاش منذ عشرة قرون لاسيما في رسالة الغفران يعتمد وزنه المتساوي التفعيلات في كل بيت على أنه يُلقى ولا يقرأ، وكان هذا طبيعياً في وقت لم تكن الطباعة قد انتشرت فيه بعد، فلما اخترعت المطبعة تضائل دور الاستماع إلى الشعر، لتحل القراءة محله، كان لا بد للشعر من تطور يلائم الأوضاع الجديدة بحيث وصل الأمر أحياناً إلى أن يحل الاعتماد على طريقة كتابته وطباعته مكان الاعتماد على ألفاظ ذات رنين خاص بغية التأثير في العين قبل الأذن، وقد استتبع ذلك بالضرورة تغير في اختيار الموضوعات التي تكون أكثر ملاءمة لمتذوقين قادرين على تعلم القراءة وعلى شراء الدوريات التي تنشر الشعر من بين موادها، أو على شراء دواوين الشعر نفسها.

ولم يكن هذا السبب الوحيد لتجديد الشعر العربي المعاصر، فقد كان التطور اللغوي أيضاً من بين هذه الأسباب، فكما كان الشعر العربي الكلاسيكي قريباً من لغة الكلام في عصر ما قبل الإسلام وصدر الإسلام، فإن الشعر العربي يحاول أن يجدد نفسه بحيث يكون قريباً من اللغة المتداولة بين المثقفين العرب اليوم، لقد توارت مفردات، وبرزت مفردات أخرى بحكم تغير البيئة والتقدم الحضاري، لهذا يتخفف أسلوب الأداء الشعري الجديد من عبء الألفاظ المعجمية المهجورة، ولا يغرق في الجماليات الشكلية التي انتهى إليها الشعر التقليدي في عصور انحطاطه، كذلك فإن اختلاف التجربة اليومية للمواطن العربي عن تلك التي كان يعيشها منذ مئات السنين قد فرضت هذا التجديد.

وهكذا لم يعد المبدع العربي الجديد يلتزم ذلك التناظر الذي كان يلتزم به أجداده في إبداعاتهم، وهو سمة هندسية نجد مثيلها في فن الزخرفة العربي الذي

يعرف بـ ((الأرابيسك)) حيث تكرار الوحدة الزخرفية في نظام تناظري، ولم يعد البيت ينقسم إلى شطرين، وأصبح للمبدع أن يزيد أو ينقص من تفاعيله في كل بيت طبقاً لما يحتاج إليه المعنى، ولم يعد الشعراء الشبان يلزمون أنفسهم بقافية موحدة من أول القصيدة إلى آخرها، بل يستخدمونها كما يستخدمون التفعيلة - طبقاً لطبيعة التجربة، أو الموقف، وطبقاً لطبيعة تصور كل منهم لمهمة القافية في القصيدة، كذلك حل ما يسمى بالوحدة العضوية للعمل الإبداعي محل وحدة المعنى في اللوحة الفنية أو الصورة الشعرية، وأدخل ذلك تغيراً جذرياً على الصورة الشعرية، بعد أن كان معظم الإبداع وصفاً لحالة نفسية أو مشهداً حياتياً مادياً تتخلله إيقاعات وصفية تجري مجرى المثل، وبعد أن كان النقد يقسمه إلى رثاء وهجاء ومدح وعتاب وفخر وزهد.. الخ في الشعر وكذا الأمر في التشكيل البصري.. ثم أصبح العنصر الدرامي أساسياً أي الأدب واللوحة.. وأمكن تتبع خط قصصي في كثير مما يقدمه الشعر العربي اليوم، واستطاع المبدع العربي المعاصر نتيجة لذلك ألا يحصر نفسه في غنائية الإبداع، فانطلق إلى فنون إيقاعية أخرى لا سيما المسرح الشعري في الأدب، وتكوين الشكل المحاكي للكتلة الفراغية في التشكيل البصري، الذي بدأ في أوائل القرن العشرين بالشعر التقليدي، واللوحة الكلاسيكية الأقرب إلى ذهن المتلقي والأسهل في الفهم، ثم جاء الإبداع أقرب إلى الشعر الغنائي في الأدب منه إلى الدراما الشعرية والوصفية في التشكيل البصري فهي وثائقية ووصيفة تاريخية قصية، حتى إذا ما تغيرت القيود التقليدية استطاع مبدعونا أن يقدموا مسرحاً أكثر قرباً من العمل الدرامي وتشكيلاً وجدانياً يحاكي عاطفة المتلقي.

التقليد والتجديد وجهان لعملة واحدة:

ويخطئ الكثيرون حين يحسبون أن المسألة على هذا النحو الساذج إما تعصب للتقليد، أو تعصب للتجديد، فكلا الموقفين خطأ وينم عن تبسيط شديد للأمور، فتقدير الجديد لا يأتي إلا نتيجة لإتقان دراسة القديم وتذوقه، كما أن التجديد هو الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالقديم فالتقليدي والمجدد لا يستغني أحدهما عن الآخر أنهما كوجهي العملة كما يقال، فليس المجدد هو من يجهل القديم أو لا يستطيع تذوقه بل هو من أتقن دراسته وتذوقه ثم تجاوزه لأن مهمته أن يضيف، وأن يضيف كيفاً لا كماً (كما يصدر محمد النويهي في قضية الشعر الجديد بفصله الأخير تحت عنوان ((عشاق القديم أنصار الجديد)) وهو لا يستطيع أن يضيف إلى عدم قبله، ولا أن يبدأ من الصفر).

لا تجديد إذن بدون معرفة القديم، فالتجديد من صلب التقليد ومن ناحية أخرى لا بقاء للتقليد دون تجديد، كما أن الجيل الجديد هو الذي يبقي على ذكرى الجيل الذي أنجبه، إذا أصيب جيل بالعقم فإنه لا يحكم بالفناء على من بعده فحسب، بل ويحكم بالفناء على نفسه أيضاً، فإذا كان من الصحيح أنه لولا الأجداد ما كان الأحفاد، فإنه من الصحيح أيضاً أنه لولا الأحفاد ما بقيت ذكرى الأجداد.

وهكذا فإن التقليد والتجديد مدينان بوجودهما لبعضهما لأن كلاً منهما يهب الحياة للآخر■

الشاعر علي الناصر

حداثة أم تجديد؟

فؤاد المرعي *

قبل ما يزيد قليلاً على ربع قرن، قرأت لأول مرة اسم الدكتور الشاعر علي الناصر في بحث الصديق محمد جمال باروت الموسوم بعنوان "الشعر يكتب اسمه"، وكان ذلك البحث الجريء يرصد انتقال الشعر العربي الحديث من القصيدة الموزونة المقفاة إلى قصيدة النثر مع ما رافق ذلك من تحولات في مواضيع الشعر وبنيته ومحتواه الفكري. وقد ورد اسم الشاعر علي الناصر في معرض الحديث عن كل ذلك، دليلاً على أن شعر التفعيلة وقصيدة النثر وُجدا قبل أربعينات القرن الماضي بأكثر من عشرين عاماً.

أعترف أني شعرت آنذاك بالخجل من جهلي الذي عزوته إلى غيابي الطويل خارج الوطن وإغفال الكثيرين من دارسي الشعر العربي الحديث الذين وقعت كتبهم وأبحاثهم بين يدي لنتاج ذلك الشاعر.

ولكنني شعرت أيضا بالفضول يدفعني إلى البحث عن دواوين شعر علي الناصر وقراءتها.

قرأت للناصر مقطوعاته الشعرية "قصة قلب" التي أصدرها عام ١٩٢٨ في حلب، ومجموعة "سريال" التي أصدرها بالاشتراك مع الشاعر أورخان ميسر عام ١٩٤٧ في حلب أيضاً، وقرأت ملحمته "دن الدموع" التي صدرت في حلب عام ١٩٥٤، كما قرأت ديوانه المتميز "اثنان في واحد" الذي أصدره بالاشتراك مع الفنان التشكيلي عدنان ميسر، في حلب عام ١٩٦٨. ورجعت في تتبعي لآثار الشاعر إلى مجموعته الشعرية "الظمأ" الصادرة في حلب عام ١٩٣١ ومجموعته "هذا أنا" الصادرة عام ١٩٦١ في حلب أيضاً.

وخطر في بالي وأنا أتتبع آثار هذا الشاعر أن أحد أسباب إغفال الباحثين ومؤرخي الأدب لشعره، قد يكون ضعف

* أستاذ الأدب العربي بجامعة حلب.

توزيع ما نشره من ذلك الشعر. فأعماله كلها طبعت في حلب، وبعضها على نفقة الشاعر نفسه، وأغلب الظن أنها لم تغادر حلب إلى مراكز الثقافة العربية الأخرى كدمشق وبيروت والقاهرة وغيرها. ولابدّ لي، وقد أثرت هذا الموضوع، من القول إن ضعف توزيع الكتاب الصادر في حلب، ما يزال ظاهرة قائمة إلى يومنا هذا، الأمر الذي يجعلني أناشد الناشرين الحلبيين أن يوحّدوا جهودهم لتوسيع شبكة توزيعهم كي تشمل مراكز الثقافة العربية على امتداد الوطن العربي. وإذا كانت دور النشر الخاصة عاجزة مادياً وبشرياً عن تحقيق ذلك، فإني أناشد الدولة، وتحديداً وزارة الثقافة والهيئة العامة للكتاب التي أحدثت مؤخراً، أن تفكّر جدياً بإحداث دار نشر وتوزيع في حلب، تكون قوية وقادرة على تفعيل الحياة الثقافية في هذه المدينة وإيصال صوتها الثقافي إلى مختلف أقطار الوطن العربي.

لقد عشنا زمناً طويلاً نتلقف ما تصدره القاهرة من كتب، ثم كانت إلى جانب القاهرة، بيروت، فدمشق، فبغداد، وفي العقود الأخيرة من القرن الماضي أثارت اهتمامنا إصدارات تونس والرباط، فلماذا لا يكون لحلب شرف الانضمام إلى شقيقاتها العربيات في بناء الثقافة العربية المعاصرة؟

إنني لا أقول هذا الكلام انطلاقاً من نزعة محلية أو إقليمية، فمعظمكم، إن لم أقل جميعكم، يعلم أني لست حلبياً، ولكني أعتقد أن هذه المدينة ذات التاريخ الثقافي العريق، تستحق، بما تمتلك من قدرات إبداعية وثقافية وعلمية، أن تشغل مكاناً بارزاً في الحياة الثقافية في سورية وسائر الأقطار العربية.

أعود بعد هذا الاستطراد إلى شاعرنا علي الناصر لأقول: أدهشني عنوان المحور الذي طلب إليّ التحدث فيه: "الحداثة في شعر علي الناصر". وسبب دهشتي هو أنني لا أرى في شعره نقلة حضارية جوهرها الحرية ورفض الواقع والرؤيا الطامحة إلى استشراف المستقبل.

غير أن الإنصاف يرغمني على الاعتراف بوجود جانب حداثي في شعر علي الناصر هو رغبته الجامحة في التجديد الذي كان شكلياً في معظم دواوينه وكان مسبوقاً نظرياً في كتابَي "الديوان" للعقاد والمازني، و"الغربال" لميخائيل نعيمة، وفنياً في أعمال جبران خليل جبران الشعرية والنثرية المبكرة التي ارتبط بها ظهور الرومانتيكية تياراً جديداً في الأدب العربي الحديث.

لقد تجلت رغبة شاعرنا في التجديد منذ بدايات حياته الإبداعية وذلك ما لحظه أديب حلب الكبير سامي الكيالي في المقدمة التي كتبها لمجموعة علي الناصر "قصة قلب" حين قال:

"في هذه المجموعة التي تقدم بها صديقنا الطبيب علي الناصر الذي أراد أن يهجر تلك الطريقة القديمة في وصف الطلول والخربات الصم، بينما لا طلول ولا خربات صم بل عيش في ظلال

المدينة الوارف؛.... صورة من الشعر الحسي الذي يرينا صدق العاطفة؛ بل الصورة الصادقة لوحدته وألمه ويأسه وحبه وابتسامه وغضبه، والكثير من هذه الحالات النفسية التي كانت تهزّ منه الفؤاد وتحرك من نفسه الشعور الحساس..."[1]

وبعد أربعين عاماً، أي في عام ١٩٦٨، عزا كاتبنا الراحل عبد السلام العجيلي رغبة الشاعر علي الناصر في التجديد إلى رغبته في التفرّد، فالشاعر في نظر العجيلي، متململ من قيود الحياة لا يتستر على تململه بتقية "ولا يخفي نقمته على الخليقة والقدر، أو احتقاره للمجتمع والناس وراء تواضع مصطنع، أو تظاهر بالضعف والاستكانة."[2] ورأى العجيلي أن إحساس الشاعر بثقل وطأة القيود الشكلية على التعبير الشعري، جعله يطرح تلك القيود وينظم الشعر في قصائد أبياتها متحررة من أغلال الوزن الموحد. يقول العجيلي:

"لقد نشر الدكتور علي الناصر ديوان الظمأ الذي يحتوي القصيدة المتحررة من قيود بحور الخليل منذ نحو أربعين عاماً. ومنذ ذلك الحين ادّعى أبوّة الشعر الجديد مدّعون كثيرون ليس بينهم علي الناصر، لأنه حين نظم شعره على هذا الشكل لم يكن يريد أن يبدع مذهباً جديداً في النظم، بل كان يريد أن يعبّر عن إحساسه الخاص بطريقة خاصة، فكانت تلك القصيدة. فهو حين وجد قيد البيت الموزون بالوزن التقليدي يحول دون ما يبتغيه من تعبير حطّم ذلك القيد، فكان في تحطيمه له متفرّداً عمّن حوله، وعمّن سبقه."[3]

نعم، لقد كان الناصر متفرداً عمّن حوله من حيث تحرره من وطأة القيود الشكلية على التعبير الشعري. ولكنه لم يكن حداثياً في مضامين قصائده والقضايا الفكرية والروحية التي طرحها في تلك القصائد، الأمر الذي ينفي عنه صفة الحداثة، ويدفعني إلى تصنيفه في خانة التيار الرومانتيكي في الشعر العربي الحديث، ذلك التيار الذي كان في بداية تشكله حين دخل الدكتور علي الناصر عالم الشعر.

إن الشعر الرومانتيكي العربي حقق بانعطافه نحو الذات انزياحاً واضحاً على الصعيد الدلالي وتمتع بحرية في التعبير لم تكن واضحة في الشعر التقليدي، وحقق انزياحاً آخر على الصعيد النفسي، مشكّلاً وعياً جمالياً جديداً مختلفاً عن ذاك الذي كان سائداً، وأعمقَ صلةً بالذات المبدعة. وبات التناقض بين الشاعر والمجتمع سمة مميزة من سمات الشعر الرومانتيكي الذي تجلى فيه الرفض المباشر الصريح للحياة الثرية التافهة وأمورها المادية، واللجوء إلى عالم الخيال والأساطير والغيب المطلق بحثاً عن حلّ لذلك التناقض. إن كل ما

١- علي الناصر، "قصة قلب"، حلب - ١٩٢٨، ص ج
٢- علي الناصر، "ديوان اثنان في واحد"، حلب - ١٩٦٨، ص: ١١
٣- علي الناصر، "ديوان اثنان في واحد"، حلب - ١٩٦٨، ص - ص: ١١ - ١٢

تقدم من أوصاف للشعر الرومانتيكي تجسّد في شعر علي الناصر، فها هو ذا يقدّم لنا في "قصة قلب" المنشورة عام ١٩٢٨، صورة بطل رومانتيكي عاشق يهدي إلى "التي لم ترعَ الذمام" ما عاناه من متعة الحب وألم الفراق على نحو يذكرنا ببكائيات المنفلوطي وآلام فيرتر وغادة الكاميليا، فهو في ذروة انتشائه بالحب يخاطب حبيبته سلوى فيقول:

إني أشاهد في عينيك ما جمعت
هذي الطبيعة من إبداع فنّان
ففيهما اقرأ الآيات مكتشفاً
سر الورى فهما وحيي وقرآني
ومنهما مصدر الإلهام يرفعني
على جناحيه فوق العالم الفاني
أطير في عالم الأحلام مبتهجاً
مجرداً عن تباريحي وأحزاني
فناظري وثنيّ في تعبده
يرنو إليك بتقديس وإيمان

وفي ذروة ألمه لفراقها بعد أن اكتشف حقيقتها:

ابدت من الحسن لي الأوهام آلهة
فرحت أعبدها مستنفداً عمري
تجسّمت في خيالي فهي ماثلة
في كل ما يتراءى لي من الصور
حتى إذا سبرت نفسي حقيقتها
وجدتها كونت من حمأة القذر
يا نفس ما المثل الأعلى دُمىً خلقت
تسبي العقول وأصنام من البشر

غير أن هذا الشاعر المسكون بالرغبة في التجديد ما لبث أن انعطف بعد إصدار أعماله "قصة قلب" و"الظمأ" و"البلدة المسحورة" و"الأغوار"، انعطافاً حاداً نحو التكثيف في لغته الشعرية التي غدت أشبه ما يكون بالإشارات والرموز التي تترك للقارئ، بل ترغم القارئ على إعمال ذهنه في تأويلها تأويلا ذاتيا مستنداً إلى ما تثيره كلمات الشاعر في مخيلته من أثر نفسي، لا إلى ما تتضمنه من معنى معجمي. ذلك ما تجلى في مجموعته التي أصدرها بالاشتراك مع الشاعر السوريالي أورخان ميسر عام ١٩٤٧ بعنوان "سريال".

لقد بدا علي الناصر في هذه المجموعة متأثراً تأثراً شديداً بالسوريالية التي فهمها على طريقته، وقاده تكثيفه للغته الشعرية إلى كتابة مقطوعات بعيدة كل البعد عن الشكل الشعري القديم وأساليبه التصويرية والتسجيلية، مقطوعات، يرى الدكتور العجيلي في تقديمه لديوان الناصر "اثنان في واحد"، أن الشاعر "كان يعرّي فيها الصورة حتى تتمثل بكلمة ويكثّف الحكاية المسهبة في نغم ينطلق من تجاور ألفاظ قلائل."[1]، الأمر الذي يجعلها أقرب إلى التجريدية منها إلى السوريالية.

ولا بأس هنا من أن نورد، كي نوضح الانعطاف المشار إليه أعلاه، مقطوعتين، الأولى كتبها الشاعر في عام ١٩٣٧ بعنوان "النشور" والثانية كتبها في عام ١٩٤٧ بلا عنوان.

١- علي الناصر وعدنان ميسر، "اثنان في واحد"، حلب - ١٩٦٨

المقطوعة الأولى: "النشور"

قال لي القلب ساخراً في المساء

قم نضع زهرة على قبر حزنك

ذاك حق الوفاء، إيه لماذا

حجبت بالضباب آفاق عينيك؟

لم أجبه. فقادني مذهولا

ودرجنا على الرفات طويلا

أضللناه؟ لست أدري ولكن

تحت هذي الألواح إني دفنته

هاهي السروة التي غرستها

أنملي في التراب حين لحدته

انحنينا على الضريح لنلقي

زهرة من ولائد الأضواء

فتعالى من جانبيه فحيح

بارد كارتعاشة استهزاء

المقطوعة الثانية:

شفة

أشلاء من زهرة ممزقة

مشوهة لم يبق من تناسقها

إلا قطرة دم

ترنو إلى عين

مما لا شك فيه أن القارئ يلمس تبايناً واضحاً في أساليب التعبير الشعري، ليس فقط بين ديوان "سريال" وما سبقه، بل في دواوين علي الناصر الصادرة ما بين عامي ١٩٢٨ و١٩٦٨ كلها. ولكن هذا التباين لا يخفي أن المضامين الفكرية والعاطفية ومشاعر الحيرة والشك والقلق والتشاؤم والتمرد التي تتضارب في تلك الدواوين، إنما تعبر عن روح رومانتيكية وشاعرية رومانتيكية. ذلك ما نكتشفه بسهولة في المنتخبات من شعر علي الناصر ونثره في أطواره الأدبية والنفسية المختلفة، أعني بذلك المنتخبات التي ضمها ديوان "اثنان في واحد" الذي أصدره الشاعر بالاشتراك مع الفنان التشكيلي عدنان ميسر عام ١٩٦٨.

ولكن، على الرغم من أنني أزعم أن علي الناصر لم يتجاوز حدود الرومانتيكية في كل ما أبدعه من شعر، أشعر وأنا أقرأ أعماله بعبقريته المبدعة، الساعية أبداً إلى تقديم ما هو جديد ومبتكر. إن الزاد النفسي والشعري الذي تحمله إلينا أشعاره "مكثف ومبتكر، كما يقول أديبنا الراحل عبد السلام العجيلي، يرتفع بالشعر عن أن يكون نغماً مهدهداً للمتعب الذي يريد أن ينام أو للخلي الذي يريد أن يتسلى"[1] ■

١- علي الناصر وعدنان ميسر، "اثنان في واحد"، حلب -١٩٦٨، ص: ١٤

حلب طراز الذهب

في عهد سيف الدولة

محمد ألتونجي*

شرفٌ لي أن أكون من حلب، عاصمةِ سيف الدولة الحمداني، فما سألني سائل حين علم أني من الشهباء إلا ذكر لي سيف الدولة، والمتنبي، وأبا فراس، وذكَّرني بهم. فما زالت حلب رهينة المفاخر الحمدانية، منذ ما ينوف على أحد عشر قرناً. حتى زائروها يحسّون برهبة تاريخية عريقة في القدم، حين يطؤون أرضها.

لكن "حلب" لم تحمل هذه الأبهة وهذا الفخار من سيف الدولة وحسب؛ فهي أصلاً من أقدم مدن العالم وأعرقها، وأحفظها تراثاً على الرغم من عاديات الزمان، وظلم الإنسان، ففي حلب قلعتها الشامخة التي تعلو أكثر من ستين متراً، وفيها مقام سيدنا إبراهيم الخليل، وقطعة من رأس النبي يحيى، وفي أحد مساجدها القديمة قدم ينسب إلى النبي ﷺ، وفيها مشهد للإمام علي على حجر داخل مسجد غوث، وعلى سفح جبل الجوشن (الأنصاري اليوم) مشهد المحسن بن الحسين، سقط من بطن أمه لما جيء بالسبي من العراق لينقل إلى دمشق، وجامعها الكبير الأموي الذي بناه سليمان بن عبد الملك على غرار المسجد الأموي بدمشق الذي بناه أخوه الوليد، وأبوابها الضخمة القديمة، وما زال بعض منها ماثلاً معلقاً على بواباتها، وأسواقها القديمة المسقوفة... إلى غير ذلك من المعالم النادرة التي يتوق إلى زيارتها كل سائح، وإلى المطالعة عنها كل مؤرخ.

ولم تشتهر حلب إلا بعد الفتوحات الإسلامية، لتغدوَ عاصمة الثغور ضد البيزنطيين، تصدُّ بصدرها وصدور أبنائها جحافل المعتدين على الأرض العربية. أما وضعها الأدبي فحدِّث عنه من غير حرج؛ فقد مرت بها قوافل لا يحصى عددها من الشعراء، بدءاً بامرئ القيس، ومروراً بالمتنبي، وأبي فراس، والصنوبري، وكشاجم، والمعري، والخفاجي، وابن حَيُّوس. وما حكايات دار علوة - محبوبة البحتري - ببعيدة عن أذهان سكان حلب اليوم.

* أستاذ جامعي وباحث صدر له ما يربو على سبعين كتاباً.

أما من الناحية السياسية، فقد كانت إمارةً تابعة للأمويين، ثم للعباسيين، والأمراء الذين تعاقبوا على حكمها، وتدافعوا لكسب خيراتها، حتى داهمتها الجيوش البيزنطية، فاختل توزانها الحربي، واضطرب أمنها. فاستنجد أعيانها ببطل فتى لمع نجمه في سماء الجزيرة الشامية والموصل، وتوسَّموا فيه البطولة والنجدة والشهامة. هذا البطل هو سيف الدولة. فاندفع نحو حلب لإنقاذها، وقد أدرك بحصافته خطورة الموقف الداخلي، وهول الموقف الخارجي. فقسم جيشه قسمين، قسماً وجَّهه نحو المدينة يهدئها ويمهِّد لدخولها، وقسماً قاده بنفسه داهمَ به البيزنطيين، وطردهم من مواقعهم.

وتحقق له النصر، فكان أول قائد جدَّد الكفاح الصامد، وأحيا روح الجهاد الصادق بعد أمد من السكون الرهيب. وكأن القدر شاء أن يخدم المدينة به لفصم براثن البيزنطيين، ومنعهم من احتلالها. وسرعان ما امتدت سلطنته، فشملت شمالي سورية كله، وجانباً من كيليكية)في تركية الحالية)، وجزءاً من شمالي العراق.

وإذا كان الأمراء السابقون يستنزفون أموال الشعب في سبيل ملء خزائنهم، فإن الحمدانيين كانوا يسخون بكل ما في خزائنهم لإعادة بناء المدينة، ولرعاية الآداب والفنون والعلوم، ليعودوا إلى ملئها ثانية وثالثة بالنصر والغنائم.

ومما يدلُّ على غنى سيف الدولة وثرائه أنه كلما قدم المدينة وفد من الروم أمر بالخروج لاستقبالهم بالسلاح، فيركب من داره ألفُ مملوك بألف درع مذهب على ألف فرس عُتق، وألف تجفاف (دروع للخيل). وحين انتصر عليه خصمه "نقفور فوكاس"، ودخل قصره سلب منه ما لا يحصى من الأموال.

ومما ذكرته الكتب أنه نهب ثلاث مئة بدره؛ مئة عين ذهباً، ومئتين فضة، وثلاث مئة حمل من البُز الفاخر، ومن الديباج المدَّخر خمسين حملاً، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يقدر بثمن، ومن الخيل ثمان مئة رأس، ومن البغال خمس مئة رأس، ومن السيوف مئة حمل، ومن الجمال نحو ألفين، ناهيك عن الأسلحة والمناطق. ونقل منه سقوف القصر لأنها مذهبة.

قصر سيف الدولة:

يحسُّ القادم من حلب بأنه ـ وهو يشارفها ـ يسير صُعداً كلَّما دنا منها، حتى يقف على قمة جبل الجوشن عند مدخلها. وحين اختار سيف الدولة حلب عاصمة له بحث عن مكان مناسب يبني فيه قصره، فلم يجد أفضل من قمة جبل الجوشن الشامخ، فبنى قصره إلى جوار مقام "السِّقط محسن"، ليشرف من عليائه على المدينة أمامه، وكأنَّ المدينة التفَّت إلى حضن الجبل، تطلب منه الاطمئنان والأمان، بعد أنْ كشف ظهرُها للبيزنطيين.

ولقد أسمى قصره "قصر الحَلْبة" على اسم الأرض التي بُني عليها. واعتنى ببنائه، ليكون مُضاهياً لأشهر البلاطات في زمانه. فحفل ببديع النقوش والزخرف والتصاوير، وفرشه على أفخم طراز وأبدع ما تضمَّنته قصور أباطرة الروم. وكان ذرعه ستة آلاف ذراع، لم يبق منه اليوم سوى بقايا جدار يمكن للزائرين أن يروه، ويتصوروا باقيه. وجعل فيه ثلاثة حمامات فيها مياه جارية،

وأطلق حول القصر جدولاً من الماء، ومدَّ له مضماراً لسباق الخيل على ضفاف نهر قُويق.

وضمَّ قصره في غضون ربع قرن (منتصف القرن الرابع الهجري) كوكبة من أرباب الأدب والعلم والفن، لا تكاد تباريها إلا قصور العباسيين في أزهى عصورهم. ولا عجبَ أن تسمى عاصمته "حلب طراز الذهب". وتجمعت لديه صفوة مختارة من أهل العلم؛ توافدت عليه من العواصم الإسلامية أمثال: أبي الفرج الأصفهاني، ابن خالويه، ابن نباتة، ابن جني، المتنبي، الوأواء، الخالديان، الفارابي... وزاد عدد أطباء بلاطه على عشرين طبيباً.

وحفلت جلساته ومنتدياته بمناقشات حرة، ومجادلات أعادت سمعة حلقات الجدل الفكري في العهد العباسي الذهبي. وانتشر صدى هذه المنتديات الفكرية والأدبية بين أبناء العاصمة، فسمق مستوى شبانها، وازداد إقبالهم على العلم، وتسابقوا للانضواء تحت راية سيف الدولة. حتى أجمع مؤرخو الأدب على أن عصره الأدبي خير عصور الأدب، وأشاد "بروكلمان" بعصره فقال: "... ولئن كان سيف الدولة يدين بما تم له من شهرة عريضة لنضاله الموفق ضد الروم في المحل الأول، فليس من شك أنه يدين كذلك في المحل الثاني لعطفه على الفنون والعلوم لرعايته لها".

حلب بعد سيف الدولة:

سجل أحد المؤرخين المرافقين للإمبراطور "نقفور فوكاس" دهشة الإمبراطور، فقال: "... ولقد دهش الإمبراطور نفسه عند دخوله عاصمة الأمير من فخامة المدينة وروائها، ومن زخرف أسواقها، وأناقة قصورها. بل لقد شعر بالحسد من تفوق حلب على القسطنطينية".

ولم يطل هذا المجد الأثيل الذي تمتعت به حلب في عهد الحمدانيين، لأن المدن تُزهر بأمرائها، وتخبو بزوالهم، ولها عمر كأعمارهم على رأي ابن خلدون. ولاشك أن صمودها وحدها ربع قرن آدَ ظهرها فحنَتْه، وآثرت غفوة حيناً من الزمان أسوة بالمدن التي غفت.

والحق أن مرحلة ازدهار حلب في أيام الحمدانيين قصيرة، لم تكن أكثر من برق أصحبَ رعداً وهديراً، ثم عاد فخبا، فكان برقاً خلّباً. وسرعان ما تلاحقت عليها الفتن الداخلية، والجيوش الفاطمية، والاحتلالات السلجوقية، والهجمات الغربية، والإغارات المغولية الوحشية... فتراجعت ألف خطوة بعد قفزة سيف الدولة. ولم تصح من كبوتها الكهفية إلا على نفير الحرية مع ندّاتها من المدن العربية أيام اليقظة القومية الكبرى.

سلاسل التاريخ حول حلب:

تعدُّ مدينة حلب من أكثر المدن العربية حظوة في التاريخ؛ فقد لاحظت كوكبة من المؤرخين أهمية المدينة، فتسابقوا إلى التعريف بها، والتأريخ لها، وتسجيل معالمها وأعلامها، بدءاً من القرن الخامس الهجري. ولقد فُقد، مع الأسف - بعض هذه الكتب، وفُقد بعضٌ بعضه. لكن مجرد وجود أسمائها دليل على مدى أهمية هذه السلاسل الذهبية.

ومن هذه الكتب:

١- تاريخ الأثاربي: تأليف حمدان بن عبد الرحيم التميمي الأثاربي (٤٨٣-٥٢٠)،

وأتارب من قرى حلب. وهو أول كتاب في تاريخ حلب على قول ابن الحنبلي.

٢- تاريخ العُظيمي: تأليف محمد بن علي التنوخي المعروف بالعظيمي (٤٨٣-٥٥٦هـ).

٣- معادن الذهب في تاريخ حلب: تأليف يحيى بن حميدة الغساني الحلبي، الشهير بابن أبي طيّ (ت ٦٣٠هـ).

٤- بغية الطلب في تاريخ حلب: لابن العديم (ت ٦٦٠هـ) وهو كتاب ضخم يعدُّ في أربعين جزءاً، لم يبق منه سوى القليل، وقد طبع طبعة مشوّهة.

٥- زبدة الحلب في تاريخ حلب: وهو مختصر للكتاب السابق، وهو مطبوع.

٦- الزُّبد والضَّرب: اختصر ابن الحنبلي (ت ٩٧١هـ) كتاب الزبدة وأضاف عليه، وقد حققناه وطبعناه في الكويت.

٧- حضرة النديم من تاريخ ابن العديم: ألفه ابن حبيب الحلبي (ت ٨٠٨هـ).

٨- تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء: انتحل الطبيب الألماني "بيشوف" جزءاً من كتاب الزبدة، وأضاف عليه ما انتحله من كتب حلبية مغمورة أخرى، وطبعه في بيروت عام ١٨٨٠ على أنها له.

٩- الدرّ المنتخب في تاريخ حلب: لعلاء الدين الطائي الجبريني، والمعروف بابن خطيب الناصرية (٧٧٤- ٨٤٣هـ)، والكتاب ذيل على تاريخ ابن العديم.

١٠- المنتخب من الدر المنتخب: لأحمد بن محمد الحصكفي، نسبة إلى حصن كيفا، ولد في حلب ٩٣٧ وقتل في إحدى قراها ١٠٠٣هـ.

١١- كنوز الذهب في تاريخ حلب: تأليف سبط ابن العجمي (ت ٨٨٤هـ).

١٢- در الحبب في تاريخ أعيان حلب: تأليف ابن الحنبلي التادفي (٩٠٨-٩٧١هـ).

١٣- نهاية الأرب في ذكر ولاة حلب: لابن المنلا الحلبي (٩٦٧-١٠١٠هـ).

١٤- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب: نسب الكتاب لابن الشحنة (ت ٨٩٠هـ) ولأبي اليمن البترونى (ت١٠٤٦) وغيرهما. ويذكر الشيخ كامل الغربي أن هذا الكتاب ألفه مجموعة من المؤرخين.

١٥- نهر الذهب في تاريخ حلب: ألّفه كامل الغزي (١٢٧١-١٣٥١هـ). وهو مطبوع بثلاثة أجزاء.

١٦- طرائف النديم في تاريخ حلب القديم" ألّفه ميخائيل الصقال (١٨٥٢-١٩٣٨). وتتمة عنوان الكتاب "ولطائف الحديث في تاريخ حلب الحديث".

١٧- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تأليف الشيخ محمد راغب الطباخ، طبعه في مطبعته بحلب سنة ١٣٤٢هـ، وأعيد طبعه.

١٨- أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر: لقسطاكي الحمصي (١٨٥٨-١٩٤١)، وقد ترجم فيه لخمسين علماً، وطبعه ١٩٢٥.

١٩- الحركة الأدبية في حلب: ألّفه سامي الكيالي، وقد ضم الأموات والأحياء من ١٨٠٠-١٩٥٠، وطبع في القاهرة ١٩٥٧.

٢٠- حلب - Aleppo: ألّفه "كاويه" و"يرب" بالألمانية وطبع في ألمانية ١٩٨٤، ولم يترجم.

٢١- معادن الذهب في الأعيان المشرّفة بهم حلب: ألّفه أبو الوفاء العُرْضي (٩٩٣-١٠٧١ هـ) وهو من تحقيقنا، مطبوع بدمشق ١٩٨٧، ويعاد طبعه بمناسبة الاحتفاء بحلب عاصمة الثقافة الإسلامية.

وعشرات من الكتب لا يمكن ضمها في هذا المقال■

معبد إله الطقس في قلعة حلب



- **تأليف:** كاري كوهلماير.
- **ترجمة:** د. فاروق اسماعيل
- **الناشر:** وزارة الثقافة ٢٠٠٦

تكمن أهمية هذا الكتاب وهو في مئة وتسع صفحات في أنه يوثّق لاكتشاف أثري مهم ومثير في قلعة حلب لم يُنشَر عنه باللغة العربية بعد، ويشكّل دراسة أولية لمكتشفات الفترة ١٩٩٦ - ١٩٩٨ في المعبد، ولا يزال التنقيب مستمراً إلى الآن للكشف عن باقي أجزاء المعبد.



محمل الحج الشامي (دراسة توثيقية)



- **تأليف:** منير كيال.
- **الناشر:** وزارة الثقافة ٢٠٠٦.

على مدى مئتين وأربع وعشرين صفحة وأربعة عشر فصلاً تناول المؤلف موضوعه بادئاً بمكة المكرمة والمسجد الحرام عبر العصور، ثم إمارة الحج الشامي وتشكل القافلة ونقل الحجاج وخدمتهم، كما تطرق إلى موضوعات مهمة مثل مخاطرِ طريق الحج ومواكب الحج الشامي ومحمل الحج، وصولاً إلى الخط الحديدي الحجازي (دمشق - المدينة المنورة).. ثم عودة القافلة واستقبال ركب الحج.



حلب بورتريه بألوان مُعتقة



- **تأليف:** وليد إخلاصي.

على مدى مئة وأربعين صفحة يقدم الروائي وليد إخلاصي عملَهُ بتعريفاتٍ وعناوينَ تشكيلية ولعله صنع لوحته الخاصة، فمن ألوانها: تهيؤات حلبية - تخريفات حلبية - صديقي الفلسطيني - صراعات حلبية - أحزاب أحزاب - سيرة حلبية - مدام أوديت - في رحاب السيدة الجميلة. "أطلتْ حلب من شرفتها، وتمطتْ كامرأة لم تُغرِها شهقات المحبين وآهات التاريخ طمعاً في حبها..".

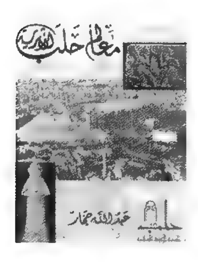
تقاسيم حلبية



◆ تأليف: بهيجة مصري إدلبي

في صفحاتٍ بلغت المئة وأربعاً وعشرين أرسلت بهيجة مصري إدلبي قصائدها في موسيقاها الحلبية بدءاً من قصيدة محكية "وادي السحر" و"صمتها الطرب" و"قالت الشهباء" وكان أيضاً حوارية بين القلعة والمتنبي.. وتقاسيم حلبية: هام الهوى - ارحموني - يا قلب.. الكتاب رحلة حلبية في الشعر وفي الموسيقا وفي فرادةٍ حملتها المدينة منذ القديم وعبرت عنها الشاعرة.. "ارحموني في هواه ارحموني واذكروا قلباً هواه واذكروني".

معالم حلب الأثرية



◆ تأليف: عبد الله حجار

الكتاب يتحدث عن مدينة حلب على طريقة التقسيم السياحي إلى مناطق وجولات وفي كل جولة يرصد المعالم الأثرية والتاريخية من قلعة وأسواق وخانات ومساجد وكنائس وأحياء وحارات وقيسارياتٍ وحمامات وبيوت تاريخية، ويعرض لكل جولة جدولاً وصوراً ومخططاً يسهّل العودة للمعلومة المطلوبة.

صفحات من حياة نزيه مؤيد العظم



◆ تحقيق: د. دعد الحكيم

وهي مجموعة الوثائق التي حققتها الدكتورة دعد الحكيم، رحمها الله، وراجعها ودققها الدكتوران علي القيم وإياد خالد الطباع وتتضمن صفحات من حياة هذا المجاهد (١٨٩٠ - ١٩٧٧) ومن خلالها يتضح تاريخ سورية على مدى قرن من الزمن تقريباً: ثورة ١٩٢٥، ثورة حماة، حسن الخراط، عصابات المجاهدين في أحياء دمشق، تخليد أبطال الثورة السورية في أمريكا، الأحزاب السياسية في دمشق، الميثاق القومي، الأوضاع في حلب والصراع على رئاسة الجمهورية، عيد الجلاء... إضافة لعدد كبير من الرسائل المتبادلة مع رجالات عصره.

القدود الدينية



◆ تأليف: محمد قدري دلال

تناول المؤلف القدود ضمن بحث تاريخي وموسيقي شائق وهو الذي عايش حلب واعياً متتبعاً، ثم متعلماً طالباً على أيدي منشديها ومطربيها وملحنيها، ثم علمائها ومطربيها ورجالات الفضل فيها. ويعدد المصادر التي أخذ منها مشافهة ومتابعة، ومن بعد يحدد لنا الطريقة التي اتبعها في التدوين..ويؤكد أحمد رجائي آغا القلعة، في تقديمه للكتاب: أنه -أي الكتاب- لم يكتب لهذا الجيل فحسب، وإنما سيبقى للأجيال القادمة أيضاً، فهو ليس مجرد تدوين للتراث وإنما سيكون بحد ذاته تراثاً. وبعد التعريف بحلب ومركزها الموسيقي والتراث الغنائي فيها وأشكاله وتفصيل القول في الموشح والقصيدة والدور والموال والقد وأهم الشعراء والمطربين يسرد القدود حسب الترتيب الأبجدي، ويُغْني المؤلف كتابه بجملة من الفهارس المفيدة.

حلب حضارة وعمارة



◆ تأليف: ميغل أرنال.

الكتابُ صورٌ فوتوغرافية مثلت حلب بتفاصيلها الجمالية والحياتية لمصور ضوئي فنان هو (ميغل أرنال) حمل مشروعه في تصوير العمارة الطبيعية والعمارة الإنسانية في نسيج واحد حيث الصور البانورامية مرفقة بالتفاصيل الدقيقة للمكان. بَدْءاً من القلعة بانوراما وتفاصيل ثم الجامع الكبير ودير سمعان والبيمارستان الأرغوني.. ووجوه إنسانية بأبعادها الكثيفة.

يضفي استخدام اللونين الأبيض والأسود فقط مسحة من الوقار على معالم العمارة في حلب التي يمتد عمرها إلى عشرات القرون.

أخبار آثاريّة

لعام ٢٠٠٧

نتائج أعمال البعثة الأثرية الوطنية في الحسكة

أعلن عبد المسيح بغدو رئيس دائرة آثار الحسكة أن عدد البعثات الأثرية التي عملت في المحافظة خلال ٢٠٠٧ وصلت إلى ١٩ بعثة أثرية ثلاث منها وطنية عملت في تل مبطوح شرقي وفي تل شعير وفي تل غويران.

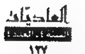
وأضاف ان البعثة الاثرية الوطنية في تل المبطوح التي أنهت أعمالها في الشهر الخامس من العام الماضي اكتشفت أبنية سكنية من اللبن وقناة حجرية لتصريف المياه تعود إلى الالف الثالث قبل الميلاد وعدة تنانير وأحواض جصية دائرية وبيضوية ومعصرتين بيضويتين وقبورا فردية لاطفال وفرنا.

وقال ان اللقى الاثرية التي تم الكشف عنها هي أوان فخارية وأدوات برونزية وحيوانية وخرز حجري ودمى حيوانية وأجزاء من دمى انسانية اضافة إلى عربات ودواليب طينية وجزء من تمثال صغير من القصدير يمثل غزالا وثقافة نسيج من الالباستر اضافة إلى ساحقات حبوب ومدقات وأجران مصنوعة من البازلت.

وتابعت البعثة الاثرية الوطنية في تل الشعير أعمالها في السبر الذي بدأته في الموسم السابق وتمكنت من التعرف على أجزاء من عمارة تعود إلى فترة البرونز الوسط والالف الثالث قبل الميلاد عثر في داخلها على عدة قبور احتوت لقى جنائزية.

وبالنسبة للبعثة الوطنية العاملة في تل غويران التي أنهت أعمالها في الشهر العاشر من العام الماضي فقد كشفت عن أجزاء من أبنية من الحجر واللبن تعود إلى فترة الحضارة العربية الاسلامية القرنين الثاني والثالث عشر الميلادي وأجزاء من أبنية من اللبن تعود إلى الفترة الاكادية الحديثة والقديمة وضمت جدران الابنية العائدة إلى الفترة الاكادية القديمة عدة أفاريز مبنية على شكل نصف قوس مجصصة.

ومن اللقى الاثرية التي تم الكشف عنها رحى ومدقات بازلتية وأدوات معدنية سكين فأس وسراج فخاري.



اكتشاف منزلين أثريين يعودان لـ ٣٣٠٠ ق.م برأس شمرة في محافظة اللاذقية

اكتشفت البعثة الأثرية السورية الفرنسية على أجزاء من منزل واسع تزيد مساحته عن ٧٠٠ متر مربع في موقع تل رأس شمرة أوغاريت في محافظة اللاذقية.

ونقلت وكالة الأنباء السورية (سانا) عن مدير دائرة الآثار في اللاذقية جمال حيدر أنه "تم اكتشاف أجزاء من التحصينات ومنزل تبلغ مساحته ٣٠٠ متر مربع وبداخله مدفن عائلي وبئر ماء فارغ في الجهة الغربية من مدينة أوغاريت"، مشيرا إلى أن "البعثة عثرت أثناء أعمال التنقيب على بئر ماء بعمق ١١ مترا مملوء بالمياه العذبة".

وأضاف أنه "تم تحليل مياهه للتأكد من أنها صالحة للشرب وبذلك فان زوار مدينة أوغاريت يمكنهم مشاركة رواد حضارة أوغاريت المياه التي كانوا يشربونها قبل ٣٣٠٠ عاما قبل الميلاد.

وأوضح حيدر أنه من بين اللقى الأثرية التي عثرت عليها البعثة ختما أسطوانيا عليه مشهد طقوس أوغاريتية، وفأسا من البرونز ورأس أسد وقطعا عاجية وجرة من الباستر.

يذكر أن حضارة أوغاريت المكتشفة عام ١٩٢٩ من القرن الماضي ما زالت تدهش الباحثين بحضارتها العريقة وهي التي كتبت أول أبجدية في التاريخ ولعل المكتشفات الأخيرة ستلقى الضوء على جوانب مختلفة من حياة شعب أوغاريت.

المكتشفات الأثرية في حلب

أنهت البعثات الأثرية العاملة في محافظة حلب إعمالها التنقيبية للموسم الحالى والتى تعد استكمالا لمواسمها السابقة في اطار الحملة الدولية لانقاذ ما يمكن انقاذه من الاثار التى تطالها بحيرة الاسد باكتشافات جديدة في عدة مواقع اثرية ساهمت في تسليط الضوء على الحضارات المتعاقبة في المنطقة الشمالية.

وقال الدكتور يوسف كنجو رئيس شعبة التنقيب في دائرة اثار حلب ان البعثة الوطنية لمديرية الاثار والمتاحف عثرت في موقع البنغة جرابلس على ارضية من الموزاييك فيها لوحة مؤلفة من قسمين يحوى كل قسم مشهدا مختلفا عن الاخر فالأول.. عبارة عن اشكال هندسية ثلاثية الابعاد يحتوى كل منها على رموز دينية بتقنية فنية نادرة وتتمركز هذه الاشكال حول اربع مراكز رئيسية متناظرة.

ويجسد المشهد الثانى.. حيوانا مفترسا ينقض على حصان ويظهر سيلان الدم من جسم الفريسة بأسلوب فنى مميز ويحيط بالمشهد أشكال نباتية ويتكرر المشهد في اربع جهات متناظرة تم تركيبها بطريقة مناسبة وتتضمن نصين كتابيين باللغة السريانية في كل زاوية وكل نص يتالف من ١١ سطرا وتشير القراءات الاولية إلى اسم الدير والمسؤول عنه وتاريخ تأسيسه. وفي موقع عقلة البويدر اكتشفت البعثة الوطنية لمديرية الاثار والمتاحف ارضية كنيسة بثلاثة اروقة



داخليـة بالاضـافة إلى الـرواق الخـارجي البالغة مساحته ٣٠٠ متر.

وبينـت التنقيبـات ان الكنيسـة كانـت محاطـة بالاعمـدة البازلتيـة مـن الجهـة الجنوبية حيث اكتشفت ٦ اعمدة جانبية مع قواعدها. وتتميـز ارضية الكنيسـة ببلاط بـازلتي بشكله الكامل وباليمـا التي تميـز الكنـائس السـورية وتتوضـع في الـرواق الاوسط بشكل نصف دائري من مادة الحجر الكلسي الحواري وتزينها الزخارف الهندسية والنباتية.

وأضـاف كنجـو ان البعثـة السـورية الفرنسية العاملة في جعدة المغارة برئاسة البرفيسـور ايريـك كيكنيـو اكتشـفت بـاقي اجزاء البيت الدائري واللوحة الموجودة فيه والتي اعتبرت اقدم لوحة فنية في الشرق حيث تعود إلى الالف التاسع ق.م.

ويتكـون البيـت الـدائري مـن جـدران ارتفاعها متران وتتوضع الرسوم على الجزء المتقدم من الجدار نحو الداخل مشكلة لوحة برسومات هندسية بثلاثة الوان وهي الاحمر والابيض والاسود وجدران المنزل مطلية بمادة الكلس الابيض ورسم فوقها مباشرة باللونين الاسود والاحمر مربعات ومستطيلات في مجموعات لونية متجاورة مع بعضها البعض. كما عثرت البعثة على قطـع مـن اللـبن في ارضيـة المـنزل عليهـا رسـومات هندسية ما يدل على ان السقف كان مزينا بالرسوم وان البيت كان خاصا باقامـة الطقـوس الدينيـة والمناسـبات الاجتماعية.

واوضـح كنجـو ان البعثـة السـورية اليابانيـة العاملـة في موقـع كهـف الديدريـة برئاسته والبروفيسور تاكيرو اكازكاوا عثرت علـى العديـد مـن الادوات الحجريـة والصوانية والـدمى الطينيـة الـتي تعـود إلى الفترة النطوفيـة الـتي تعتبر نقطة التحـول الاولى نحو المجتمعات الزراعية.

كمـا عثـرت البعثـات الاثريـة الوطنيـة المشتركة على لقى اثرية متعددة كالجرار الفخارية والحلي والـدمى الطينية والقبور في مواقع تل القرامل وبالس والنبي هوري وتل حالولة وتل احمر وتل الهوشرية وقلعة سمعـان وتـل العمارنـة. وتسـهم هـذه الاكتشـافات بالقـاء الضـوء علـى تـاريخ المنطقة و حضارتها الممتدة من عصور ما قبـل التـاريخ إلى العصـور البرونزيـة والحديدية وصولا إلى العصور الكلاسيكية والإسلامية.

انتهاء موسم التنقيب في تل أحمر

لعام ٢٠٠٧

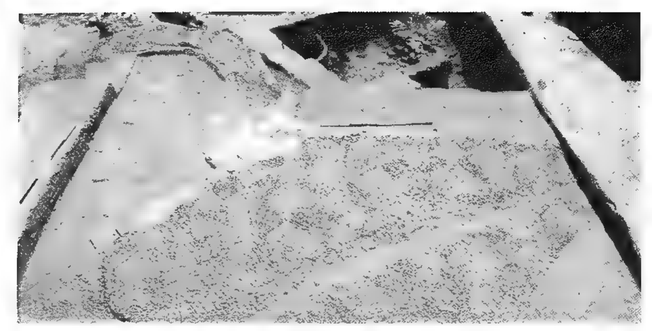
عبد الله حجار*

TELL AHMAR
Acropolis
2007

في لقـــاء مـــع الـدكتور غـي بـونتز مدير البعثة الأثرية البلجيكيـة العاملـة في تـل أحمـر (تـل برسـيب) الواقـع علـى نهـر الفـرات شمـال جسـر قـره قـوزاق جهـة الجزيـرة، ولـدى سـؤاله عـن موسـم الحفريـات الحـالي في التـل المـذكور هـذا العام أفاد بما يلي:

استغرقت الأعمال هـذا الموسم ستة أسابيع انتهت في ٢٩ حزيران ٢٠٠٧، وتألفت البعثة مـن ستة عناصـر فنية بالإضـافة إلى ممثل المديرية العامة للآثار المتاحف الأستاذ معين علي مدير متحف دير الزور. وقد تابعنا أعمال حفريات المواسم السابقة وبخاصة في سطح التل حيث كشف عن جدار فيه عدة مجموعات من الغرف تعود إلى فترة البرونز الأوسط(١٨٠٠ ق.م.) وقد وجد فيها أبواب والعديد من طبعيات الأختام الأسطوانية على جرار وحواف أكياس محروقة ربما

* مهندس مدني، مستشار الجمعية للحضارة الكلاسيكية.



تل أحمر أرضية الفسيفساء من القرن التاسع قبل الميلاد

كانت تحتوي على الحنطة. وقد تميّز البناء الرابع والعائد للبرونز الأوسط بجودة بناء الجدران ووجود باب وطبعة ختم على جرّة. أما في القسم الغربي من التل فقد ظهرت مرّة أخرى أرضية من الفسيفساء المرتبة على شكل مربعات شطرنجية متناوبة بين اللونين الأبيض والأسود من الحصى الصغيرة وتعود إلى الفترة الآرامية والقرنين الثامن والتاسع قبل الميلاد (العصر الحديدي). هذا وقد قام ممثل المديرية العامة للآثار والمتاحف الأستاذ معين علي بالإشراف شخصيا على التنقيب في مربّع خاص لايبعد حوالي ٢٠٠م إلى الشمال من التل حيث اكتشف بقايا جدار وبناء من الفترة الرومانية.

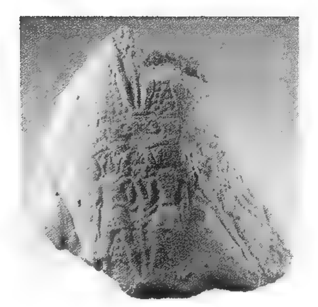
ونأمل في الموسم المقبل أن نتابع العمل جهة الشمال لأن التل ضخم وواعد وقد أظهر حتى الآن مراحل استيطان امتدّت من الألف الرابع والثالث والثاني والأول قبل الميلاد مع العصر الحديدي والفترة الحثية والآرامية وحتى الفترة

حفرية سطح التل



الضخمين وقبر من الألف الثالث ق.م. أضيف إلى هذه اللقى خزانتان أعدهما الدكتور غي بونتز نتيجة الحفريات التي تابعها اعتبارا من عام ١٩٨٨ في التل المذكور. كما هناك نصبان ضخمان لتيشوب إله العاصفة قائمان في الحديقة الداخلية في متحف حلب جلبا من تل أحمر.

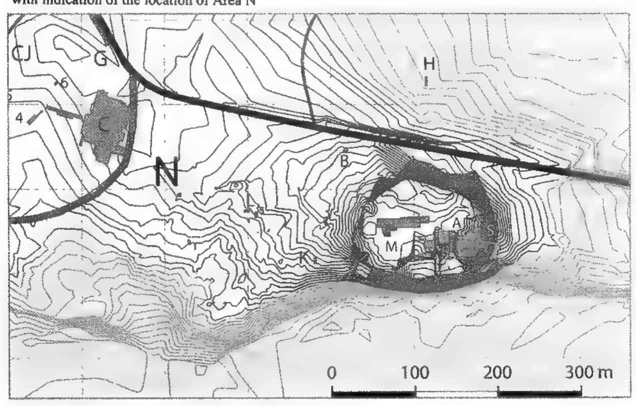
ويحضرني هنا أن أذكر أجزاء الأسدين اللذين تم نقلهما من إحدى بوابات تل أحمر ليعرضا في جامعة حلب، وبعد سبات عميق استغرق سنوات تم أخيرا نصب أجزاء منهما بأبهة أمام المكتبة المركزية، ولا زالت الأجزاء المرمية على الأرض المجاورة للتمثالين والناقصة تنتظر اليد الحانية لتستكمل النصب الرائع الذي يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد. فأين الاهتمام والمهتمون بتراثنا الحضاري؟


ختم من القرن الثامن عشر

الرومانية.

ومن المعروف أن تل أحمر سبق أن نقّب فيه العالم تورو دانجان سنوات قليلة في الثلاثينات من القرن الماضي وهناك قاعة خاصة في المتحف الوطني بحلب تضم اللقى المكتشفة آنئذ وأهمها اللوحات الجدارية ونصبا الملك أسرحدون

Map of the tell and of the village area with indication of the location of Area N



رحيل البروفسور أندره فينه

أستاذ اللغات الأكادية

وردت الأنباء من العاصمة البلجيكية بوفاة العالم الكبير البروفسور أندره فينه استاذ اللغة الأكادية في جامعة بروكسل الحرّة عن عمر يناهز الخامسة والثمانين، أمضاه في البحث والتنقيب وقراءة اللوحات المسمارية والتعريف بتارخنا الحضاري القديم. وقد سبق أن قدّم له طلابه وزملاؤه كتابي تكريم أحدهما بمناسبة بلوغه الخامسة والستين عام١٩٨٧ والآخر عام ٢٠٠٥ وهو في الثالثة والثمانين من العمر، وقد ساهمت في الكتاب الثاني بإهدائه مقالة متواضعة بعنوان "المنشأة الصحية لدى نساك الأبراج والعموديين في القرنين الخامس والسادس للميلاد".

أحب أندره فينه بلاد الرافدين وكان يكنّ محبة خاصة لسورية وتاريخها، لذلك لبّى النداء الذي أطلقته سورية من خلال اليونيسكو لإنقاذ آثار الفرات قبل غمرها ببحيرة السد العظيم فبادر للتنقيب عام ١٩٦٨ في تل القناص القريب من مأخذ جر مياه الشرب من الفرات الى حلب (٩٠ كم غربي حلب) حيث وجد معابد من الألف الرابع والثالث قبل الميلاد.

رحمك الله يا أندره فينه! يا من كنت أعتبره الأب الروحي منذ لقائنا الأول في مدينة الرقة عام ١٩٦٤، حيث استمعنا مع محافظ الرقة والمرحوم الدكتور عبد السلام العجيلي الى محاضرة قدّمها لنا وأطلعنا فيها على لوحين مسماريين



فخاريين يحتويان نظرية فيثاغورس ونظرية تالس مع البرهان وجدا في تل الهرمل من الألف الثانية قبل الميلاد. أي قبل أكثر من ألف عام من عصر العالمين تالس وفيثاغورس، واختتم محاضرته بقوله" أدرسوا تاريخكم".

منذ تلك اللحظة تغلغل فيروس الآثار ومحبتها في دمي. وشاهدت معه آثار الرصافة لأول مرة ورافقته الى تل أبيض لمعاينة تلال حوض البليخ.. وكانت صداقة متينة ترسّخت خلال عمله في التنقيب في تل قناص مع بعثته البلجيكية (١٩٦٨ - ١٩٧٤) وإشرافه اللاحق على البعثات البلجيكية المنقّبة في سورية من خلال أعمال طلابه وزملائه الباحثين الذين نقبوا لاحقا في العديد من التلال مثل تل أبو ضنة وتل أم المرا قرب دير حافر وتل الميلبية

وتل أحمر (تل برسيب) وتل بيدر وتل العمارنة...

كان البروفسور فينه مع فريق العمل الذي قرأ اللوحات المسمارية العديدة المكتشفة في مدينة ماري منذ عام ١٩٣٦ حيث كان يعمل مع استاذه جورج دوسان. وقد كشفت المحفوظات الكثير من تاريخ المنطقة في الألف الثانية قبل الميلاد. ولا أنسى وقفة الوفاء عام ١٩٨٣ بمناسبة الإحتفال بمرور ٥٠ عاما على بدء التنقيب في ماري وانعقاد الندوة الدولية لآثار الفرات في دير الزور، والذي حضرته وزيرة الثقافة آنئذ الدكتورة نجاح العطار ومدام أندره بارو مكتشف ماري، حيث قام بتوجيه بطاقة تحية (كرت بوستال) الىأستاذه جورج دوسان الذي لم يتمكن من الحضور لمرضه، حملت تواقيع جميع العلماء المشاركين مع تمنياتهم له بالشفاء.

كان البروفسور فينه محاضرا رائعا قدّم عدة محاضرات من منابر حلب الثقافية (جمعية العاديات ونادي الشبيبة والمركز الثقافي) تحدث فيها عن عطائنا الحضاري أذكر منها محاضرة عن "الطب في ماري " و" الفرات والبليخ وسيلة مواصلات في الألف الثاني قبل الميلاد" و"ملحمة جلكامش"، كما ساهم في تقديم الأبحاث لكتاب "عاديات حلب" الذي كان يقدّره عاليا والذي يصدر بالتعاون بين جمعية العاديات وجامعة حلب. كما شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات الدولية لآثار المحافظات في دمشق وحلب ودير الزور والرقة وإدلب وسواها.

ومن أهم ما أصدر من كتب بالإضافة الى مساهمته الكبيرة في قراءة نصوص رقم ماري كانت ترجمته الدقيقة لشريعة حمورابي وقد أهداني نسخة من كتابه أعتزّ بها. وأذكر كيف كان يعود اليها البروفسور ألفونسو آركي، قارىء اللغات مع البعثة الإيطالية في تل مرديخ (مملكة إبلا)، الذي أعطانا رموز الكتابة المسمارية في دورة اللغات السامية التي أجرتها كلية الآداب في جامعة حلب للمهتمين خلال أربعة أسابيع من عام ١٩٧٦ (كان العميد الدكتور عمر دقاق وبهمة الدكتور أحمد هبّو) وكان النص يبدأ ب " شوما أويلوم أويلام" أي " إذا رجل رجلاً... قتل، يقتل" وهي المادة الأولى من شريعة حمورابي المكونة من ٢٨٢ مادة. كما أصدر كتاباً عن حفرياته في تل قناص والتي كانت في الواقع منطقة المعابد لمدينة "تل حبوبة كبيرة" المجاورة التي كانت من مدن الألف الرابع المسكونة في سورية والتي حوت على أقدم أنابيب لتصريف المياه الآسنة في العالم المتحضر، كما بينت حفريات البعثة الألمانية بإدارة العالمة إيفا شترومنجر. وهل ننسى انه كان أول من أعلم باولو ماتيّه بوجود مملكة إبلا في تل مرديخ عندما قرأ له الكتابة الأكادية المسجلة والتي تضمنت اسم إبلا على جذع التمثال الذي اكتشف عام ١٩٦٨.

كان المرحوم أندره فينه في منتهى الطيبة دمث الأخلاق وكان يحب المأكولات الحلبية وبخاصة الكبة النيّسة الكبة السفرجلية والفستق الحلبي وكان يدخّن كثيرا مما ربما أثّر على معدته ورئتيه. وظل يدرّس اللغة الأكادية مع تقدّمه بالعمر. واعتكف في داره الريفية الرائعة في قرية "هام سور أور" Ham-sur-Heure القريبة من شارلوروا حيث جرت معركة واترلو عام

١٨١٥، الى أن توفاه الله يوم الأربعاء ٢ أيار ٢٠٠٧ بعد أشهر من المرض المضني الذي أحدث قرحة والتهابا في معدته.

ولن أنسى كلمات رسالة له منذ سنتين أدعوه فيها لتمضية أسبوعين بين محبيه في حلب، اعتذر فيها عن صعوبة تنفيذ ذلك، وعبر عن المحبة التي يكنها لسورية وحلب وعائلته الحلبية حيث يحس ويعتبر نفسه أحد أفراد العائلة.

رحمك الله يا أستاذنا العظيم أيها المحب الكبير لبلدنا. إنك خالد في قلوب طلابك وزملائك ومحبيك، كما انك خالد من خلال ما خلّفته من كتب وأبحاث دار معظمها في فلك الألف الثالث والثاني قبل الميلاد. وستبقى روحك هائمة على ضفاف الفرات واهب الحضارة وفي مقاطع حروف الكتابات المسمارية الخالدة لشعوب بلاد الرافدين التي بادلتَ أهلها حباً بحب ووفاء بوفاء. فلتسترح روحك بسلام.

كنت أتمنى أن تفكر المديرية العامة للآثار والمتاحف مع وزارة الثقافة بتكريم أولئك الذين أحبوا بلدنا وعملوا على إبراز دورها الحضاري لسنوات منذ انشاء السد العظيم وفيما بعد ولا أذكر أو أعلم أسماء الذين كرّموا ومن لم يكرّموا لكنني سأذكر هنا أسماء من أعتقد انهم قدّموا ويستحقون التكريم وفي مقدّمتهم أندره فينه وإيفا شترومنجر وموريتس فان لوون أبو الفرات الذي أطلق حملة إنقاذ آثار الفرات ونقب في تل السلنكحية وحمّام التركمان وسواهما، والمؤرخ الكبير هورست كلنجل الذي ألّف العديد من الكتب معرّفا ببلادنا الحبيبة، وجيورجيو بوتشيلاتي وألفونسو أركي ودافيد أوتس وبيتر بار وجان بيير سوديني وجورج تات وجان بيير وجانين بالتي ومدام يون وهاينس غاوبة ويوجين فيرت والمرحوم ميخائيل ماينكه.. هل من العدل أن ننتظر أن يموت هؤلاء لنرسل كلمة تعزية لأهلهم أو نكتب كلمة تكريم عنهم بعد وفاتهم■



محاضرات على منبر العاديّات

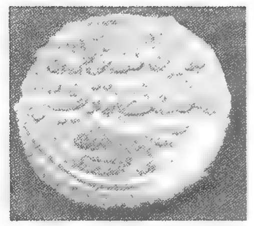
حلب في سيرة الملك الظاهر بيبرس

المحاضر: الدكتور أحمد فوزي الهيب

ولد ركن الدين بيبرس البندقداري عام ٦٢٥ هجرية - ١٢٢٨ ميلادية، سلطان مملوكي، لقّبه الملك الصالح أيوب بلقب "ركن الدين"، وبعد وصول بيبرس إلى الحكم لقب نفسه بالملك "الظاهر".

وبيبرس من أصل تركي ولد في صحراء القبجاق، ووقع في أسر المغول وهو في الرابعة عشرة من عمره، وبيع في سوق الرقيق بدمشق، فاشتراه الأمير علاء الدين إيدكين الصالحي البُنْدقداري، فسمي "بيبرس البندقداري" نسبة إليه، ثم انتقل إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب، فأعتقه وجعله من جملة مماليكه، ثم ولاه رئاسة إحدى فرق حرسه الخاصة، ثم رقاه قائداً لفرقة المماليك لمَا رأى من شجاعته وفروسيته.

واشترك بيبرس في معركة المنصورة الشهيرة عام ٦٤٧ هـ، ثم حارب مع قطز في معركة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ= ١٢٦٠م) وأبلى فيها بلاءً حسنًا، وكان من أبطالها المعدودين الذين صنعوا نصرها، ولكنه قتل قطز متفقاً مع بعض قادة الجيش،



الأسد شعار الظاهر بيبرس ويظهر على ظهر عملة من العملات

لأنه لم يعطه نيابة حلب كما كان قد وعده من قبل، وهذه كانت النقطة السوداء الوحيدة في حياته، ولكن الرجال والأمم لا تقاس بالنقاط السوداء بل بالنقاط البيضاء التي حققتها في حياتها. بعد ذلك اتفق الأمراء المماليك على اختياره سلطانًا على مصر، فدخل القاهرة، وجلس في إيوان القلعة ".

بهذا التعريف بدأ الدكتور أحمد فوزي الهيب محاضرته في جمعية العاديات بحلب تحت عنوان (حلب في سيرة الملك الظاهر بيبرس) ثم عرّج على رواية الأحداث داخلياً وخارجياً قبل أن يتولى بيبرس الحكم. أدرك بيبرس بعد توليه

الحكم أن عليه أن يبدأ عهداً جديداً من القوة والثبات والاستقرار بعد أن آلت إليه مقاليد الأمور في مصر والشام، وأن يفتح صفحة مشرقة في تاريخ المنطقة، فتقرب إلى الخاصة والعامة، وقرَّب إليه كبار الأمراء ورجال الدولة، ووجه عنايته إلى ترتيب شؤون الدولة، وتخفيف الأعباء عن الأهالي، فأعفاهم من الضرائب، وأطلق المحبوسين من السجون، وجدّ في استرضاء رعيته، وأرسل إلى الأقطار المختلفة ليعترف التابعون لدولته بسيادته وحكمه. وكانت الخطوة الثانية التي خطاها بيبرس بعد أن فرض سلطته واستتب له الأمن في البلاد، هي إحياء الخلافة العباسية. بعد انتهاء بيبرس من الجبهة الداخلية اتجه إلى القوى الخارجية المتربصة بدولته، وتطلع إلى أن ينهض بمسئوليته في الدفاع عن الإسلام، ولم يكن هناك أشد خطرًا عليه من المغول والفرنجة، وقبل أن ينهض لعمله أعد العدة لذلك، فعقد معاهدات واتفاقيات مع القوى الدولية المعاصرة له، مثل الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الرومانية ومملكة قشتالة الإسبانية، حتى يضمن حياد هذه القوى حين يشن غاراته على الإمارات الصليبية في الشام، ويسترد ما في أيديهم من أراضي المسلمين.

وذكر د. الهيب أن بيبرس كان أول من جلس للمظالم من سلاطين المماليك، فأقام دار العدل، وخصص يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع يجلس فيهما للفصل في القضايا الكبيرة يحيط به قضاة المذاهب الأربعة، وكبار الموظفين. وإثر حياة طويلة في الحكم دامت سبعة عشر عامًا توفي الظاهر بيبرس بعد أن تجاوز الخمسين في (٢٨ من المحرم ٦٧٦هـ = ٢ من مايو ١٢٧٧م) بعد أن أرسى دعائم دولة قوية عظمى امتدت من الشام شمالاً حتى بلاد النوبة جنوباً، وأقام حضارة ودولة، وخاض معارك كبرى للدفاع عن الإسلام، وتبوأ مكانة رفيعة في نفوس شعبه، فخلّده شعراء عصره بقصائد كثيرة صادقة وصفت بطولاته وأمجاده، كما أحبته فئات الشعب جميعها حباً عظيماً صادقاً، فنسج الخيال الشعبي له سيرة عظيمة عُرفت بسيرة الظاهر بيبرس جمعت بين الحقيقة والخيال، والرؤيسة والرؤيا، والواقع والأسطورة■

زقاق الزهراوي

المحاضر: الروائي فاضل السباعي

نشأت في حي شعبي في حلب يسمى ورا الجامع (شمالي الجامع الكبير)، وفي حارة يطلق عليها زقاق الزهراوي . ومن طريف الأمور أن البيت الذي كان يسكنه الشاعر المتنبي حسب آخر القراءات، هو على مرمى حجر من البيت الذي اكتحلت فيه عيناي بالنور. بهذه المقدمة بدأ الروائي فاضل السباعي محاضرته التي ألقاها في رحاب جمعية العاديات تحت عنوان (زقاق الزهراوي) وفي هذا الحي، كما في السوق الذي كان أبوه يعمل فيه نهاره ويصحبه لمساعدته، عايش السباعي البسطاء والشعبيين والفقراء فأحبهم، ومنهم بدأ باستحياء بواكيره القصصية والروائية، تحدث المحاضر عن حلب بحميمية واستعرض طفولته ومراحل تدرجه في زقاق الزهراوي، فقد سكن جد المحاضر الأقرب (الحاج سليم المفتي

السباعي) حلب قادماً من حمص أيام الحرب العالمية الأولى وفيها زادت ذريته.

كما قال: (لوالدي في حلب اليوم ما يقارب مئة من الأحفاد والأسباط!) عندما أزور حلب مسقط رأسي، لا يفوتني أن أتمشى حول القلعة الباذخة، قبل أن أدخل سوق المدينة عبر سوق الزرب، حتى باب أنطاكية أستنشق عبق التاريخ وأنفاس الحياة الشعبية. وفي حلب الأدب الفن والطرب والعمارة، وفن الطبخ أيضاً وحلب أطلعت من الفنانين عمر البطش، وصبري مدلل، وصباح فخري، وشادي جميل، والميادتين حناوي وبسيليس وفي مجال الشعر والأدب والفكر منها: عمر أبو ريشة، وسامي الكيالي، (صاحب مجلة الحديث) وخير الدين الأسدي (موسوعة حلب المقارنة)، ومظفر سلطان (رائد القصة القصيرة السورية)، وشكيب الجابري (رائد الرواية السورية المعاصرة)، وخليل الهنداوي، والجاران: عبد السلام العجيلي (من الرقة) وحسيب كيالي (من إدلب)، ومن الفنانين التشكيليين: فاتح المدرس، والفريد بخاش، ولؤي كيالي، وورولان خوري، وسامي برهان، وسعد يكن، ووحيد مغاربة، وعلي حسين، وغيرهم كثير، ومنهم الشقيقتان التشكيليتان سهير وخلود السباعي

وعن التأثير والتأثر قال: أدين لمسقط رأسي بنمو الأحاسيس والفكر واكتساب الذكريات وبزوغ موهبة الكتابة وأنا في الإعدادي وأحسب أني رددت إليها بعض الفضل بما استوحيته منها من بواكيري الأولى ولدمشق التي احتضنتني أربعين عاماً أدين بالنصف الآخر من الفضل.

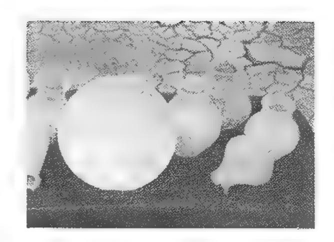
جرابلس: شخصيات وأحداث ومعالم

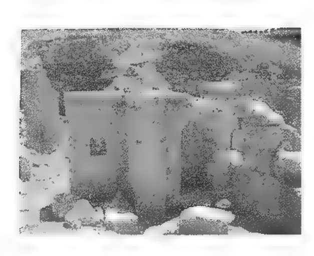
المحاضر: المهندس عبد الله حجّار

في محاضرة ألقاها في رحاب جمعية العاديات، استهل الأستاذ عبد الله حجار حديثه عن جرابلس بذكر رحلة قام بها الأب جرجس منش عام ١٩١٣ لزيارة آثارها والكتابة عنها، ثم تطرّق إلى ذكر شخصيتين هامتين هما جورج سميث، الذي قرأ قصة الطوفان المذكورة في ملحمة جلكامش لأول مرة والمدفون في حلب عام ١٨٧٦، ولورنس العرب الذي نقب فترة أربعة مواسم في حفريات التل التي جرت بين عامي ١٩١١ و١٩٢٠. كما لمّح إلى جسر الخط الحديدي فيها على الفرات والعبور بين الجزيرة الفراتية والشامية. وذكر شيئا عن تاريخ دير قنّشره (قنسرين) القريب من جرابلس ودوره الكبير في الترجمة، وشيئا عن الحفريات الأثرية التي تمت حديثا في الجنوب مباشرة في جرابلس تحتاني وتل العمارنة. وختم بالكولونيل تشيزني وبعثة الفرات عام ١٨٣٥.

وعن رحلة إلى جرابلس تحدث المحاضر عن الأب جرجس منش، وبحثه عن " جرابلس"، الذي نشر في مجلّة العاديات بدءا من العدد الأول شهر أيار السنة الأولى عام ١٩٣١ ونشر إنطباعاته التي لاقت استحسانا من الكثيرين بما فيهم المنقبين في كركميش.

وقد شرح المحاضر تاريخ كركميش حيث جاء ذكرها لأول مرة في وثائق إيبلا في الألف الثالث ق.م. ولم تذكر في النصوص الأكادية ولدى سلالة أور الثالثة لأنها كانت خارج الإطار الجغرافي المعروف آنئذ، لكنها لم تختف لأنّ اسمها ظهر من





جديد في المحفوظات الملكية في ماري في القرن الثامن عشر ق.م. حيث ذكر ملكها "أبلاخندا" أيام حكم الملك يحدوليم في ماري، وكانت عندئذ مركزا تجاريا هاما للأخشاب ونقلها إلى بلاد الجنوب.

وجد في كركميش استيطان من العصر الحجري الحديث (النيوليتي)، كما وجد فيها فخار جمدة نصر - أوروك (٣٢٠٠ - ٢٨٠٠ ق.م.) المعروف لدى السومريين في جنوب العراق. وقد وجد فيها مدافن من فترة البرونز المبكّر (٢٣٠٠ - ١٨٠٠ق.م.) والبرونز الأوسط (١٨٠٠- ١٥٥٠ ق.م.) والمتأخر (١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق.م.). وقدبيّنت الحفريات التي تمّت بين عامي ١٩١١ و١٩٢٠ تحصين المدينة بسور مضاعف فيه بوّابات محميّة بأبراج دفاعية. وقد وجد المنقبون في القلعة مجموعة من أحجار التأسيس (اورتوستات) البازلتية تحوي رسوما نافرة توجد عادة أسفل جدران المعابد الدينية، وكان ذلك فريدا آنئذ، وقد وجد له الآن مثيل في مواقع أخرى مثل معبد تل عين دارة جنوب عفرين ومعبد قلعة حلب (تنقيبات البعثة السورية - الألمانية المشتركة بإدارة كاي كولماير). كما وجد ملامح فن آشوري ربّما جلبها الحوريون من شمال سورية. (مقارنة إله الطقس في كركميش مع إله الطقس في معبد قلعة حلب وذكر تقديم جوليان الجاحد الأضحية في معبد حلب عام ٣٦٣ م قبل ذهابه لمحاربة الفرس ومقتله، ورأي البروفسور فان لون بتاريخ المنحوتات).

أما تل العمارنة فهو يبعد ٨ كم إلى الجنوب من جرابلس ويقع على وادي العمارنة بعيدا عن الفرات قرب طريق جرابلس - منبج، ذكره (وولي) أثناء تنقيبه في كركميش، وقد اقتنى بعض اللقى المستخرجة منه دون أن يقوم بحفريات فيه. وهو تل بيضوي الشكل إرتفاعه ٢٠ م ويحدّه من الشمال والغرب وادي العمارنة. وقد قام العالم أورخان تونغا مع بعثة بلجيكية بالتنقيب في التل إعتبارا من عام ١٩٩٢ وقد وجد على مسافة ٦٠٠ م جنوب شرقي التل آثار تل حلف واستمر التنقيب حتى عام ١٩٩٧ وتبين وجود الفترة الرومانية والبيزنطية في المدينة المنخفضة الممتدّة إلى الغرب والشرق من التل مع فسيفساء رائعة لكنيسة بازليك من القرن السادس للميلاد، ولم تجد البعثة جنوب التل مباشرة أي أثر للعصر الحديدي بل وجدت طبقة من الطمي بسماكة مترين بالإضافة إلى أبنية رومانية وبيزنطية.

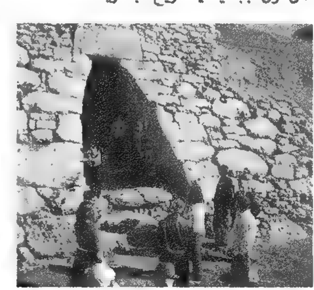
قطار الأحلام مع العاديات

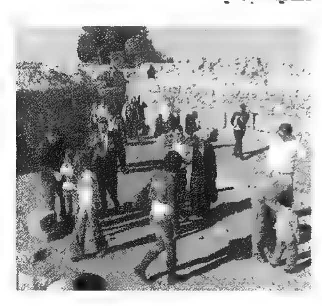




قامت جمعية العاديات برحلة أثرية لمدة يومين في قطار سياحي خاص إلى حماه-حمص- طرطوس - اللاذقية في ٢٣-٢٤ /٢٠٠٧/١١. وهي تجربة فريدة من نوعها زارت خلالها المعالم الأثرية لتلك المناطق وأهم المتاحف والقلاع ، وكانت هناك زيارة مطولة لأوغاريت وهي مدينة أثرية في موقع يدعى رأس شمرا، على بعد ١٠ كم شمال اللاذقية، على ساحل المتوسط. بدأت الحفريات في الموقع عام ١٩٢٩ بعد أن اكتشف مزارعون محليون بعض الآثار هناك. في أوغاريت، وجدت ألواح فخارية يعتقد أنها تحمل أول أبجدية في تاريخ البشرية.

أشاد المشاركون في الرحلة بالعناية الكبيرة التي أولتها لهم المؤسسة العامة للخطوط الحديدية خلال يومي الرحلة حيث رافق الرحلة المهندس إبراهيم خضرو مدير الحركة في المؤسسة وشرح للمشاركين تاريخ الخطوط الحديدية والتحديثات الجارية في حركة القطارات في سورية، وأمّن مبيتاً مريحاً في محطة طرطوس . وقد عادت الرحلة بمجموعة كبيرة من الصور و الأفلام الخاصة بالرحلة أثناء زيارة الأماكن الأثرية. ومن المقرر إقامة ندوة عن هذه الرحلة خلال الشهر القادم، مطلع ٢٠٠٨ ،ضمن النشاط الثقافي للجمعية.





برنامج محاضرات جمعية العاديات
للربع الأول من عام ٢٠٠٨

التاريخ	المحاضر	المحاضرة
١/٩	الروائي فاضل السباعي	زقاق الزهراوي
١/١٦	د. جمال طحان + د.محمد خواتمي	قطار الأحلام
١/٢٣	م. عبد الله حجار	جرابلس: تاريخ وآثار وشخصيات
١/٣٠	د.أحمد أديب الشعار وسمير طحان	قراءة في كتاب "مجمع العمرين" السجل الحي للعامية الحلبية
٢/٦	م. يوسف كنجو	كنائس وأديرة مكتشفة حديثاً في حلب
٢/١٣	د. أحمد الشيخ قدور	الطعام والشراب في تذكرة أولي الألباب لداود الأنطاكي
٢/٢٠	مجموعة من الباحثين	ندوة اللغة العربية بالتعاون مع كلية الآداب وفي مقر الكلية
٢/٢٧	م. محمد صبحي المعمار	تحصين المدينة الإسلامية "حلب وقلعتها"
٣/٥	د. صلاح كزارة	صفحات مجهولة من تاريخ حلب أواخر العهد العثماني
٣/١٢	م. فايز قوصرة	بنية حلب السكانية في العهد العثماني
٣/١٩	م. مجد الصاري	البيروني والاسطرلاب
٣/٢٦	د. حميدو حمادة	المستجدات في تنقيبات ماري

تقام النشاطات الثقافية في مقر الجمعية – آخر شارع اسكندرون، قرب صالة معاوية الساعة الثامنة من مساء الأربعاء من كل أسبوع.

يمكن الاطلاع على المحاضرات مع الصور على موقع جمعية العاديات
http://www.adyatsyria.com
كما يمكنكم مراسلتنا عبر البريد الالكتروني: adyat@scs-net.org



برنامج الزيارات والرحلات

زيارات داخلية

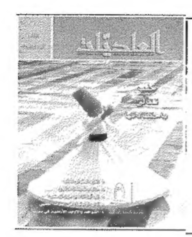
الرقم	التاريخ	مكان الزيارة	مكان التجمُّع	الساعة
١	الجمعة ٢٠٠٨/٢/٧	المتحف الوطني	ساحة المتحف	٩ صباحاً
٢	الجمعة ٢٠٠٨/٣/٢١	القلعة - خان الشونة	أمام القلعة	٩ صباحاً
٣	الجمعة ٢٠٠٨/٤/٤	حي الجديدة الكنائس الأثرية - جامع شرف	ساحة فرحات	٩ صباحاً
٤	الجمعة ٢٠٠٨/٤/١٨	الجامع الأموي - الحلوية - المدرسة الشرقية	أمام الجامع الأموي	٩ صباحاً
٥	الجمعة ٢٠٠٨/٥/٢	باب أنطاكية - الشعيبية - القيقان - البيمارستان النوري	أمام باب أنطاكية	٩ صباحاً
٦	الجمعة ٢٠٠٨/٥/١٦	خان قورت بك - جامع المهمندار - قصر جنبلاط - المدرسة العثمانية	ساحة السبع بحرات	٩ صباحاً
٧	الجمعة ٢٠٠٨/٥/٣٠	خان الوزير - جامع فستق - المطبخ العجمي - خان خيري بك - بيت المتنبي	أمام خان الوزير	٩ صباحاً
٨	الجمعة ٢٠٠٨/٦/١٣	مدرسة ابن العديم - جامع التوبة - جامع السكاكيني	أمام القلعة	٩ صباحاً
٩	الجمعة ٢٠٠٨/٦/٢٧	باب النصر - تراب الغرباء - أوج خان - المصبغة - جامع الميداني	أمام باب النصر	٩ صباحاً

رحلات داخلية

الرقم	التاريخ	مكان الزيارة	مدة الرحلة
١	٢٠٠٨/٣/١٤	الرصافة - الرقة - قلعة جعبر	يوم واحد
٢	٢٠٠٨/٣/٢٨	اللاذقية - جبلة - قلعة المرقب	يوم واحد
٣	٢٠٠٨/٤/١١	حماة - قصر ابن وردان	يوم واحد
٤	٢٠٠٨/٤/٢٥	ايبلا - المعرة - ضريح عمر بن عبد العزيز - سرجيلا - البارة - جبل الأربعين	يوم واحد

رحلات خارجية

الرقم	التاريخ	مكان الزيارة	مدة الرحلة
١	٢٠٠٨/٢/٣٦	الأردن: عمان - العقبة	خمسة أيام
٢	٢٠٠٨/٤/١١	تونس: سوسة - الحمامات	ثمانية أيام
٣	٢٠٠٨/٤/٢٥	تركيا: أنطاكية - اسكندرون	أربعة أيام



العاديّات..
الثقافة تُعطي معنىً للحياة

عدنان بوجناح*

لم أجد ما يضاهي هذه الجمعية الثقافية التليدة في تاريخ الجمعيات المماثلة بالبلاد العربية، فعمرها الآن يزيد على الثمانين (شهدت ميلادها سنة ١٩٢٤) وأعضاؤها يعدون بالآلاف من كافة أصناف المثقفين وأهل المعرفة والعلم والأدب والفن، وعندما ترى عينة منهم ترى بينهم الشاب المتدفق حيوية والعجوز الذي يخطو الهوينى، وهو يخرج متأبطاً عدده الجديد من "العاديات" وترى الفتاة الفارعة في ذراع أمها المحدودبة تدخلان قاعة المحاضرات أو تتنقلان بين أجنحة معرض لوحات أو وثائق أو كتب ومجلات أو تقبلان على زيارة ميدانية من الزيارات.ولهذه الجمعية التي مقرها حلب فروع ومكاتب في مختلف محافظات القطر وهيئة استشارية تضم نخبة من أقطار عربية بينها تونس، إلى جانب التمثيل السوري، أما أنشطتها فعلى مدار العام، محاضرات وأمسيات وزيارات ميدانية للمعالم الأثرية، فضلاً عن الرحلات واللقاءات الترفيهية والدراسية والندوات العلمية التي عادةً ما تنظمها بالتعاون مع الجامعة.

والمذهل حقاً هو الدور الذي اضطلعت به هذه الجمعية "العاديات" وطاقمها الإداري والعلمي النشيط في فعاليات "حلب عاصمة الثقافة الإسلامية" ومختلف الأنشطة والعروض والتظاهرات والمنشورات التي شهدتها بالمناسبة عاصمة سيف الدولة خلال العام ٢٠٠٦ وبعض العام ٢٠٠٧.عشرات الكتب الحافلة بمآثر حلب وأعلامها وأعمالها أعدّته نخبها العلمية والأدبية والفنية والميدانية من شتى ميادين الاختصاص وصدرت في طبعات أنيقة، وعشرات الندوات العلمية التي تكفلت الفصلية الصادرة عن الجمعية (العاديات) بنشر وقائعها عبر أعدادها التي نفيد القراء بمحتوياتها في هذه العجالة.فقد

* صحفي - تونس.



خصّت "العاديات" ملف الاحتفالية بثلاثة أعداد مزدوجة (ربيع وصيف ٢٠٠٦، خريف وشتاء ٢٠٠٦، ربيع وصيف ٢٠٠٧) ضمّت ندوات متنوعة المواضيع مثل "الإسلام وحقوق الإنسان" و"ابن خلدون وموقعه في المشروع النهضوي التنويري المعاصر" و"حلب وحوار الحضارات" و"الحياة الفكرية والأدبية في بلاط سيف الدولة" و"النتاج العلمي والفكري لحلب عبر العصور" و"الندوة التاريخية حول بلاد الشام في عصر الرسول" و"دور المكتبات والتوثيق في الثقافة الإسلامية" و"الكواكبي وهج تحت الرماد" و"الحياة الاقتصادية في حلب عبر التاريخ" و"تعميق الوعي واحترام الخصوصيات الثقافية والتنوع في العالمين العربي والإسلامي" و"التراث الثقافي اللامادي لمدينة حلب عبر العصور الإسلامية" و"دور وسائل الإعلام في إبراز صورة الإسلام في العالم" و"حلب بين التراث والمعاصرة" و"دور حلب في حركة النهضة" التي شارك فيها من تونس الباحثون: الطاهر الهمّامي وزهيّة جويرو وفاروق العمراني ومحمد الخالدي.

و"المخرج العالمي مصطفى العقاد وأعماله" و"حول استراتيجية إدماج الأقليات الإسلامية" و"الحركة العلمية والأدبية في حلب زمن الأيوبيين" و"المدينة الحديثة في المدينة القديمة" و"الفلسفة في مواجهة التحديات المعاصرة" و"جهود علماء حلب في العلوم الإسلامية" و"فلسفة العمارة الإسلامية".

ضمت الأعداد المزدوجة الثلاثة وقائع هذا الحشد من الندوات بالكلمة والصورة إلى جانب كتابات أخرى فردية في جزئيات ذات علاقة وتقديم المؤلفات الصادرة على هامش الحدث في صلب الحفريات التراثية المذكورة، وقصائد من وحي الأوابد والشواهد الحلبية.

كهذه التي عنوانها "الحلبية" للطاهر الهمّامي الذي بناها على مطلع المتنبي:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي

وللحب ما لم يبق مني وما بقي

فقال فيما قال:

لعينيك ترحالي ومسعايَ والسرى

وبحثي وتسآلي وتيهي ومطلقي

لعينيك ما أبقيت لون كهولتي

ولم أمح ما خط الزمان بمفرقي

وما كنت ممنْ يدخل العشق قلبه

ولكن من ينزل ديارك يعشق

وضم العدد الذي حوى الملف الختامي للاحتفالية نص العرض المسرحي الراقص الذي شاهده النظّارة في حفل الاختتام وقدمته فرقة إنانا السورية للمسرح الراقص وموضوعه "الملكة ضيفة خاتون" المرأة الأيوبية التي حكمت حلب وعاشت بين ٥٨١ و ٦٤٠ هـ.

إنك وأنت تجول في مجالي "العاديات" تلمس أناقة الصورة وبهاء الطباعة فضلاً عن قيمة الوثيقة حين تسكن بين دفّتي دورية تختزل بأعدادها الثلاثة حراك ما يزيد على السنة من احتفالية حلب الشهباء عاصمة ثقافية، ومزار أهل الشوق والذوق.

العاديّات

فصلية تعنى بشؤون التراث والفكر تصدرها جمعية العاديّات

